دراسات في

تاريخ الأيوبيين والمماليك

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦

Bibliotheca Alexandrina
0187278

دراسات فى

تاريخ الأيوبيين والمماليك

الدكتور

حمدى عبد المنعم محمد حسين

بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية

٢٠٠٠

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قناة السويس - الشاطبى ت ٥٩٧٣١٤٦

﴿ وقل رب زدني علماً ﴾

صدق الله العظيم

القسم الأول

تاريخ مصر فى العصر الأيوبى

٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ/١١٧١ ـ ١٢٥٠م

قيام الدولة الأيوبية

تنسب الدولة الأيوبية إلى صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذى.

وتتفق مصادر تاريخ الدولة الأيوبية على أن أسرة صلاح الدين أسرة كردية من بلدة دوين على مقربة من أذربيجان، وقد رحل أبوه نجم الدين بصحبة أخوه أسد الدين شيركوه من بلدتهما وقصدا العراق، وخدما الأمير مجاهد الدين بهروز الخادم الذى كان يشغل منصب شحنة (أى محافظاً) لمدينة بغداد من قبل السلاطين السلاجقة، وكانت تكريت - وهى بلدة مشهورة بين بغداد والموصل - إقطاعاً له، فتقدما عند مجاهد الدين بهروز، ففوض إلى نجم الدين أيوب دزدارية تكريت - وهى كلمة فارسية مكونة من لفظين: دز ويقال دز - أى قلعة، ودار الحافظ أو الممسك فكأن معناها صاحب القلعة أو متوليها - فسار إليها نجم الدين وأسد الدين شيركوه، ونزلا بقلعتها، وأقاما بها مدة.

ولما وقعت الحرب بين الخليفة المسترشد بالله العباسى والأمير عماد الدين زنكى ابن آق سنقر سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م تلك الحرب التى انتهت بهزيمة عماد الدين زنكى وفراره إلى مدينة تكريت، وقد تقدم نجم الدين أيوب لمساعدة زنكى فى محنته هذه، وقدم له السفن لعبور نهر دجلة، كما أحسن نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه صحبته، وكان هذا أول المعرفة بين عماد الدين زنكى وبين نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه ومبدأ سعادتهما.

وفى ذلك الوقت حدث لنجم الدين أيوب ما استوجب عزله -

بالإضافة إلى السبب الذى ذكرناه منذ قليل والخاص بمساعدته لزنكى ـ فقيل كان السبب أن أسد الدين شيركوه قتل إنساناً بتكريت ظلماً، فعزل مجاهد الدين بهروز أخاه نجم الدين أيوب لذلك، وقيل : إن نجم الدين أيوب رمى مملوكاً من مماليك مجاهد الدين بهروز بسهم فقتله، فخشى نجم الدين بطش بهروز، فتوجه نحو الموصل ومعه أخوه أسد الدين، فخدما عماد الدين زنكى ـ صاحب الموصل ـ فأحسن إليهما، وقربها، ورعى لهما خدمتهما له، وبالغ فى إكرامهما وأقطعهما إقطاعات جليلة وكان ذلك فى عام ٥٣٢هـ/١١٣٨م، وقيل أنه فى نفس الليلة التى خرجت فيها أسرة نجم الدين أيوب من تكريت ولد لنجم الدين طفل هو يوسف صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية.

كانت سياسة عماد الدين زنكى تهدف إلى توحيد الجبهة الإسلامية للوقوف أمام الخطر الصليبى، فلما فتح مدينة بعلبك ٥٣٣هـ/١١٣٩م جعل نجم الدين أيوب دزدارا فيها، ولم يزل متوليها إلى أن قتل عماد الدين زنكى سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م.

انقسم ملك عماد الدين زنكى بين ولديه: سيف الدين غازى فى الموصل، ونور الدين محمود فى حلب، وكان صاحب دمشق إذ ذاك مجير الدين أبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بورى بن ظهير الدين طغتكين، وكان طغتكين هذا أتابك الملك شمس الملوك دقاق بن تاج الدولة تتش ابن السلطان ألب أرسلان السجلوقى، فلما مات دقاق استقل طغتكين بملك دمشق، وملك بعده ابنه تاج الملوك بورى ثم ملك بعد تاج الملوك أبنه شمس الملوك إسماعيل فقتلته والدته، وملكت أخاه شهاب الدين محمود بن بورى، ثم قتل شهاب الدين وولى أخوه جمال الدين وملك بعده ولده مجير

الدين أبق، وكان أتابكه والقائم بأمره معين الدين أنر مملوك جده طغتكين. فلما قتل عماد الدين زنكى، راسل مجير الدين أبق وأتابكه معين الدين أنر نجم الدين أيوب ليسلم إليهما بعلبك على أن يعطوه إقطاعاً جليلا بدمشق، فأجابهما إلى ذلك وسلم إليهما بعلبك، ونزل نجم الدين أيوب بدمشق وتسلم الإقطاع الذى عين له. وقد ذكرت بعض المصادر أن تسليم نجم الدين أيوب بعلبك إلى صاحب دمشق كان سببه أنه راسل الأمير سيف الدين غازى ابن عماد الدين زنكى ـ وهو أكبر من أخيه نور الدين محمود ـ ليسلم إليه بعلبك ويرسل إليه من يحفظها، فأبطأ عليه، وخاف نجم الدين أيوب أن تؤخذ منه بعلبك عنوة، ويناله أذى، فسلمها إلى مجير الدين أبق صاحب دمشق.

أما الأخ الآخر أسد الدين شيركوه، فقد اتصل بنور الدين محمود بن عماد الدين زنكى، وصار من أخص أصحابه ومقدماً على سائر أمرائه، لما عرفه من شهامته وشجاعته، وإقدامه فى الحرب على ما لا يقدم عليه غيره، ولم تزل مكانته تزداد لديه إلى أن أقطعه مدينتى حمص والرحبة. ولما كان نور الدين محمود يسير على سياسة والدة عماد الدين زنكى فى توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين، فقد تطلع إلى الاستيلاء على مدينة دمشق من صاحبها مجير الدين أبق، ولذلك أوعز إلى أسد الدين شيركوه بمكاتبة أخيه نجم الدين أيوب ـ وكان مقيماً بدمشق ـ وطلب منه مساعدته، فطلب أسد الدين وأخوه نجم الدين مقابل ذلك الحصول على كثير من الإقطاعات بمدينة دمشق، فبذل لهما نور الدين ما طلبا، وأقسم لهما على ذلك، فساعد نجم الدين أيوب فى تسليم دمشق إلى نور الدين محمود ٥٤٩هـ/١١٥٤م، ووفى لهما بما أقسم لهما عليه، وصارت منزلتهما عنده فى أعلا المراتب وصار أسد الدين شيركوه مقدم جيوشه وعساكره.

حملات شيركوه على مصر

وفى ربيع الأول سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م وصل أمير الجيوش أبو شجاع شاور بن مجير السعدى إلى دمشق مستنصراً بنور الدين محمود على ضرغام بن سوار الملقب بالمنصور، وكان تغلب على الوزارة وأخرج شاور منها، وقتل ولده طياً، وسأله أن يرسل معه جيشاً إلى مصر ليساعده، ضد خصمه ضرغام وفى إعادته إلى منصب الوزارة، مقابل أن يمنحه ثلث إيرادات مصر وأن يدين له بالطاعة والولاء، فتردد نور الدين محمود فى أول الأمر لخوفه على عساكره من الصليبيين لسيطرتهم على الطريق الموصل بين نور الدين محمود والديار المصرية، وأخيراً استخار الله وقرر تلبية طلب شاور، وأمر أسد الدين شيركوه بإعداد الجيوش النورية ومصاحبة شاور إلى مصر، وصحب شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين. وخرج نور الدين محمود بنفسه ببقية العساكر النورية ليشغل الصليبيين عن التعرض لأسد الدين شيركوه وعساكره.

علم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلى مصر، فأصابه الفزع، إذ لم يكن الجيش الفاطمى فى ذلك الوقت فى حالة تمكنه من المقاومة أو إحراز النصر، وأرسل ضرغام الرسائل إلى عمورى ملك بيت المقدس يطلب مساعدته ضد نور الدين محمود على أن يدفع له مبلغاً سنوياً من المال، وقد وافقت هذه الدعوى هوى فى نفس عمورى إذ كان يطمع فى مد نفوذه إلى مصر، فبدأ يعد جيشاً لمساعدة ضرغام.

ولما قارب أسد الدين شيركوه من مصر، خرج إلى لقائه ناصر الدين أخو ضرغام بعساكر مصر، فلقيهم، فانهزم ناصر الدين وعاد إلى القاهرة مهزوماً فى أواخر جمادى الأولى ٥٥٩هـ/مارس سنة ١١٦٤م وتفرق عن ضرغام

قواده وأعوانه، ثم قبض عليه وقتل عند مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وبقي مطروحاً يومين، ثم حمل ودفن بالقرافة، وقتل أخوه ناصر الدين أيضاً.

وخلع على شاور خلع الوزارة في مستهل رجب ٥٥٩هـ/مايو ١١٦٤م وأعيد إلى الوزارة، وأقام أسد الدين شيركوه بظاهر القاهرة، غير أن شاور لم يلبث أن غدر بـه ورفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه، وأرسل إليه يطلب منه العودة إلى الشام، فامتنع أسد الدين عن إجابة شاور إلى مطلبه، وأرسل قواده إلى مدينة بلبيس فتسلموها، فأرسل شاور حينئذ إلى الصليبيين يستمدهم ويخوفهم من نور الدين محمود إذا تملك الديار المصرية، فرحب عموري بالدعوة، وأسرع بالخروج بجيشه إلى مصر. ولما بلغ نور الدين توجه عموري إلى مصر، سار بعساكره إلى أطراف البلاد التابعة للصليبيين في بلاد الشام ليمنعهم من المسير إلى مصر، فلم يمنعهم ذلك، لعلمهم أن الخطر الأكبر عليهم يأتي من استيلاء نور الدين محمود على مصر، فتركوا في بلادهم من يحفظها من جيوش نور الدين، وتوجه عموري ببقية عساكره إلى مصر بعد أن استعان بجمع كثير من الفرنج الذين كانوا قد وصلوا لزيارة بيت المقدس.

تحصن أسد الدين شيركوه بمدينة بلبيس، فشددت العساكر المصرية والصليبية الحصار عليه، وظل شيركوه يقاوم الحصار ثلاثة شهور مع أن سورها من الطين وليس لها خندق يحميها، وتشدد شيركوه في قتالهم ليلا ونهاراً، فلم يتمكنوا من النيل منها. وقد أحس نور الدين محمود بما يهدد جيشه في مصر من خطر، فبدأ يضغط على أملاك الصليبيين في الشام، وهاجم مدينة بانياس واستولى على قلعة حارم الصليبية الحصينة، وقد بلغت هذه

الأخبار عمورى أثناء وقوفه أمام مدينة بلبيس فعظم ذلك عليه، وخاف على بلاده، فراسل أسد الدين شيركوه فى الصلح وتسليم ما أخذه من البلاد إلى المصريين. فوافق شيركوه على ذلك لأن الأقوات قلت عنه، كما أدرك عجزه عن مقاومة المصريين والصليبيين معاً، فصالحهم، وخرج من بلبيس فى ذى الحجة سنة ٥٥٩هـ/أكتوبر ـ نوفمبر ١١٦٤م، فذكر من شجاعته وشهامته أن أصحابه خرجوا بين يديه، وخرج خلفهم وبيده لت حديد وهو يحمى ساقتهم والمسلمون من المصريين والفرنج ينظرون إليه ويتعجبون منه، فأتاه إفرنجى من الغربا ـ أى أنه إفرنجى من الوافدين من أوربا لا من الفرنج المستقرين فى الشام ـ ، وقال : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك، فلا يبقى منكم بقية فقال أسد الدين: «ليتهم، لو فعلوا حتى كنت ترى ما أفعل، كنت والله أضع فيهم السيف، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل رجالا، وحينئذ يقصدهم نور الدين وقد ضعفوا وفنيت شجاعتهم، فيملك؛ بلادهم، ويهلك من بقى منهم، والله لو أطاعونى هؤلاء لخرجت إليكم أول يوم، ولكنهم امتنعوا». فصلب الفرنجى على وجهه وقال: «كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغاتهم فى وصفك وخوفهم منك، والآن قد عذرناهم».

سار أسد الدين شيركوه إلى الشام سالماً، وكان الفرنج قد وضعوا له فى الطريق رصداً للقبض عليه وقتله، فعلم شيركوه بذلك، فعاد عن تلك الطريق، وفى ذلك يقول الشاعر عمارة اليمنى يمدحه:

أخذتم على الإفرنج كل ثنية ∴ وقلتم لأيدى الخيل مرى على مرى
لئن نصبوا فى البر جسراً فإنكم ∴ عبرتم ببحر من حديد على جسر

ووصل أسد الدين شيركوه إلى دمشق، وفى عودة شاور إلى منصب الوزارة يقول عمارة اليمنى يمدحه:

فنصرت فى الأولى بضرب زلزل الـ ∴ ـأقدام وهى شديدة الإقدام
ونصرت فى الأخرى بضرب صادق ∴ أضحى يطير به غراب الهام
أدركت ثأراً، وارتجعت وزارة ∴ نزعاً بسيفك من يدى ضرغام

حملة شيركوه الثانية على مصر

عاد أسد الدين شيركوه إلى الشام، إلا أنه ظل يفكر تفكيرًا جديًا في العودة إلى مصر، وأخذ يلح على سيده نور الدين محمود أن يزوده بجيش أكثر عددًا وأوفر عدة للمسير إلى مصر، فاستجاب نور الدين، وسيره في ربيع الأول سنة ٥٦٢هـ إلى مصر ليملكها، وسير معه جمعًا من الأمراء، فبلغت عدتهم ألفي فارس، وسار معه نور الدين محمود إلى أطراف البلاد خوفًا من غدر الفرنج بهم. وكان صلاح الدين يوسف مع عمه أسد الدين شيركوه في هذه الحملة، وفي ذلك يقول الشاعر عرقلة الدمشقي يمدح صلاح الدين:

أقول والأتراك قد أزمعت ∴ مصر إلى حرب الأعاريب
ربّ كما ملكتها يوسف الـ ∴ صديق من أولاد يعقوب
تملكها في عصرنا يوسف الـ ∴ صادق من أولاد أيوب

وصل أسد الدين بجيشه إلى مصر، وعبر النيل عند قرية أطفيح (وهي قرية من قرى مركز الصف بمحافظة الجيزة) إلى الجيزة، وأقام بها نيفًا وخمسين يومًا. أرسل شاور يستنجد بالفرنج، فاستجابوا له لطمعهم في تملك مصر، ولخوفهم من تملك العساكر النورية لها، وعلموا أنه إن ملكها نور الدين وأضافها إلى بلاد الشام لم يبق لهم ببيت المقدس والشام مقام وأنه يستأصلهم وتصبح بلادهم في وسط بلاده، فلما وصلوا إلى مصر، اجتمعوا بالعساكر المصرية، وعسكر الجيشان عند الفسطاط على البر الشرقي للنيل مقابل جيش أسد الدين شيركوه.

تألم أسد الدين أن يستعين شاور بالصليبيين أعداء الإسلام، فحاول أن

ينقذ مصر من شرهم وأرسل إلى شاور يعرض عليه أن يتعاونا ويكونا يداً واحدة لمقاومة الصليبيين، وأن وجود عمورى وجيشه فى مصر فرصة موآتية من الخير أن ينتهزاها معاً للانقضاض عليه، ولكن شاور لم يكن يعنيه إلا كرسى الوزارة والإبقاء على نفوذه وسلطانه، فلم يستمع لنصيحة أسد الدين، بل قتل رسوله ورد عليه رداً قبيحاً.

اتجه شيركوه بجيشه إلى الصعيد إلى أن بلغ موضع يعرف بالبابين (وهى قرية كانت تقع جنوب مدينة المنيا)، فسار عمورى وشاور بجيشهما حتى بلغا البابين فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٢هـ/١٩ أبريل سنة ١١٦٧م. وكان جواسيس وعيون أسد الدين شيركوه قد أخبروه بكثرة عدد الفرنج والمصريين فجمع قواده واستشارهم، فأشاروا عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقى والعودة إلى الشام، وقالوا: «إن نحن انهزمنا فإلى من نلتجئ وبمن نحتمى، وكل من فى هذه الديار من جندى وفلاح عدو لنا». فقام أمير من مماليك نور الدين محمود يقال له شرف الدين برغش صاحب قلعة الشقيف، وكان شجاعاً، فقال: «من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فى بيته مع امرأته، والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة وبلاء نعذر فيه ليأخذن أموالنا وما معنا من الإقطاع والجامكية (أى الرواتب) وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منه من يوم خدمناه وإلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر إلى الكفار»، فقال أسد الدين : «هذا الرأى وبه أعمل». وقال صلاح الدين مثل عمه، وكثر الموافقون واجتمعت الكلمة على القتال.

اصطف الجيشان للقتال، فوضع أسد الدين الأثقال فى القلب لأنه لا يمكنه تركها فى مكان آخر خوفاً من أن تنهب، وجعل صلاح الدين فى

القلب، واختار شيركوه جمعاً من شجعان عسكره يثق بهم ويعرف صبرهم في القتال، ووقف بهم في الميمنة، واشتبك الفريقان في القتال، وانتصر شيركوه انتصاراً رائعاً.

سار أسد الدين شيركوه إلى مدينة الإسكندرية، وجبى ما في طريقه من القرى، ووصلها، فرحب به أهلها، لميلهم إلى المذهب السني وكراهتهم للمذهب الشيعي، فاستناب شيركوه بالإسكندرية ابن أخيه صلاح الدين،وعاد إلى الصعيد، فملكه وجبا أمواله وأقام به حتى صام شهر رمضان. وكان الفرنج والمصريون قد عادوا إلى القاهرة بعد وقعة البابين، حيث أعادوا تنظيم صفوفهم، وساروا إلى الإسكندرية، فحاصروا صلاح الدين براً وبحراً، وعانى صلاح الدين وسكان الإسكندرية الكثير أثناء هذا الحصار، غير أن أسد الدين شيركوه عندما علم بشدة الحصار لجأ إلى حيلة مضادة، فاتجه بجيشه شمالا يريد محاصرة القاهرة ونجحت الحيلة، واضطر شاور ومن معه أن يرفعوا الحصار عن الإسكندرية ويسرعوا بالعودة إلى العاصمة خشية أن ينجح شيركوه في الاستيلاء عليها، وبدأت المفاوضات، فعرض شاور على شيركوه أن يدفع له خمسين ألف دينار، فأجابه إلى ذلك، بشرط أن الفرنج لا يقيمون في مصر، ولا يتملكون منها قرية واحدة، وتم الصلح على هذه الشروط وعاد شيركوه إلى دمشق حيث وصلها في الثامن عشر لذى القعدة ٥٦٢هـ/ الخامس من سبتمبر سنة ١١٦٧م. أما الفرنج فقد تم الاتفاق بينهم وبين المصريين على أن يكون لهم بالقاهرة شحنة (أى حامية عسكرية) تتولى حماية أبواب القاهرة ليمنعوا نور الدين محمود من إرسال عسكره إلى مصر، وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم.

حملة شيركوه الثالثة على مصر

رحل شيركوه وعمورى عن مصر، غير أن كل منهما كان يضع نصب عينيه ضرورة العودة إلى مصر والاستيلاء عليها وكان للفرنج بالقاهرة شحنة، كما كانت أبواب القاهرة فى أيدى الفرنج الذين استبدوا بالمصريين، فلما تمكنوا من البلاد، كاتبوا الملك عمورى يستدعونه للاستيلاء على مصر، وهونوا عليه أمرها، كما كاتبه جماعة من أعيان المصريين كانوا أعداء لشاور، فشاور الملك عمورى فرسان الفرنج وذوى الرأى منهم، فأشاروا عليه بقصد مصر وتملكها، فقال لهم: «الرأى أنا لا نقصدها، فإنها طعمة لنا،وأموالها تساق إلينا، نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسملوها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها لنور الدين، ولئن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام». فلم يقبلوا قوله وقالوا : «إنه لا مانع ولا محامى، وإلى أن يتجهز نور الدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين السلامة». فوافقهم عمورى، وتجهز للسفر وأظهر أنهم يريدون قصد مدينة حمص.

وصل عمورى إلى مدينة بلبيس، وملكها غرة صفر سنة ٥٦٤هـ الموافق للرابع من شهر نوفمبر سنة ١١٦٨م ـ فنهب جنده أهلها، وقتلوا وسبوا وأسروا ثم رحلوا عنها، واتجه عمورى إلى القاهرة، فوصلها عاشر صفر ٥٦٤هـ، وفرض عليها الحصار، فدافع عنها أهلها دفاعاً مجيداً خوفاً أن يحدث لهم ما حدث لبلبيس.

أمر شاور بإحراق مدينة الفسطاط وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة يوم

التاسع من صفر، وبقيت النار مشتعلة فى الفسطاط أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر، واشتد حصار الفرنج للقاهرة، وأدرك شاور عجزه وضعفه وأن القاهرة لا محالة ستقع فى أيدى الفرنج، فلجأ إلى الحيلة، بأن أرسل إلى الملك عمورى يذكر له مودته ومحبته، وأن هواه معه، وأنه يخشى على البلاد من نور الدين، وعرض الصلح على عمورى مقابل مبلغاً كبيراً من المال، فأجابه عمورى بالموافقة على الصلح مقابل ألف ألف دينار (أى مليون دينار)، يحصل على جزء منه مقدماً ويؤخر الباقى إلى حين الرحيل، ورأى الفرنج أن من مصلحتهم عقد الصلح خوفاً من استيلاء نور الدين على مصر، وأرسل إليهم شاور مائة ألف دينار، وماطلهم فى دفع الباقى خداعاً ومكراً.

أرسل شاور إلى نور الدين محمود يستنجد به، وبعث مع رسائله شعور نساء القصر، ويقول له : «إن لم تبادر ذهبت البلاد» وأقام شاور منتظراً ما يرد عليه من نور الدين، وهو مع ذلك يدافع الفرنج ويماطلهم. كما أدرك الخليفة الفاطمى العاضد خطورة الموقف وأرسل إلى نور الدين محمود يستنجد به، وعرض العاضد أن يمنح نور الدين ثلث خراج مصر، وأن يسمح لشيركوه وجنده بالإقامة فى مصر فضلا عن منحهم الإقطاعات الجليلة.

ولما وردت رسل الخليفة العاضد إلى نور الدين محمود كان مقيماً بحلب، فأرسل فى استدعاء أسد الدين شيركوه الذى كان يومئذ بحمص، فلما خرج رسول نور الدين إلى حمص وجد شيركوه قد وصل حلب، لأن المصريين كانوا قد كاتبوا شيركوه يحثونه على سرعة الوصول إليهم، فحرص شيركوه على المسير إلى مصر، فسار من حمص إلى حلب فوصلها فى ليلة واحدة، فأمره نور الدين بالتجهيز للسير إلى مصر، وأعطاه مائتى ألف دينار، سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه فى العساكر والخزائن،

فاختار من العسكر ألفي فارس، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، كما أمر الملك نور الدين محمود، صلاح الدين بن نجم الدين أيوب كي يسير مع عمه إلي مصر، فرفض، ولكنه قبل أخيراً تحت إلحاح نور الدين.

سار نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه من حلب إلى دمشق،، فوصلاها في آخر صفر ٥٦٤هـ، ثم رحلا إلى رأس الماء، وانفق نور الدين لكل فارس عشرين ديناراً، كما أضاف إلى أسد الدين شيركوه جماعة م الأمراء منهم مملوكه عز الدين جورديك، والأمير تمرس الدين قلج، وشرف الدين برغش، وعين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان وغيرهم. ثم سار أسد الدين شيركوه من رأس الماء منتصف ربيع الأول، فلما قرب من الديار المصرية، رحل الفرنج عنها، ووصلت هذه الأخبار إلى نور الدين محمود، فأمر بضرب البشائر في البلاد الإسلامية.

وصل شيركوه إلى القاهرة في الرابع من ربيع الآخر ٥٦٤هـ/٥ يناير ١١٦٩م ودخل قصر الخلافة، واجتمع بالخليفة العاضد، وخلع عليه، وفرح أهل مصر به، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة.

أدرك شاور أن بقاء أسد الدين شيركوه سيؤدى في النهاية إلى القضاء على نفوذه وسلطانه، بل إن شاور أخذ يماطل شيركوه في دفع ثلث خراج مصر لنور الدين محمود، وكذلك ماطله في منحه المال والإقطاع المقرر لعساكره، وقرر شاور إقامة وليمة يدعو إليها شيركوه وقواده، ثم يقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال له، «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعَرِفن أسد الدين» فقال شاور: «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً»، فقال الكامل: «صدقت، ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خيرٌ من أن نقتل

وقد ملكتها الفرنج، وليس بيننا وبين عود الفرنج إلى أن يسمعوا بالقبض على أسد الدين شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون الفرنج البلاد.

انتهى تفكير شيركوه إلى ضرورة التخلص من شاور، لأنه أدرك أن الفرنج ينتهزون أى فرصة للعودة إلى مصر، وأن شاور يلعب بنور الدين محمود تارة وبالفرنج تارة أخرى، وقيل أن صلاح الدين وعز الدين جرديك اتفقا على قتل شاور، وشاورا أسد الدين شيركوه في ذلك، فنهاهما عنه، وقيل أن شيركوه سير الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى إلى شاور يشير عليه بالاحتراس، وقال: «وأخشى عليه ممن عندى من الناس». وقد ذهب شاور كعادته لزيارة شيركوه في مخيمه، فقيل له أن شيركوه ذهب لزيارة قبر الإمام الشافعي، فأبدى رغبته في المسير إليه، وذهب معه صلاح الدين وعز الدين جرديك، وفي الطريق قبضا عليه، وأمرا بالقبض على أصحابه، ونهب عسكره، وأرسلا إلى شيركوه لإطلاعه على الأمر وللحصول على موافقته على ما فعلاه، وفي نفس الوقت وصل رسول الخليفة العاضد إلى شيركوه يأمره بقتل شاور، وحمل رأسه إلى قصر الخلافة وذلك سابع ربيع الآخرة ٥٦٤هـ/٨ يناير ١١٦٩م، ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة، ورأى من كثرة ازدحام الناس ما خاف منه على نفسه، فقال لهم: «إن أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور». فقصدوها ونهبوها وتفرقوا عنه.

خلع الخليفة العاضد على أسد الدين شيركوه خلع الوزارة، فلبسها وسار، ودخل القصر، وفوضت إليه الوزارة والتقدم على الجيوش، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها، وكتب له منشور بتولية الوزارة.

«بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله ووليه عبد الله أبي محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين* أبي الحرث شيركوه ـ العاضدى ـ عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته : سلامٌ عليك، فإنه يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلى عليه وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليماً كثيراً».

وبقية المنشور يتضمن تفويض أمر الخلافة إليه، والقيام بأعباء حفظها، والذب عنها، والتوصية بتقوى الله تعالى، والعمل بفرائضه والإنهاء عن مناهيه وغيرها من الوصايا، وفى قتل شاور وتوليه أسد الدين شيركوه الوزارة يقول الشاعر عرقلة الدمشقى، ويمدح صلاح الدين وأخاه الملك العادل أبا بكر من قصيدة:

لقد فاز بالملك العقيم خليفة ∴ له شيركوه العاضدى وزير
كأن ابن شاذى والصلاح وسيفه ∴ علىٌّ، لديه شبر وشبير[1]
هو الأسد الضارى الذى جل خطبه ∴ وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال صحبه ∴ على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره ∴ ولازال فيها منكر ونكير

ولم يعمر أسد الدين شيركوه فى الوزارة كثيراً، إذ كان كثير الأكل، محباً للحوم الغليظة، فكان دائم التعرض للتخم والخوانيق (الخناق أن يحدث

(١) شبر وشبير هما اسمان للحسن والحسين أولاد علي بن أبي طالب.

ضيق عند البلع، يقال له خوانيق وهو مخنوق) التى كان ينجو منها بعد معاناة شديدة، ولكن حدث أن اشتد عليه المرض واعتراه خانوق عظيم فقتله، وقيل بل توفى فجأة، وكانت وفاته يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/الثانى والعشرين من فبراير سنة ١١٦٩م فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام، فاختار العاضد ابن أخيه صلاح الدين وزيراً.

الصعوبات التى واجهت صلاح الدين
داخلياً وخارجياً

١ ـ منافسة أمراء الجيش النورى:

لما توفى أسد الدين شيركوه، كان بمصر جماعة من أكابر أمراء الجيش النورى، منهم : عين الدولة الياروقى، وقطب الدين خسرو بن التليل، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وشهاب الدين الحارمى ـ خال صلاح الدين ـ وكان كل منهم يتطلع إلى منصب الوزارة والقيادة العسكرية إلا أن الخليفة العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين ليخلع عليه ويوليه الوزارة وكان الدافع وراء اختيار العاضد لصلاح الدين هو ضعف صلاح الدين وصغر سنه، وأنه إذا تولى هذا المنصب وليس له عسكر ولا رجال، كان تحت يده وحكمه ولا يجسر على مخالفته، كما كان العاضد يهدف من وراء اختياره لصلاح الدين أن يضع على العسكر النورى قواداً يستطيع أن يستميلهم إليه، فإذا ما ضمن وقوف بعضهم معه، واستطاع أن يخرج المعارضين له منهم خارج البلاد، وتعود له السيطرة الكاملة على مصر ولا سيما أنه كان يوجد فى مصر من العساكر الشامية من يستطيع أن يحميها من الفرنج ونور الدين محمود. وقد امتنع صلاح الدين عن قبول منصب الوزارة فى أول الأمر، ولكنه لم يلبث أن وافق، وأحضر إلى قصر الخلافة وخلعت عليه خلع الوزارة، ولقب بالملك الناصر، وعاد إلى دار الوزارة.

كاد هذا الموقف أن يحدث فتنة فى مصر بين قواد الجيش النورى، فقد رفض قواد الجيش الخضوع لصلاح الدين أو خدمته إلا أن الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى تطوع لإقناع هؤلاء القواد، فسعى أولا إلى سيف

الدين علي بن أحمد المشطوب وأماله إليه، وقال له: «إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة (الياروقى) وشهاب الدين الحارمى وابن تليل»، ثم قصد شهاب الدين الحارمى وقال له: «إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك، وملكه لك، وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من يسعى فى إخراجه عنه، فلا يصل إليك». ولم يزل به حتى استحلفه بالإخلاص والولاء لصلاح الدين، واجتمع بعد ذلك بقطب الدين خسرو بن التليل وقال له : «إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الياروقى، وعلى كل حال، فالجامع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك، فوعده بزيادة إقطاعه، فأجاب «وأقسم يمين الولاء والإخلاص لصلاح الدين، ثم اجتمع بعين الدولة الياروقى، إلا أنه فشل فى إقناعه بالولاء لصلاح الدين، وقال للهكارى: «أنا لا أخدم يوسف أبداً، وعاد الياروقى إلى الشام بصحبة بعض قواد الجيش، فأنكر عليهم نور الدين محمود مفارقتهم لصلاح الدين.

وثبتت أقدام صلاح الدين فى مصر ثم شرع فى استمالة قلوب المصريين إليه، وبذل من الأموال ما كان جمعه أسد الدين، فمال الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات له، في حين ضعف أمر الخليفة العاضد.

٢ ـ مؤامرة مؤتمن الخلافة والجند السودان:

كان بالقصر الفاطمى بالقاهرة خصى يقال له مؤتمن الخلافة جوهر، وكان متحكماً فى القصر وفى نفس الوقت زعيماً للجند السودان، فلما أحس بوطأة صلاح الدين على أهل القصر، أراد التخلص منه، فاتفق مؤتمن

الخلافة مع رجال القصر والجند السودان على مكاتبة الفرنج ليصلوا إلى مصر، فإذا خرج صلاح الدين للقائهم، سارعوا بالقبض على رجاله وأعوانه بالقاهرة، واجتمعوا مع الفرنج على قتاله وقتال أصحابه، وتكون مصر بعد ذلك مناصفة بينهم وبين الفرنج يقتسمونها. فسير مؤتمن الخلافة رجلاً وحملة كتاباً إلى الفرنج أخفاه داخل نعلاه وظنوا بذلك أنهم يخدعون صلاح الدين. ولكن بينما كان رسول مؤتمن الخلافة فى طريقه إلى الفرنج، مرّ بقرية البئر البيضاء ـ وهى قرية على مقربة من مدينة بلبيس ـ فرآه رجل تركماني وفى يده النعلان اللذان أخفيت فيهما المكاتبة، فأخذهما التركمانى بعد أن تشكك فى أمرهما وأحضرهما إلى صلاح الدين، ففتقهما فوجد مكاتبة أهل القصر للفرنج، فأخفى صلاح الدين أمر كشفه لتلك المكاتبة غير أن مؤتمن الخلافة بدأ يحتاط لنفسه، ولازم القصر لا يخرج منه، فإذا خرج لم يبعد. أما صلاح الدين فقد أظهر عدم اهتمامه بأمر مؤتمن الخلافة كى يشعره بالأمان والاطمئنان، فظن جوهر أنه أصبح آمناً، فخرج يوماً من قصر الخلافة إلى قصر له بقرية الخرقانية تقع على الشاطىء الشرقى للنيل قرب قليوب ذات متنزه وبساتين للتنزه، فلما علم صلاح الدين أرسل إليه جماعة من أصحابه، فاغتالوه وأتوا برأسه وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذى القعدة ٥٦٤هـ/العشرون من أغسطس سنة ١١٦٩م.

فلما علم الجند السودان بما حدث لمؤتمن الخلافة، ثاروا، وكانوا يزيدون على خمسين ألفاً، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه، فلما ثاروا أرسل إليهم صلاح الدين قائده أبا الهيجاء السمين، حيث وقعت الحرب بين الفريقين بين القصرين، واشتد القتال بين الفريقين واستمر يومين، وصار السودان كلما جاأوا إلى محلة أحرقت عليهم، وكانت لهم محلة عظيمة على

باب زويلة تعرف بالمنصورية، فأرسل إليها صلاح الدين من أحرقها وفيها أموالهم وأولادهم وحريمهم، فلما علموا بما حدث للمنصورية، ولوا منهزمين، وطلب أكثرهم الأمان، فأجيبوا إلى ذلك يوم السبت الثامن والعشرين لذى القعدة ٥٦٤هـ/٢٣ أغسطس سنة ١١٦٩م وعبر بعضهم النيل إلى الجيزة، فعبر إليهم الملك المعظم شمس الدين توران شاه ـ أخى صلاح الدين ـ فى طائفة من الجند، فأبادوا السودانيين واتخذها بستاناً، وفى ذلك يقول الشاعر عماد الدين الكاتب يمدح صلاح الدين:

بالملك الناصر استنارت ∴ ـ فى عصرنا ـ أوجه الفضائل
يوسف مصر الذى إليه ∴ تشد أمالنا الرواحل
أجريت نيلين فى ثراها ∴ نيل تجميع ونيل نائل
وما نفيت السودان حتى ∴ حكمت البيض فى المقاتل
صيرت رحب الفضاء ضيقاً ∴ عليهم كفه بحائل
وكل رأى منهم كراء ∴ وأرض مصر كلام واصل
وقد خلت منهم المغانى ∴ وأقفرت منهم المنازل
وما أصيبوا إلا بطل ∴ كيف لو أمطروا بوابل
والسود بالبيض قد أبيحوا ∴ فهى بواديهم نوازل
مؤتمن القوم خان حتى ∴ غالته من شره غوائل
عاملكم بالخنا فأضحى ∴ ورأسه فوق رأس عامل
يا مخجل البحر بالأيادى ∴ قد آن أن تفتح السواحل
فقدس القدس من خباث ∴ أرجاس كفر غتم أراذل

بدأ صلاح الدين بعد هذا الحادث يتخذ الحيطة، فعين قائداً من قواد جيشه هو بهاء الدين قراقوش زماماً للقصر ـ أى مشرفاً على شؤونه ـ فما كان يدخل إلى القصر شىء ولا يخرج منه شىء إلا بمرأى منه ومسمع.

٣ ـ حملة عمورى ملك بيت المقدس على دمياط:

لما استقرت أقدام صلاح الدين فى مصر، أيقن الفرنج بخطورة الموقف، ولاسيما أن وجود العساكر النورية فى مصر معناه تهديد مباشر لمدن الساحل الشامى التى يسيطر عليها الفرنج، فأرسل عمورى ملك بيت المقدس سفارات إلى مختلف ملوك وأمراء أوربا يستصرخهم ويستنصر بهم، غير أن هذه السفارات لم تلق نجاحاً، فقد كان ملوك أوروبا فى ذلك الوقت مشغولين بمشاكلهم الخاصة وبما كان ينشب بينهم من نزاع وحروب، فاضطر عمورى أن يلجأ إلى الامبراطور البيزنطى مانويل، فاستجاب الأخير لدعوته لأنه كان يحس هو كذلك الخطر الذى يهدد أملاكه نتيجة لاتساع ملك نور الدين وازدياد قوته بعد استيلائه على مصر، فأرسل مانويل إلى عمورى أسطولا بيزنطياً ضخماً يقوده أندرونيك كونستنفانوس، ومر هذا الأسطول فى طريقه بجزيرة قبرص حيث انضمت إليه ستون سفينة بيزنطية أخرى، وانضمت قوى عمورى إلى قوى البيزنطيين فى الفرما، ثم اتجهوا جميعاً إلى مدينة دمياط وعسكروا أمامها فى صفر ٥٦٥هـ/أكتوبر ـ نوفمبر ١١٦٩م وكان صلاح الدين قد علم باتجاه الفرنج إلى دمياط، فسارع بإرسال ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وخاله شهاب الدين الحارمى فدخلا دمياط، وتابع إليهما صلاح الدين الإمدادات والنجدات فى البحر، وأمدهما بالسلاح والمال والذخائر، أما من ناحية الفرنج فقد واصلوا حصار دمياط ومضايقتها، فى الوقت الذى أرسل فيه صلاح الدين رسله إلى نور الدين محمود يشكو إليه من صعوبة موقفه، فلو أنه خرج إلى دمياط فقد يثير رجال القصر واتباع الفاطميين الفتن والثورات، وينقضوا على بقية جنده ويستعيدوا ما كان لهم من سلطان، ولو أنه بقى فى القاهرة فقد يتجح

الصليبيون فى الاستيلاء على دمياط، وعلى هذا فقد جهز إليه نور الدين العساكر كلما تجهزت طائفة أرسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً. ولم يكتف نور الدين محمود بذلك بل سار على رأس جيوشه إلى بلاد الفرنج ونهبها وأغار عليها واستباحها، وكان هدفه أن يشغل أنظار الفرنج عن دمياط ويدفعهم لحماية أملاكهم فى الشام وذكر أنه بلغ من اهتمام نور الدين بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرئ بين يديه من حديث كان له به رواية، فجاءه فى جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبه الحديث أن يتبسم ليتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك، وقال: إنى لأستحى من الله تعالى أن يرانى مبتسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج».

ولما رأى الفرنج تتابع الإمدادات إلى دمياط سواء من القاهرة أو من الشام، ودخول نور الدين محمود إلى بلادهم ونهبها وإخرابها، قرروا الإنسحاب يوم الحادى والعشرين من ربيع الأول ٥٦٥هـ/١٣ ديسمبر سنة ١١٦٩م بعد حصار دام خمسين يوماً. وقد ذكر المؤرخون أن صلاح الدين قد أنفق أموالا عظيمة خلال هذا الحصار الفرنجى البيزنطى على دمياط، وذكر عنه أنه قال: «ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها». وسير صلاح الدين الكتب إلى الشام بالبشارة برحيل الفرنج، كما كتب نور الدين محمود إلى الخليفة العاضد يهنئه برحيل الفرنج عن دمياط.

٤ ـ إسقاط الدولة الفاطمية:

لما تحقق الملك العادل نور الدين محمود من ضعف الدولة الفاطمية،

وأنه لم يبق للفاطميين منعة، كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع الخطبة للخليفة العاضد الفاطمى ويقيمها للخليفة العباسى المستضىء بنور الله، ولكن صلاح الدين اعتذر بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم، من الإجابة لذلك لميلهم إلى الفاطميين، ولكن نور الدين لم يقتنع برأى صلاح الدين، وأرسل إليه يلزمه بإسقاط الدعاء للخليفة الفاطمى. ثم اتفق أن مرض الخليفة العاضد، فاستشار صلاح الدين الأمراء فى قطع الخطبة له، فانقسموا إلى فريقين، فريق زيّن لصلاح الدين قطع الخطبة، والفريق الآخر اعترض على قطع الخطبة، ولكن صلاح الدين لم يكن أمامه اختيار فقد كان لزاماً عليه تنفيذ أوامر نور الدين محمود بقطع الخطبة للعاضد، وقد تصادف وجود رجل أعجمى فى مصر يُعرف بالأمير العالم، فلما رأى ترددهم قال: «أنا ابتدى بها».

فلما كان أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ/العاشر من سبتمبر ١١٧١م صعد الأمير العالم المنبر قبل الخطيب، ودعا للخليفة المستضىء بنور الله، فلم ينكر ذلك عليه أحد، فلما كانت الجمعة التالية، أمر صلاح الدين بقطع خطبة العاضد بالفسطاط والقاهرة، وإقامة الخطبة للمستضىء بنور الله، فلم يتحرك مخالف لذلك ولا منكر له، وانتظم الأمر، وكوتب الخطباء فى ذلك فى سائر الأقاليم فخطبوا للخليفة العباسى دون العاضد الفاطمى، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يخبره أهله وأصحابه بذلك، وقالوا: «إن سلم فهو يعلم، فلا ينبغى أن تنغص عليه هذه الأيام التى قد بقيت من أجله».

٥ ـ الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين:

كان نجاح صلاح الدين فى إسقاط الخلافة الفاطمية فى مصر، بداية لوحشة بينه وبين سيده نور الدين محمود، وكادت تلك الوحشة أن تؤدى إلى إخراج صلاح الدين من مصر، لولا وفاة نور الدين محمود التى وضعت نهاية لهذه الوحشة، وقد بدأت بوادر الوحشة بين الرجلين عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١-١١٧٢م عندما أرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنج وحصار قلعة الشوبك، ويجتمعا أمام الشوبك لحرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم، فبرز صلاح الدين من القاهرة فى العشرين من المحرم ٥٦٧هـ/الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ١١٦٩م وكتب إلى نور الدين أن رحيله لا يتأخر، وكان نور الدين قد جمع العساكر وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين ورحيله كى يلحق به، فلما أتاه الخبر بخروج صلاح الدين من القاهرة، رحل من دمشق متوجهاً إلى الشوبك، فوصلها، وأقام ينتظر صلاح الدين، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه باختلال أحوال البلاد، وأنه يخاف عليها من البعد عنها، فعاد إليها، فلم يقبل نور الدين عذره وعاد إلى دمشق. وكان السبب فى عودة صلاح الدين أن أصحابه وخواصه خوّفوه من الاجتماع بنور الدين.

ولما لم يمتثل صلاح الدين أمر نور الدين محمود عظم ذلك عليه،وعزم على الدخول إلى الديار المصرية، وإخراج صلاح الدين عنها، فلما بلغ الخبر صلاح الدين جمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب، وخاله شهاب الدين الحارمى ومعهم سائر أمراء وقواد الجيش النورى، واعلمهم بما عزم عليه نور الدين فقام ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر، وقال: «إذا جاء قاتلناه

وصددناه عن البلاد»، ووافقه على هذا الرأى بعض من أهله، فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك عليهم، وقال لصلاح الدين: «أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك، أتظن فى هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال صلاح الدين: «لا». فقال والده: «والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل إليه ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك عزلك، وأى حاجة له إلى المجيء؟، يأمر بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته، ويولى بلاده من يريد». ثم وجه نجم الدين أيوب كلامه إلى جميع المجتمعين قائلا: «قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد». وقد كتب أكثر الحاضرين من الأمراء والقواد إلى نور الدين محمود بما دار فى هذا الاجتماع. ولما خلا نجم الدين بابنه صلاح الدين قال له: «أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك من أهم أموره وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا يسلمونك إليه، وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون إليه ويعرفونه قولى، فتكتب إليه وترسل فى هذا المعنى، وتقول: «أى حاجة إلى قصدى؟ نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى، «فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده، والأيام تتدرج، والله كل يوم فى شأن» فعلم صلاح الدين صحة ما أشار به والده ففعل ما أمره به، فلما رأى نور الدين محمود الأمر هكذا عدل عن قصده.

ولقد ازدادت العلاقات تأزماً بين صلاح الدين ونور الدين فى عام ٥٦٩هـ/٧٣-١١٧٤م فقد جرت مفاوضات بينهما واتفقا على أن يخرجا معاً لحصار حصن الكرك والاستيلاء عليه، وخرج صلاح الدين، وبدأ حصار الحصن، فلما بلغه قرب مجىء نور الدين رفع الحصار وعاد إلى مصر، وأرسل الفقيه عيسى الهكارى إلى نور الدين يعتذر عنه بأنه اضطر إلى العودة لمرض والده. ويقول بعض المؤرخين أن خوف صلاح الدين من نوايا نور الدين قبل موته دفعته إلى التفكير فى فتح بلاد جديدة متاخمة لمصر أو قريبة منها لتكون ملجأ له ولأسرته ونقطة ارتكاز يعتمد عليها إذا ما نجح نور الدين فى اقتحام مصر عليه، ولذلك قام بفتح بلاد النوبة وبرقة واليمن.

والواقع أن رجوع صلاح الدين عن حصنى الشوبك والكرك كان أمراً طبيعياً، فقد كانت مصر مضطربة الأحوال، ولم تكن الأمور قد استقرت فيها بعد، بل كان رجال الدولة الفاطمية وأعوانها لا يزالون يدبرون المؤامرات ويسعون للقضاء على صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية، وحصنا الشوبك والكرك حصنان قويان يحتاج إخضاعهما والاستيلاء عليهما إلى حصار طويل الأمد.

أما عن فتوحات صلاح الدين لبلاد النوبة وبرقة واليمن، فقد كان مدفوعاً ليحقق غرضين أساسيين أولهما تحقيق سيادة المذهب السُّنى الذى تمثله الخلافة العباسية والذى يدين له هو شخصياً بالاعتقاد وثانيهما مطاردة الشيعة وأنصارهم والقضاء عليهم وخصوصاً فى البلاد المتاخمة لمصر أو القريبة منها، أى أن فتوحاته تمت كلها فى إطار الدفاع عن كيان دولته الجديدة بمصر وترسيخ أقدامها فيها وليس البحث عن مأوى له ولأسرته.

* أما عن حملة النوبة، فقد كان الهدف منها تطهير النوبة والصعيد من بقايا الجند السودانيين، فقد اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة، وخرجوا في أعداد كبيرة قاصدين القاهرة، فقصدوا أولا مدينة أسوان، وكان بها الأمير كنز الدولة، الذى سارع بإعلام صلاح الدين بنية السودان على حصار أسوان وتخريبها ونهبها، فأنفذ صلاح الدين إليه جيشاً يقوده الشجاع البعلبكى، فلما وصل البعلبكى إلى أسوان وجد أن السودان قد انسحبوا عنها بعد أن عاثوا فساداً فى أرضها، فاتبعهم البعلبكى وكنز الدولة، حيث دارت بين الفريقين معارك طاحنة انتهت بعودة البعلبكى إلى القاهرة، حيث أخبر صلاح الدين بمبلغ خطورة السودان والعبيد على بلاد الصعيد، فاضطر صلاح الدين إلى أن يرسل أخاه الملك المعظم شمس الدين فخر الدين توران شاه فى جمادى الأول ٥٦٨هـ/ ديسمبر ـ يناير ١١٧٢م لمحاربة السودان والعبيد، فوجدهم قد انسحبوا إلى بلاد النوبة، فسار قاصداً بلادهم كما شحن مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والعتاد، وأمرها بلحاقه إلى بلاد النوبة، وبالفعل سار إليها، ونزل على قلعة أبريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام من حصاره لها، وغنم جميع ما وجده فيها من المال والعتاد وأطلق سراح جماعة من الأسرى كانوا محتجزين بداخلها، وأسر من وجده فيها، بعد أن فرّ حاكمها، وكتب توران شاه إلى صلاح الدين يخبره بذلك. ثم رجع توران شاه إلى أسوان ومنها إلى قوص، وكان بصحبته أمير يقال له إبراهيم الكردى، فطلب من توران شاه قلعة أبريم فأقطعه إياها، وأنفذ معه جماعة من الأكراد.

أما عن فتح برقة، فكان يهدف إلى تحقيق سيادة المذهب السُّنى فيها، خوفاً أن يمتد نفوذ دولة الموحدين ويهدد حدود مصر الغربية ولا سيما أن دولة الموحدين كان لها السيادة على بلاد المغرب وكانت على عداء مع

الدولة العباسية، بحيث أصبح الموحدون فى نظر صلاح الدين يشكلون خطراً عليه فى مصر باعتباره من الموالين للخلافة العباسية. ولذلك وجّه حملة بقيادة قائده قراقوش فى عام ٥٦٨هـ/٧٢-١١٧٣م إلى بلاد المغرب، وكان عسكر قراقوش يضم طائفة من الأتراك، ثم انضم إليهم جماعة من العرب، فاستولى على طرابلس الغرب وكثير من بلاد أفريقية، وانضم إلى قراقوش أحد الخارجين عن طاعة عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين ويدعى مسعود بن زمام، وبفضل هذا التحالف بين قراقوش ومسعود تمكنا من إيقاع الهزيمة بالمغاربة فى مواقع كثيرة، وضمنا سيادة صلاح الدين على برقة، مما يؤدى إلى حماية حدود مصر الغربية.

أما عن فتح اليمن، فلقد كانت له دوافع كثيرة، فالمعروف أن بلاد اليمن كانت من أكبر مراكز الدعوة الشيعية الفاطمية، وكان صلاح الدين يهدف من فتح اليمن القضاء على الشيعة فى اليمن كما قضى عليهم فى مصر، وكان الحاكم على اليمن وقتئذ هو عبد النبيّ بن مهدى، وكان قد بنى قبة عظيمة على قبر والده وأمر الناس أن تحج إليها وألا تحج إلى الكعبة، وبلغ به الأمر أن ادعى النبوّة، وفى رأى آخر أنه ادّعى الألوهية، وقد قسا عبد النبيّ فى معاملته لأهل اليمن وأمرائه وشيوخ قبائله، ففزع بعض هؤلاء بالشكوى إلى الخليفة العباسى الذى كتب إلى صلاح الدين يطلب إليه أن يرسل جيشاً إلى اليمن لتأديب عبد النبيّ، فأرسل صلاح الدين يستأذن نور الدين فى أن يسير عسكراً إلى اليمن ويفتتحها، فأذن له فى ذلك.

سيّرَ صلاح الدين أخاه الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه فى مستهل رجب ٥٦٩هـ/فبراير سنة ١١٧٤م على رأس حملة عسكرية إلى بلاد

اليمن، فوصل إلى مكة، ومنها إلى زبيد، فلما قرب منها قال عبد النبيّ لأهل زبيد: «كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحر فهلكوا، وما هم إلا أكلة رأس»، فخرج إليهم بعسكره، فقاتلهم تورانشاه، فلم يثبت أهل زبيد وارتدوا منهزمين، ووصل المصريون إلى سور زبيد، فلم يجدوا من يمنعهم، فنصبوا السلالم وصعدوا إلى السور، وملكوا البلد عنوه، ونهبوه، وأخذوا عبد النبيّ أسيراً ومعه زوجته المدعوة بالحرة، وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة، وكانت إذا حجت وجد عندها فقراء الحج صدقة داره ومعروفاً كثيراً. ولما أسر تورانشاه عبد النبيّ بن مهدى سلمة إلى الأمير سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وأمره أن يصادر أمواله، فأعطاه منها شيئاً كثيراً، كما أن عبد النبيّ دلّهم على القبر الذى صنعه لوالده وبنى عليه قبة عظيمة، وله هناك أموال أخرى دفينة، فأعلمهم بها، واستخرجها لهم، كما دلتهم زوجته الحرة على ودائع لها، ولمّا فتحت زبيد أقيمت بها الخطبة للخليفة العباسى.

سار تورانشاه بعسكره إلى عدن، وتقع على البحر الأحمر ولها مرسى عظيم، وهى فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس وغيرها، كما أنها منيعة جداً من جانب البر والبحر، وكان المتغلب عليها رجل يقال « ياسر، وكان باستطاعته إذا امتنع بعدن لا يقدر على أخذها منه المصريون، ولكنه خرج إلى العسكر المصرى وابتدرهم بالقتال، فانهزم، وسبقه بعض العسكر المصرى ودخلوا عدن قبل أن يسارع عسكرها بالعودة إليها ودخولها، فملكوها، وأخذوا صاحبها ياسراً أسيراً، وأرادوا نهب البلد، ولكن تورانشاه منعهم، وقال : «ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئتنا لنملكها ونعمرها ونتتفع بدخلها».

ولما فرغ تورانشاه من أمر عدن، عاد إلى زبيد، وحاصر ما فى الجبل من

الحصون، فملك قلعة تعز وهى من أحصن القلاع، وبها تكون خزائن صاحب زبيد، كما سيطر على كل المعاقل والحصون، ثم استناب بعدن الأمير عزّ الدين عثمان بن الزنجبيلى، وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ، وفى أثناء ذلك ماتا عبد النبى وياسر فى أسرهما، كما ترك تورانشاه فى كل قلعة نائباً من أصحابه، كذلك أحسن إلى أهل البلاد، ونشر العدل بينهم، فعمرت البلاد وأمنت. أما الحرة زوجة عبد النبىّ، فلم بلغ تورانشاه كثرة صدقاتها وخيرها، فأحسن إليها، وأطلقها وأقطعها إقطاعاً يوفر لها ولمن معها الحياة الكريمة.

٦ ـ مؤامرة عمارة اليمنى:

استمر صلاح الدين يواجه المؤامرات الداخلية والتى كان أهمها المؤامرة التى دبرها أعوان الدولة الفاطمية لإعادة إحياءها مرة أخرى، وكان من أبرز الشخصيات الشيعية التى شاركت فى هذه المؤامرة الشاعر عمارة بن علي اليمنى، وعبد الصمد الكاتب، والقاضى العويرسى، وداعى الدعاة ابن عبد القوى وغيرهم من رجال القصر وأمراء الجيش وجنده من المصريين والسودانيين، ووافقهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده، واتفق المتآمرون على استدعاء الفرنج من صقلية والشام إلى مصر، وبذلوا لهم شيئاً من المال والبلاد، وكانت المؤامرة تتلخص فى أن يأتى الفرنج إلى مصر، فإذا ما خرج صلاح الدين لقتالهم تقوم العناصر المتذمرة بثورة داخلية فيعجز صلاح الدين عن مواجهة الفرنج والثوار معاً.

وقد عهد الثوار إلى كبيرهم الشاعر عمارة اليمنى مهمة إقناع تورانشاه أخى صلاح الدين بالخروج لفتح بلاد اليمن، «فحسن للملك المعظم قصد

اليمن، ووصف بلادها له، وعظّمها في عينه، فزاده ذلك رغبة فيها. وكان الغرض من هذا أن تضعف قوة صلاح الدين بعد إرسال الجزء الأكبر من جيشه مع أخيه تورانشاه إلى اليمن، إلا أن المؤامرة سرعان ما انكشف أمرها على يد الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا، إذ كان المتآمرون قد اطلعوه على أسرارهم، فأظهر لهم أنه على رأيهم، وسارع بإبلاغ صلاح الدين، وكشف له أسرارهم فأمره بمخالطتهم، واطلاعه على أمورهم، ثم قبض صلاح الدين على المتآمرين، وحصل على فتوى من العلماء بقتلهم، فصلب عمارة اليمني وأصحابه بين القصرين يوم السبت من رمضان ٥٦٩هـ/ السادس من أبريل سنة ١١٧٤م. أما فرنج صقلية، فلم يصل إلى أسماعهم فشل هذه المؤامرة، فوصلوا إلى الإسكندرية في السادس والعشرين لذى الحجة ٥٦٩هـ/٢٨ يوليو ١١٧٤ م بقيادة ملكهم وليام الثاني، وكانت عدتهم ثلاثين ألف مقاتل ما بين فارس وراجل، وعدة طرائدهم ستاً وثلاثين طريدة تحمل الخيل، ومائتى شينى فى كل شينى مائة وخمسين رجلا، وعدة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار ست سفن، والتى تحمل الأزواد والرجال أربعين مركباً، فكانوا نحو خمسين ألف راجل.

نزل الفرنج إلى بر الإسكندرية، وهاجموا المسلمين حتى ردوهم إلى أسوار المدينة، وقتلوا من المسلمين سبعة، وزحفت مراكب الفرنج إلى الميناء، وأغرقوا بعض مراكب المسلمين وعسكروا خارج الأسوار، ثم زحفوا لحصار الإسكندرية، ونصبوا على الأسوار ثلاث دبابات بكبباشها، وثلاثة مجانيق، وكان صلاح الدين وقتئذ بفاقوس، فبلغه خبر نزول الفرنج على سواحل الإسكندرية فى اليوم الثالث لنزولهم فشرع فى تجهيز العساكر وإرسالها إلى الإسكندرية مما شجع المسلمين على فتح أبواب مدينتهم والخروج لقتال

الفرنج، واستمر القتال يوم الأربعاء إلى العصر وهو اليوم الرابع لنزول الفرنج على الساحل ثم استغل المسلمون حلول الظلام وهاجموا خيام الفرنج على غرة، وقتلوا من الرجالة عدداً كثيراً ومن الفرسان، ثم اقتحم المسلمون البحر، واستولوا على بعض سفن الفرنج وأغرقوها، بينما ولّت بقية السفن الفرنجية منهزمة، وقتل كثير من الفرنج، وغنم المسلمون من الآلات والأمتعة والأسلحة ما لا يقدر على مثله إلا بعناء، وأقلع بقية الفرنج مستهل سنة ٥٧٠هـ/أغسطس سنة ١١٧٤م[١].

(١) عن حملة وليم الثاني، انظر: السلوك، جـ١، ق١، ص ٥٥-٥٧.

جهود صلاح الدين
لتوحيد الجبهة الإسلامية

توفى نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بدمشق يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال عام ٥٦٩هـ/ الخامس عشر من مايو سنة ١١٧٤م وخلفه ولده الملك الصالح إسماعيل ـ وكان عمره إحدى عشرة سنة ـ ولهذا نرى أن كبار قواد الدولة النورية يتحركون للسيطرة على شئون الدولة. فلما كفن نور الدين ودفن حضر القاضى كمال الدين بن الشهرزورى، والأمير شمس الدين محمد بن المقدم والطواشى جمال الدين ريحان ـ وكان من كبار خدام نور الدين ـ والعدل شهاب الدين أبو صالح ابن العجمى أمين الأعمال، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال، وأحضروا المصحف وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة وأنهم لا يختلفون، وأن يكون تقدمة العسكر للأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وإليه مرجع الأمور كلها كما حلفوا للملك الصالح إسماعيل، واستحلفوا له الناس، وكاتبوا ولاة الأطراف بالحلف له، وإقامة الخطبة باسمه، ومن ثم استتبت الأمور واستقرت القواعد له.

ونظراً لمكانة صلاح الدين، فقد تقدم الأمراء فى دمشق بإنشاء كتاب إليه فى التعزية بنور الدين وأوله: «أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره فى والدنا الملك العادل، ندب الشام بل الإسلام حافظ ثغوره، وملاحظ أموره، وعدم الجهاد مقتنى فضيلته ومؤدى فريضته، ومحى سنته، وأورثنا بالاستحقاق ملكهْ وسريره، على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره، وما ها هنا ما يشغل السر، ويقسم الفكر، إلا أمر الفرنج ـ خذلهم الله ـ وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث الجلل والصرف الكارث، المذهل، فقد ادخره للكفايات النوائب، وأعده لحسم أدواء المعضلات اللوازب، وأمله ليومه ولغده ورجاة لنفسه ولولده، ومكنه قوة لعضده، فما فقد ـ

رحمه الله ـ إلا صورة، والأصل باق والله تعالى حافظ لبيته واق، وهل غيره ـ دام سموه ـ من مؤازر؟ وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر؟ وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر ما جمح، والأهم شغل الكفار عن هذه الديار، بما كان عازماً عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار، ويجرى على العادة الحسنى فى إحياء ذكر الوالد هناك؟ بتحديد ذكرنا، راغباً فى اغتنام ثنائنا وشكرنا».

وكان القاضى كمال الدين الشهرزورى قد أشار على الأمير شمس الدين بن المقدم ـ وهو القائم بتربية الملك الصالح إسماعيل ـ وعلى جماعة الأمراء بالانقياد إلى صلاح الدين والرجوع إلى ما يشير به، وقال لهم : «قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر، وهو من أصحاب نور الدين ونوابه، والمصلحة أن يشاور فى الذى نفعله، ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعتنا، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لانفراده بملك ديار مصر». إلا أن هذا القول لم يوافق أغراضهم وخشوا أن يتغلب صلاح الدين عليهم إذا ما سمحوا له بالتدخل فى أمور الدولة، فيخرج الأمر من أيديهم.

ولما وردت الرسالة المتضمنة التعزية إلى صلاح الدين، جلس لعزاء نور الدين ثلاثة أيام، وفى اليوم الثالث أمر فأقيمت الخطبة بالديار المصرية للملك الصالح إسماعيل، وضربت السكة باسمه، ثم أرسل كتاباً إلى الملك الصالح إسماعيل معزياً فى أوله، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُم فِى رَسُولِ الله أُسوةٌ حَسَنةٌ﴾. وفى آخره : «أصدر هذه المكاتبة يوم الجمعة رابع ذى القعدة وهو اليوم الذى أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرح فيه بذكره فى الموقف العظيم، والجمع الذى لا لغو فيه ولا تأثيم وأشبه يوم الخادم أمسه فى الخدمة، ووفى ما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الإسلام عالماً بأن الجماعة رحمة.

والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح، ويصلح به وعلى يديه ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه، ويجعل الإسلام واقيه باقيه عليه، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده، ومضاعفة ملكه ومزيده وييسر منال كل أمل صالح وتقريب بعيده، إن شاء الله تعالى».

وكان يحكم الموصل الأمير سيف الدين غازى بن مودود بن عماد الدين زنكى الذى استغل وفاة عمه نور الدين محمود، واستولى على نصيبين وحران والرها، والرقة وسروج وجميع البلاد الجزرية (أى البلاد الواقعة فى منطقة الجزيرة شمال العراق) فيما عدا قلعة جعبر المنيعة، ورأس العين لأنها كانت لقطب الدين صاحب ماردين، وهو ابن خال سيف الدين غازى ـ فلم يتعرض له.

أما حلب، فكان بها الأمير شمس الدين علي بن الداية ـ وهو من أكبر الأمراء النورية ـ فى عساكر حلب، ولم يستطع ابن الداية منع سيف الدين غازى من الاستيلاء على البلاد الجزرية لفالج كان به، وأرسل ابن الداية إلى دمشق يطلب حضور الملك الصالح إسماعيل إلى حلب، فامتنع شمس الدين بن المقدم وكبار الأمراء بدمشق عن إرساله، خوفاً أن يسيطر عليه ابن الداية فيضيع نفوذهم ولا سيما أن ابن الداية كان أكبر الأمراء النورية وكانت له ولأخوته السيطرة على حلب وعسكرها سواء فى حياة نور الدين محمود أو بعد وفاته، وكان ابن الداية يهدف من وراء استدعاء الملك الصالح إسماعيل إلى حلب هو منع سيف الدين غازى من فرض سيطرته على البلاد الجزرية.

وفى ذلك الوقت وصل إلى حلب الأمير سعد الدين كمشتكين الخادم وكان كمشتكين هذا نائباً بقلعة الموصل مع سيف الدين غازى، فلما بلغته أنباء وفاة نور الدين محمود سارع بالفرار من الموصل، وفى حلب اجتمع كمشكتين بالأمير شمس الدين بن الداية وإخوته، وتم الاتفاق بينه وبينهم على أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح إسماعيل إلى حلب، وبالفعل سار كمشتكين إلى دمشق، فأخرج إليه شمس الدين المقدم عسكراً، فنهبوه وعاد منهزماً إلى حلب، غير أن ابن الداية عوضه عن خسائره وأمده بجيش جديد، وسيّره معه إلى دمشق ومعه كتب إلى أمراء دمشق، الذين سمحوا له بدخولها وبخدمة الملك الصالح إسماعيل، وهنا عرض كمشتكين على الأمراء بدمشق إرسال الملك الصالح إسماعيل إلى حلب، فأجابوه إلى ذلك، فسار إليها بصحبة كمشكتين، والعدل شهاب الدين أبو صالح بن العجمى وإسماعيل الخازن. ولما وصلوا إلى حلب، قبض كمشتكين على الأمير شمس الدين بن الداية وأخوته واعتقلهم، كما قبض على أبى الفضل بن الخشاب مقدم الشيعة بحلب، وضرب عنقه حينما حاول الثورة ضد سعد الدين كمشتكين. واستبد كمشتكين بالأمور، وقام بأتابكية الملك الصالح وكان مسير الملك الصالح إسماعيل من دمشق إلى حلب فى الثالث والعشرين لذى الحجة سنة ٥٦٩هـ/٢٥يوليو ١١٧٤م ولما بلغ الملك الناصر صلاح الدين ما حدث من أمراء وقواد نور الدين محمود، كتب إلى القاضى كمال الدين بن الشهرزورى والأمراء بدمشق يقول: «لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى ويثق إليه مثل ثقته بى، لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيم بخدمته غيرى، وأراكم قد تفردتم بمولاى وابن مولاى دونى وسوف أصل

إلى خدمته وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده». وكان الفرنج عندما علموا بوفاة نور الدين محمود اجتمعوا وساروا إلى قلعة بانياس، فراسل الفرنج ولاطفهم، ثم أغلظ لهم فى القول وقال: «إن أنتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس، فنحن على ما كنا عليه، وإن أبيتم ذلك، أرسلنا إلى سيف الدين صاحب الموصل، وصلاح الدين صاحب مصر، ونستنجدهم، ونطلب بلادكم من جهاتها كلها، فلا تقومون لنا، وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين والآن قد زال ذلك الخوف، وإذا طالبناه إلى بلادكم لا يمتنع». فتم عقد الهدنة بين أمرا دمشق والفرنج مقابل مبلغ من المال أخذه الفرنج بالإضافة إلى إطلاق سراح بعض الأسرى الفرنج الذين كانوا فى حوزة المسلمين. فلما تسامع صلاح الدين بأمر هذه الهدنة، أنكرها، وكتب إلى أمراء دمشق، يقبح عليهم ما فعلوه، ويظهر أنه على نية قصد بلاد الفرنج ومحاربتهم لمنعهم من قصد بلاد الملك الصالح وكان صلاح الدين يهدف إلى فتح طريق له إلى الشام ليتملكها، بينما كان أمراء دمشق يهدفون من وراء عقد الصلح مع الفرنج حماية أنفسهم من صلاح الدين وسيف الدين غازى.

قرر صلاح الدين المسير إلى الشام لتوحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبى، ومما شجعه على اتخاذ هذه الخطوة هو انقسام الدولة النورية عقب وفاة نور الدين محمود، فضلا عن التنافس بين قواد الدولة للسيطرة على الملك الصالح إسماعيل، واتجاه بعضهم إلى عقد الصلح والهدنة مع الفرنج بالإضافة إلى استبداد كمشتكين بالملك الصالح إسماعيل وقبضه على أولاد ابن الداية، وقدأوضح صلاح الدين الهدف من مسيره إلى الشام فى رسالة بعثها إلى الأمير شمس الدين بن المقدم قال فيها : إنا لا نؤثر للإسلام

وأهله إلا ما جمع شملهم وألّف كلمتهم وللبيت الأتابكي ـ أعلاه الله ـ إلا ما حفظ أصله وفرعه، أو دفع ضره وجلب نفعه،فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبة إنما يظهر أثرها عند تكاثر أطماع العداه ، وبالجملة أنا في واد والظانون بنا ظن السوء في واد، ولنا من الصلاح مراد، ولمن يبعدنا عنه مراد».

خرج صلاح الدين من القاهرة في مستهل صفر ٥٧٠هـ/سبتمبر ١١٧٤م فوصل إلى البركة (وهي المعروفة ببركة الجب أو بركة الحجاج تقع في الشمال الشرقي للقاهرة)، وقد وردت عليه رسل شمس الدين بن المقدم وشمس الدين صديق بن جاولي صاحب بصرى يستحثونه على سرعة الحركة. وفي الثالث عشر ربيع الأول وصل صلاح الدين إلى صدر وأيلة ثم إلى بصرى حيث رحب به صاحبها صديق بن جاولي، ثم رحل من بصرى في الرابع والعشرين من ربيع الأول ٥٧٠هـ/١١٧٤م فلقيه ابن عمه الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، والأمير سعد الدين بن معين الدين أنر يوم السبت السابع والعشرين من ربيع الأول، وفي يوم الأحد الثامن والعشرين لربيع الأول نزل بجسر الخشب حيث توافدت إليه الأجناد والعساكر الدمشقية وكبار الشخصيات. وفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من ربيع الأول دخل صلاح الدين دمشق، فحاول بعض الرجال منعه، إلا أن عساكره نجحوا في هزيمتهم، واخترق صلاح الدين شوارع دمشق حتى وصل إلى دار أبيه المعروفة بدار العقيقي، بينما امتنع جمال الدين ريحان بقلعة دمشق ورفض تسليمها لصلاح الدين، غير أنه لم يلبث أن استماله وبذل له كل ما طلبه، فسلمها جمال الدين لصلاح الدين بعد أن عوضه عنها، وأنزل بالقلعة أخاه ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن نجم الدين أيوب، واستقرت الأمور لصلاح الدين بدمشق.

ولما علم المدبرون للملك الصالح إسماعيل فى حلب بدخول صلاح الدين دمشق، سقط فى أيديهم، وأيقنوا بذهاب نفوذهم، فراسلوا سيف الدين غازى صاحب الموصل، كما أرسلوا إلى صلاح الدين الأمير قطب الدين ينال بن حسان صاحب منبج برسالة فيها غلظ وتعنيف، وقال فيما قاله: «هذه السيوف التى ملكتك مصر ـ وأشار إلى سيفه ـ تردك، وعما تصديت له تصدك». فتغافل عنه صلاح الدين، وذكر أنه إنما جاء إلى دمشق لترتيب الأمور وتربية الملك الصالح إسماعيل وإطلاق سراح الأمراء وأولاد ابن الداية من الاعتقال فقال له قطب الدين : «أنت تريد الملك لنفسك وليس مقصودك غير ذلك، والمصلحة أنك ترجع من يحث جئت، ولا تطمع فيما ليس لك فيه مطمع». فأظهر له صلاح الدين التبسم، وعامله باللين والرفق.

استخلف صلاح الدين بدمشق أخاه سيف الإسلام طغتكين، وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ/نوفمبر سنة ١١٧٤م وكانت حمص وحماة وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها إقطاعاً للأمير فخر الدين مسعود بن الزعفرانى، ولم تكن قلعتا حمص وحماة له، وإنما كان فيهما دز داران من قبل نور الدين محمود. نزل صلاح الدين على حمص وتسلمها فى الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ/الثامن من نوفمبر سنة ١١٧٤م. بينما امتنعت القلعة، فاضطر صلاح الدين إلى أن يترك بحمص من يحفظها بينما فرض حصاراً حول قلعتها ومنع عنها الإمدادات، ثم سار إلى حماة، فملك المدينة مستهل جمادى الآخرة سنة ٥٧٠هـ/ديسمبر ١١٧٤م بينما كانت قلعتها فى يد الأمير عزّ الدين جرديك، الذى امتنع عن

تسليم القلعة لصلاح الدين، فاضطر الأخير إلى أن يرسل إليه يخبره أنه إنما جاء لحفظ البلاد وأنه على طاعة الملك الصالح إسماعيل فاستحلفه جرديك على ذلك. وسيره صلاح الدين رسولا عنه إلى مدينة حلب، يدعو أمراءها إلى اجتماع الكلمة فى طاعة الملك الصالح إسماعيل، وفى إطلاق سراح الأمير شمس الدين بن الداية وأخوته من السجون، فسار جرديك إلى حلب، واستخلف بقلعة حماة أخاه نائبا عنه، فلما وصل حلب، قبض عليه سعد الدين كمشتكين، فما كان من أخيه إلا أن سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين.

سارصلاح الدين إلى حلب، وحصارها فى الثالث من جمادى الآخر سنة ٥٧٠هـ/ ٣٠ ديسمبر ١١٧٤م فقاتله أهلها أشد قتال، وركب الملك الصالح إسماعيل وجمع أهل البلد، وقال لهم «قد عرفتم إحسان أبى إليكم، ومحبته لكم، وسيرته فيكم وأنا يتيمكم، وقد خان هذا الظالم الجاحد إحسان والدى إليه يأخذ بلادى ولا يراقب الله والخلق»، وكرّر الملك الصالح هذا الحديث عدة مرات، وبكى وأبكى الناس، فبذلوا له أموالهم وأرواحهم واتفقوا على القتال دفاعاً عنه وحفظاً لبلاده، وأظهروا شجاعة نادرة فى القتال، مما أعجز صلاح الدين عن الاقتراب من حلب.

كما لجأ سعد الدين كمشتكين إلى مراسلة سنان صاحب الإسماعيلية الحشيشية يستنجد به، وبذل له أموالا كثيرة ليقتل صلاح الدين، فأرسل الحشيشية جماعة منهم إلى عسكر صلاح الدين فاكتشف أمرهم الأمير ناصح الدين خمارتكين، وكان مشاغراً لهم، فقال لهم: «لأى شىء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول». فجرحوه جراحات مثخنة مات منها بعد قليل، وقد حاول أحدهم الوصول إلى صلاح الدين وطعنه، لولا أن تصدى

له طغرل أمير جاندار وقتله. ثم كاتب الحلبيون الكونت.ريمون الثالث صاحب طرابلس وكان قد وقع أسيراً فى أيدى نور الدين محمود، وبقى فى الأسر أكثر من عشر سنوات، ثم فدا نفسه بمائة وخمسين ألف دينار وإطلاق سراح ألف أسير مسلم لدى الفرنج فتوجه ريمون بحشوده إلى مدينة حمص، فلما وصل إلى أسماع صلاح الدين تحركات ريمون، ترك حصار حلب فى مستهل رجب سنة ٥٧٠هـ/يناير سنة ١١٧٥م ووصل إلى حماة فى الثامن من رجب سنة ٥٧٠هـ/٣فبراير سنة ١١٧٥م بعد نزول الفرنج على حمص بيوم واحد، ثم رحل إلى الرستن. فلما بلغ الفرنج اقتراب صلاح الدين من حمص سارعوا بالرحيل عن حمص، التى كانت قد استعصت على صلاح الدين قلعتها، فحاصرها واضطرت إلى التسليم فى الحادى والعشرين من شعبان سنة ٥٧٠هـ/١٧مارس سنة ١١٧٥م ثم سار منها إلى بعلبك، وبها خادم اسمه يمن، فحاصرها صلاح الدين، فأرسل يمن يطلب الأمان له ولمن معه، فأمنهم صلاح الدين، وتسلم القلعة فى الرابع من رمضان سنة ٥٧٠هـ/٢٨ مارس ١١٧٥م وامتدحه عماد الدين الكاتب وكان قد اتصل بخدمته وهو نازل على حمص من قصيدة أولها:

بفتوح عصرك يفخر الإسلام ∴ وبنور نصـرك تشـرق الأيام
وبفتح قلعة بعلبك تهذبت ∴ هذى الممالك واستقر الشام
وبكى الحسود دماً وثغر الثغرين ∴ فرح بنصرك ـ للهدى بسام
فتح تسنى فى الصيام كأننا ∴ ـ شكراً لما منح الإله ـ صيام

ثم أرسل صلاح الدين الخطيب شمس الدين بن أبى المضاء رسولا إلى الخليفة المستضىء بنور الله العباسى برسالة تشتمل على الخدمات الجليلة

التى قدمها صلاح الدين للخلافة العباسية من جهاد الفرنج فى أيام نور الدين محمود، ثم فتح مصر واليمن وبلاد برقة، وإقامة الخطبة العباسية بها، وأنه لم تخل سنة من غزو الفرنج براً أو بحراً، ثم يشير إلى الأسباب التى دفعته إلى المسير إلى الشام وأهمها توحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبى واستردادبيت المقدس. وأخيراً طلب صلاح الدين من الخليفة العباسى تقليداً جامعاً بمصر والمغرب واليمن والشام وكل البلاد النورية.

وقد حرص صلاح الدين فى ذلك الوقت على استمالة أقطاب البيت الأتابكى، فكاتب عماد الدين زنكى بن مودود بن عماد الدين زنكى صاحب سنجار وكبير البيت الأتابكى، وأطمعه فى الملك، فمال عماد الدين زنكى إلى صلاح الدين وانحاز إليه. وكان الحلبيون ـ بعد فتح صلاح الدين دمشق وحمص وحماة وبعلبك قد كاتبوا سيف الدين غازى بن مودود صاحب الموصل يستنجدونه، وطلبوا منه أن يعبر نهر الفرات ليجتمعوا على حرب صلاح الدين، فجمع سيف الدين غازى عساكر الموصل، وكاتب أخاه عماد الدين زنكى، وأمره أن ينزل إليه من سنجار بعساكره ليجتمعا على حرب صلاح الدين، فامتنع عماد الدين زنكى، لأنه كما سبق أن ذكرنا قد مال إلى صلاح الدين وانحاز إليه، فسار سيف الدين غازى بنفسه إلى سنجار، وحاصرها فى شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ/أبريل سنة ١١٧٥م فامتنع بها أخوه عماد الدين زنكى ودافع عنها دفاعاً مجيداً.

وكان سيف الدولة غازى ـ قبيل أن يرحل إلى سنجار قد أرسل عساكره بقيادة أخيه عز الدين مسعود بن مودود ومعه الأمير عز الدين محمود المعروف بزلفندار، فوصل عز الدين مسعود بعساكر الموصل إلى حلب، ومنها إلى

حماة، فحاصروها وراسلوا صلاح الدين فى الصلح، فجاءهم على عجل، كما جاء الأمير سعد الدين كمشتكين والعدل شهاب الدين أبو صالح بن العجمى وغيرهما، وتفاوضوا فى الصلح، ففرضوا بعض الشروط وأهمها : أن يرد إليهم جميع الحصون والقلاع التى أخذها، وأن يضع بدمشق نائباً عن الملك الصالح إسماعيل وتكون الخطبة والسكة للصالح إسماعيل، وأن يرد إليهم كل ما أخذه من خزائن المال، فلما رأوا صلاح الدين مجيباً لكل شروطهم اشتطوا عليه، وطمعوا فى المزيد، فطلبوا الحصول على الرحبة وأعمالها، فقال لهم صلاح الدين : «هى لابن عمى ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، ولا سبيل إلى الإضرار به». فاختلف الفريقان، وكان لابد من تحكيم السيف.

وصل إلى معسكر صلاح الدين بعض العساكر المصريين ومعهم عشرة من كبار القواد منهم أبناء أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وعز الدين فرخ شاه بن شاهان شاه بن أيوب وغيرهم، وتقابل الفريقان عند قرون حماة فى التاسع عشر من رمضان ٥٧٠هـ/١٣ أبريل ١١٧٥هـ فلم يثبت عسكر الموصل، وانهزموا، بينما ثبت عز الدين مسعود بعد انهزام أصحابه، فلما رأى السلطان ثباته قال : «إما أن هذا أشجع الناس، وإما أنه لا يعرف الحرب». وأمر أصحابه بالحملة عليه، فحملوا، وأزالوه عن موقفه، وتمت الهزيمة عليهم، وتبعهم صلاح الدين وعسكره، وغنموا ما فى عسكرهم، وأسر جماعة منهم، ولكن سرعان ما أطلق سراحهم، فعادوا إلى حلب، وتبعهم صلاح الدين لمحاصرة حلب، وفى نفس الوقت أمر بقطع

عمر بن شاهنشاه من هو عامر ∴ أركان ملك الشام حين تضعضعا
خضع العدو وذل بعد تعزز ∴ لكم، وحق عدوكم أن يخضعا

الخطبة للملك الصالح إسماعيل، وأزال اسمه عن السكة فى بلاده وفى هذه الوقعة يقول عماد الدين الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك المظفر تقى الدين عمر:

جاءت الرسل من الحلبيين إلى صلاح الدين يطلبون منه الصلح، على أن يكون له ما بيديه من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم منها، فأجابهم صلاح الدين إلى الصلح، ورحل عن حلب فى العشرة الأول من شوال ٥٧٠هـ/ أبريل - مايو ١١٧٥م ووصل إلى حماة، حيث وافته الرسل من الخليفة المستضىء بنور الله العباسى بالتشريفات السلطانية والتقليد الخلافى بما أراد من الولايات، فضلا عن الخلع له ولأقاربه. وبوصول تقليد الخليفة العباسى أصبح صلاح الدين سلطاناً على مصر والشام.

وأخذ صلاح الدين طريقه من حماة إلى بارين، وكان صاحبها الأمير فخر الدين مسعود بن علي الزعفرانى من أكابر الأمراء النورية، فلما رأى قوة صلاح الدين، نزل عن بارين واتصل بخدمة صلاح الدين، وظن أنه سيشركه فى ملكه ويكرمه، ولا ينفرد عنه برأى كما كان يفعل معه نور الدين محمود، فلما لم يجد شيئاً من ذلك مع صلاح الدين، فارقه، فلما انتظم الصلح بين صلاح الدين والحلبيين، وقدم حماة، سار منها إلى بارين وحاصرها، ونصب عليها المجانيق، فسلمت إليه بالأمان، فلما ملكها عاد إلى حماة، وأقطعها لخاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى، وكان تملك بارين فى أواخر شوال ٥٧٠هـ/مايو سنة ١١٧٥م. كما سلم صلاح الدين حمص إلى ابن عمه الملك القاهر ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكانت حمص إقطاعاً لوالده أسد الدين شيركوه فى أيام نور الدين محمود.

عاد صلاح الدين إلى دمشق، فدخلها في أواخر شوال ٥٧٠هـ/مايو سنة ١١٧٥م ثم رحل عنها إلى مرج الصفر، فنزل به إلى نهاية عام ٥٧٠هـ/يونيو - يوليو ١١٧٥م. وفي مرج الصفر، جاء صلاح الدين رسول ملك الفرنج يطلب الهدنة، فأجابهم إليها، بعد أن اشترط عليهم شروطاً التزموها. ثم رجع صلاح الدين إلى دمشق، وواظب الجلوس في دار العدل، والصيد، وقد مدحه كاتبه عماد الدين الكاتب بقصيدة أولها:

سواك لسهم العلى لن يريشا ∴ فنسأل ربَّ العلى أن تعيشا
من الناس بالبر صدت الكرا ∴ م، وبالبأس في البر صدت الوحوشا
وكم سرت من معبد نحو العريـ ∴ ـش، فهدمت للمشركين العروشا
سراياك تبعث قدامها ∴ من الرعب نحو الأعادى - جيوشاً
ويوم حماة ترك العدا ∴ ة، كما طردت بالفلا الريح ريشا

لم يقبل سيف الدين غازى صاحب الموصل التسليم بشروط الصلح التي عقدت بين حلب وصلاح الدين، فكتب إلى الحلبيين كتاباً يوبخهم فيه ويدعوهم إلى استئناف القتال، وأنفذ إليهم رسولا أخذ عليهم المواثيق بذلك، ولكن من حسن حظ - صلاح الدين أن وقعت هذه المكاتبات المتبادلة بين أهل حلب وسيف الدين غازى في أيدى صلاح الدين، فأدرك بنقض الحلبيين الهدنة، فبدأ صلاح الدين يتأهب لقتالهم، فكتب إلى نائبه بمصر وهو أخوه الملك العادل أبو بكر بن أيوب، يخبره بذلك، ويأمره أن يأمر العساكر المصرية بالاستعداد والمسير إلى الشام.

صالح سيف الدين غازى أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار وعاد إلى الموصل، وجمع العساكر، واستنجد بصاحب الحصن وصاحب ماردين

وغيرهما، ثم سار إلى نصيبين في ربيع الأول سنة ٥٧١هـ/سبتمبر سنة ١١٧٥م وأقام بها إلى نهاية الشتاء، ثم سار متوجهاً إلى حلب، فعبر نهر الفرات، وأقام معسكره على الجانب الغربي منه، وراسل الحلبيين، واتفقا على أن يصل إليهم، فوصل إلى حلب، وخرج إليه الملك الصالح إسماعيل، فالتقاه قرب قلعة حلب، ورحب به، ثم سار سيف الدين عدى حتى نزل بعين المباركة، وأقام بها مدة وكان عسكر حلب يخرجون إليه، ويقومون بخدمته.

وصلت من مصر العساكر المصرية إلى صلاح الدين، فسار بهم متوجهاً إلى حلب، فوصل حماة، ثم رحل منها إلى مرج أبو قبيس، حيث وصلته الأخبار بأن الحلبيين والمواصلة قد حشدوا له ما يقرب من عشرين ألفاً بالإضافة إلى عبيدهم، كما أنهم قد حصلوا على وعود من الفرنج بالنجدة والإمدادات. ولم يكن قد اجتمع لصلاح الدين سوى ستة آلاف فارس. كما أطلق الحلبيون من فى أسرهم من ملوك وأمراء الفرنج وأبرزهم البرنس أرناط صاحب الكرك، وجوسلين خال الملك، الذين قرروا مساعدة الحلبيين، ورحل سيف الدين غازى بعسكره إلى تل السلطان.

وبلغت أنباء هذه التحركات صلاح الدين أثناء عيد الفطر، فبعد انقضاء أيام العيد، عبر بقواته نهر العاصى. عند شيزر، حيث رتب عساكره وسار حتى وصل إلى قرون حماة، فبلغ الحلبيين اقتراب صلاح الدين من بلادهم، فأخرجوا عيونهم لاستطلاع أخباره. وصل صلاح الدين إلى تل السلطان يوم الأربعاء التاسع من شوال ٥٧١هـ/ الحادى والعشرين من أبريل ١١٧٦م ومع صباح يوم الخميس العاشر من شوال، اصطف الجيشان للقتال، فدارت الدائرة على سيف الدين غازى وحلفائه من الحلبيين، واستولى صلاح الدين

على سرادق سيف الدين غازى بكل ما فيه من الخزائن والاسطبلات والمطابخ، وفرقها على عساكره، وقد رأى صلاح الدين فى السرادق طابوراً من القمارى والبلابل والهزازات والببغاء فى الأقفاص، فاستدعى صلاح الدين، مظفر الدين الأقرع ـ أحد ندماء سيف الدين غازى ـ وقال له : «خذ هذه الأقفاص واذهب بها إلى سيف الدين، وسلم عليه عنا، وقل له : عد إلى اللعب بهذه الطيور، فهى أسلم لك عاقبةً من الحرب».

وصل سيف الدين غازى ومن معه إلى حلب، وترك بها أخاه عز الدين مسعود فى جمع من العسكر، وعاد إلى الموصل حيث استشار وزيره جلال الدين، ومجاهد الدين قايماز فى مغادرة الموصل والاعتصام بقلعة عقر الحميدية، غير أن مستشاريه نصحوه بعدم ترك الموصل والتثبث بها، وخاصة أن أخاه عز الدين مسعود قد لحق به بمن اجتمع إليه من العسكر المنهزم.

أصبحت حلب تنتظر حصار صلاح الدين لها، وأخذ أهلها يستعدون للحصار، إلا أن صلاح الدين اتبع أسلوباً حربياً ماهراً يهدف إلى الاستيلاء على الحصون والقلاع المنيعة المحيطة بحلب ليضعف من مقاومتها، فسار صلاح الدين إلى بزاعة ففتحها فى الثانى والعشرين من شوال ٥٧١هـ/ الثالث من مايو سنة ١١٧٦م ثم فتح منبج، وكان صلاح الدين حانقاً على صاحبها قطب الدين ينال بن حسان لفظاظته التى قابله بها حينما أرسله الحلبيون إليه، فتسلم صلاح الدين قلعة منبج بما فيها، وساومه صلاح الدين أن يبقى فى خدمته مقابل أن يرد إليه ماله الذى عثر عليه فى قلعة منبج والذى قدر بستمائة ألف دينار، غير أن قطب الدين رفض خدمة صلاح الدين، وقرر الرحيل إلى سيف الدين غازى فى الموصل، فأقطعه سيف الدين الرقة، وبقى فيها إلى أن أخذها صلاح الدين سنة

٥٧٨هـ/١١٨٢-١١٨٣م. ثم سار صلاح الدين إلى قلعة أعزاز، فحاصرها ثمانية وثلاثين يوماً، وضيق على من بها، ونصب عليها المجانيق، وفقد أمامها الكثير من عسكره. ولما كانت ليلة الأحد الحادى عشر من ذى القعدة ٥٧١هـ/الثانى والعشرين من مايو ١١٧٦م كانت للأمير جاولى الأسدى ـ أحد قواد صلاح الدين ـ خيمة قريبة من المجانيق وكان صلاح الدين يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات ويحرض الرجال على القتال، فحضر صلاح الدين ليلة الأحد هذه، فانتهز الإسماعيلية الحشيشية تلك الفرصة، ودسوا عليه أحدهم، فضربه على رأسه ضربة كادت تقتله لولا أنه كان يرتدى عدة القتال من خوذة وكزاغند وغيرهما فحمته، وجرح خده فقط إلى أن تمكن رجاله من القضاء على الإسماعيلية الحشيشية المعتدين.

تسلم صلاح الدين قلعة أعزاز فى الحادى عشر من ذى الحجة سنة ٥٧١هـ/٢١ يونيو ١١٧٦م، ثم رحل من أعزاز ونزل على حلب منتصف ذى الحجة/٢٥ يوليو ١١٧٦م، وكان سعد الدين كمشتكين قد خرج من حلب إلى حصن حارم، فلما حاول العودة إلى حلب، منعته قوات صلاح الدين، إلا أنه تمكن بالحيل والمكر من دخولها، وظل صلاح الدين على حصار حلب إلى أن وافت سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م واشتد الضيق بأهلها، فطلبوا الصلح، وأجابهم صلاح الدين، واتفق على نفس الشروط السابقة وهى أن تكون حلب وأعمالها للصالح إسماعيل، وأن تكون لصلاح الدين مصر، وبلاد الشام من مدينة حماة وما يليها جنوباً، ثم تنازل صلاح الدين عن قلعة أعزاز إلى ابنة صغيرة لنور الدين محمود، كانت قد جاءته خلال المفاوضات مع الحلبيين واستوهبته قلعة أعزاز فوهبها لها إكراماً لذكرى والدها.

لم ينس صلاح الدين ما فعلته الإسماعيلية الحشيشية، ومحاولاتهم المتكررة لقتله، فقرر غزوهم فى معاقلهم وتدميرها فرحل من حلب يوم الجمعة العاشر من المحرم ٥٧٢هـ/١٩ يوليو ١١٧٦م وحاصر حصنهم المنيع فى مصياف، ونصب عليه المجانيق وأوسعهم قتلا وأسراً، وخرّب ديارهم، وكان يصر على أن يقضى عليهم وعلى أملاكهم، لولا أن شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى، صاحب حماه، وكانوا راسلوه يطلبون وساطته لأنهم جيرانه، فقبل صلاح الدين الشفاعة ورحل عنهم، وعاد إلى دمشق، فدخلها فى السابع عشر من صفر ٥٧٢هـ/٢٥ أغسطس ١١٧٦م ثم غادرها إلى مصر.

قضى صلاح الدين فى مصر فترة تبلغ نحو الست سنوات (٥٧٢-٥٧٧هـ/ ١١٧٦-١١٨١م)، ينظم أمورها ويهتم بمنشآتها ـ وقد حدث خلال هذه الفترة أن توفى سيف الدين غازى صاحب الموصل فى الثالث من صفر ٥٧٦هـ/٢٩ يوليو ١١٨٠م ولما كان سيف الدين غازى فى مرضه الذى توفى به، أراد أن يعهد بالملك إلى ولده معز الدين سنجر شاه بن غازى، وكان عمره وقتئذ اثنى عشرة سنة، فخاف على دولته من صلاح الدين إلا أن عزّ الدين مسعود بن مودود ـ أخا سيف الدين غازى ـ رفض قبول هذا العهد نظراً لصغر سن سنجر شاه، فأشار كبار رجال دولة سيف الدولة غازى عليه أن يجعل الملك فى أخيه معز الدين نظراً لكبر سنه وعقله، وأن يمنح ابنه عز الدين سنجر شاه جزيرة ابن عمر وبلادها، وابنه الآخر ناصر الدين قلعة عقر الحميدية على أن يكون مرجعهما لعز الدين مسعود عمهما، فلما توفى سيف الدين غازى خلفه أخوه عز الدين مسعود، ثم توفى الملك الصالح إسماعيل بحلب فى الخامس والعشرين من رجب سنة ٥٧٧هـ/٢٥

نوفمبر ١١٨١م وكان لما اشتد به المرض قد أحضر الأمراء والقواد، واستحلفهم كلهم لابن عمه عز الدين مسعود، وأمرهم بتسليم مملكته جميعاً إليه. وقد عارضه بعض الأمراء في ذلك، وعرضوا عليه أن يوصى بحلب لابن عمه عماد الدين زنكى الثانى، فقال له الملك الصالح مدافعاً عن وجهة نظره: «إن هذا لم يغب عنى، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدى ومعى، فإن سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها منه،فإن ملكها صلاح الدين لا يبقى لأهلنا معه مقام، وإذا سلمتها إلى عز الدين أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله، فلما توفى الملك الصالح إسماعيل، أرسل شاذ بخت دزدار حلب إلى عز الدين محمود يدعوه إلى حلب، فسار إليها ودخلها وملكها في العشرين من شعبان ٥٧٧هـ/٢٩ ديسمبر ١١٨١م واستولى على الخزائن والذخائر وتزوج أم الملك الصالح إسماعيل وأقام بقلعة حلب إلى السادس عشر من شوال ٥٧٧هـ/١٨٨٢م ثم رحل من حلب إلى الرقة، فلقيه عماد الدين زنكى الثانى واستقر الأمر بينهما أن يسلم حلب إلى عماد الدين، ويأخذ عز الدين مسعود سنجار عوضاً عنها ويستقر في الموصل.

كان صلاح الدين خلال إقامته في القاهرة تصل إلى إسماعه أخبار وتطورات هذا الخلاف بين أفراد البيت الأتابكى، ورأى أنه من المستحيل توحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبى إلا بإخضاع بلاد الشام بالكامل فضلا عن منطقة الجزيرة، فغادر صلاح الدين القاهرة متوجهاً إلى الشام في الخامس من المحرم سنة ٥٧٨هـ/الحادى عشر من مايو سنة ١١٨٢م فوصل دمشق في السابع عشر من صفر سنة ٥٧٨هـ/٢٢ يونيو ١١٨٢م ثم رحل إلى بعلبك ومنها إلى حمص ثم إلى حماة وأخيراً نزل على حلب في

الثامن عشر من جمادى الأولى ٥٧٨هـ/١١ سبتمبر ١١٨٢م وأقام منازلا لها ثلاثة أيام، غير أنه سرعان ما ترك حلب وقرر الاستيلاء على الموصل، فعبر نهر الفرات، واستولى على مدينة البيرة، ثم رحل إلى الرها، وفيها الأمير فخر الدين مسعود الزعفرانى الذى سلمها لصلاح الدين، ومنها إلى حران فتسلمها، ثم إلى الرقة وكان بها الأمير قطب الدين ينال بن حسان فسلمها لصلاح الدين، كما استولى على مشهد الرمان وعربان والخابور، ثم نازل نصيبيين، فامتنعت عليه قلعتها أياماً، ثم استسلم من فيها، فملكها وولاها حسام الدين أبا الهيجاء السمين، وأقام بها ليصلح أمورها وفى نصيبين جمع صلاح الدين الأمراء وكبار القواد ليستشيرهم بأى البلاد يبدأ الفتح، بالموصل أم بسنجار أم بالجزيرة؟ فاختلفت وتعددت الآراء، إلى أن انتهى الأمر بالمسير إلى الموصل، فلما وصلها وجد أن صاحبها عز الدين مسعود ونائبه مجاهد الدين قايماز قد جمعا وحشدا بالموصل حشوداً هائلة ما بين فارس وراجل، وكان نزول صلاح الدين على الموصل يوم الخميس الحادى عشر من رجب ٥٧٨هـ/العاشر من أكتوبر سنة ١١٨٢م. وفشلت جهود صلاح الدين وجنده فى دخول مدينة الموصل، بفضل مقاومة وبسالة أهلها فى الدفاع عنها. فقرر صلاح الدين فك حصار الموصل وابتعد عن أسوارها. وفي نفس الوقت وصل إلى معسكر صلاح الدين صدر الدين شيخ الشيوخ رسول الخليفة الناصر لدين الله العباسى ومعه بشير الخادم وحاولا التوفيق بين صلاح الدين وعز الدين مسعود فطلب عز الدين مسعود أن يعيد إليهم صلاح الدين جميع البلاد التى افتتحها، فوافق صلاح الدين على شرط أن يسلموا إليه حلب، رفض عز الدين مسعود، ثم عاد صلاح الدين واقترح أن يعيد إليهم جميع البلاد التى افتتحها مقابل عدم إرسال عز الدين مسعودأى

إمدادات أو نجدات لعماد الدين زنكي في حلب، فرفض عز الدين مسعود هذا الاقتراح وقال: «هو أخي وله معي العهود والمواثيق ولا يسعني نكثها». ثم رأى صلاح الدين الرحيل إلى سنجار، فلما توجه إليها وجد في طريقه عسكراً من الموصل مرسلا إليها، فأحاط بهم وأخذ خيلهم وردهم إلى الموصل. وكان بسنجار الأمير شرف الدين هندوا ابن مودود نائباً بها عن أخيه عز الدين مسعود، ففرض عليها الحصار، ونصب عليها المنجنيق، فهدم ثلمة من سور قلعتها، ونجح في الاستيلاء عليها. ثم قام شرف الدين هندوا بتسليم سنجار وقلعتها لصلاح الدين ورحل بأهله وماله إلى الموصل، فدخلها صلاح الدين وولاها الأمير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر.

أجرى عز الدين مسعود صاحب الموصل اتصالاته مع صاحب أخلاط وصاحب ماردين للاتفاق على حرب صلاح الدين، واجتمعت عساكرهم على حرزم (وهي ضيعة من أعمال ماردين). وكان صلاح الدين عقب تملكه سنجار، قد رحل إلى نصيبين ومنها إلى حران حيث تفرقت عساكره، فلما تسامع باجتماع أصحاب الموصل وماردين وأخلاط أرسل إلى ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماة يستدعيه، فوصل إليه مسرعاً، وأشار على عمه بالرحيل إليهم بينما حذره آخرون، وأخيراً قرر صلاح الدين أن يتوجه إلى الموصل، فلما سمع المجتمعون برحيله تفرقوا وعاد كل منهم إلى بلاده.

سار صلاح الدين إلى مدينة آمد، فنزلها يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي الحجة ٥٧٨هـ/٢٣ أبريل سنة ١١٨٣م بعد أن استأذن الخليفة الناصر لدين الله العباسي في ذلك فأذن له، وكانت آمد في غاية الحصانة والمنعة وبعد مقاومة عنيفة، تسلمها صلاح الدين في العشر الأوائل من المحرم

٥٧٩هـ/ أبريل ـ مايو ١١٨٣م وأنعم بها على نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا، لأنه كان قد وعده بها. ثم رحل صلاح الدين من آمد وعبر نهر الفرات، واستولى على مدينة تل خالد وهى من أعمال حلب فى المحرم ٥٧٠هـ/ مايو سنة ١١٨٣م. ومنها سار إلى عين تاب وكان بها ناصر الدين محمد بن خمارتكين أخو الشيخ إسماعيل خازن نور الدين وحاجبة، وكان نور الدين محمود قد سلمها إليه، فبقيت فى يده إلى أن نازله صلاح الدين، فعرض ناصر الدين محمد على صلاح الدين أن يبقى الحصن بيده مقابل أن يدخل فى خدمته، فأقره صلاح الدين على عين تاب كإقطاع له.

سار صلاح الدين إلى حلب، فوصلها فى السادس والعشرين من المحرم ٥٧٩هـ/الحادى والعشرون من مايو سنة ١١٨٣م واستدعى العساكر من جميع الأطراف فاجتمع إليه خلق كثير، وكان صلاح الدين يتطلع إلى فتح حلب صلحاً بدون قتال، فأرسل إلى عماد الدين زنكى الثانى صاحب حلب يعرض عليه الصلح، فأجابه زنكى بالموافقة مقابل أن يعوضه صلاح الدين عنها بسنجار، فوافق صلاح الدين وأضاف إليه أيضاً الخابور ونصيبين والرقة وسروج، كما اشترط عليه صلاح الدين أن يرسل إليه عساكره إلى الغزاة حين يقتضى الأمر ذلك. وبذلك بقيت الموصل وحدها. فاتجه إليها صلاح الدين فى ربيع الأول ٥٨١هـ/يونيو سنة ١١٨٥م فحاصرها للمرة الثانية، ولكنه اضطر أيضاً إلى ترك حصارها ليفتتح بلاداً أخرى مثل خلاط التى أعلنت الولاء له، وميافارقين التى استولى عليها، ثم عاد لحصارها للمرة الثالثة فى شهر شعبان ٥٨١هـ/ أكتوبر ـ نوفمبر ١١٨٥م. وأخيراً وجد عز

الدين مسعود ألا فائدة من قتال صلاح الدين، فأرسل إليه يطلب الصلح، وكان صلاح الدين قد رفض أول الإمر إجابته إلى طلبه حينما طلب عز الدين مسعود وساطة الخليفة العباسى للصلح بينه وبين صلاح الدين، ولكن هذه المرة تم عقد الصلح بينهما على أن يعترف عز الدين بتبعيته لصلاح الدين، وأن يخطب له على منابر بلاده، وأن يضرب اسمه على السكة، وأن ينزل له عن كل ما وراء نهر الزاب من بلاد الجزيرة وهكذا تمكن صلاح

الدين من توحيد الجبهة الإسلامية، لتبدأ فترة حاسمة فى تاريخ الدولة الأيوبية، وهى الفترة التى شهدت تلك الانتصارات الحاسمة التى أحرزها صلاح الدين ضد الصليبيين والتى توجت باستعادة بيت المقدس فى عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م.

موقعة حطين واستعادة بيت المقدس

حمل صلاح الدين الأيوبى لواء الجهاد ضد الصليبيين، هذا اللواء الذى حمله من قبل عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود وكان أول صدام عسكرى بين صلاح الدين عقب توليه عرش السلطنة فى مصر والصليبيين فى عام ٥٧٣هـ/١١٧٧م. ففى الثالث من جمادى الأول سنة ٥٧٣هـ/٢٨ من أكتوبر سنة ١١٧٧م، خرج صلاح الدين من القاهرة، لجهاد الفرنج فوصل إلى عسقلان، فسبى وغنم وقتل ومضى إلى الرملة ففاجأتهم حشود الفرنج بقيادة البرنس أرناط صاحب حصن الكرك. فانهزم المسلمون، بينما ثبت صلاح الدين فى جمع يسير من جنده، وقاتل قتالا شديداً، واستشهد جماعة من المسلمين، وأسر الفرنج مائة منهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى. ودخل صلاح الدين القاهرة فى منتصف جمادى الأخرة سنة ٥٧٣هـ/التاسع من ديسمبر سنة ١١٧٧م، فحلف لا تضرب له نوبة حتى يهزم الفرنج، كما عاقب جماعة من الأكراد لأنهم كانوا السبب فى هذه الهزيمة فصادر اقطاعاتهم الزراعية.

وفى نفس العام (٥٧٣هـ/١١٧٧-١١٧٨م) نزل الفرنج على مدينة حماة، فقاتلهم أهلها أربعة أيام حتى رحلوا عنها، كما نزلوا على مدينة حارم، وحاصروها أربعة أشهر، ثم رحلوا إلى بلادهم.

خرج صلاح الدين من القاهرة فى السادس والعشرين من شعبان سنة ٥٧٣هـ/السابع عشر من فبراير ١١٧٨م إلى الشام فقضى عيد الفطر ببركة الجب إلى أن بلغه نزول الفرنج على حماة، فأسرع فى المسير حتى دخل دمشق فى الرابع والعشرين من شوال سنة ٥٧٣هـ/ الخامس عشر من أبريل سنة ١١٧٨م، فرحل الفرنج عن حماة، وفى أوائل شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٤هـ/سبتمبر ١١٧٨م، هاجم الفرنج مدينة حماة، فتصدى لهم المسلمون وأسروا مقدمهم فى جماعة من جنده، وبعثوا بهم إلى صلاح الدين بدمشق فأمر بضرب أعناقهم. وقد انتهز الفرنج انشغال صلاح الدين بمحاربة شمس الدين بن المقدم ببعلبك، وابتنوا حصناً على مخاضة بيت الأحزان وهو بيت يعقوب عليه السلام وعلى مقربة من دمشق، فلما عاد صلاح الدين إلى دمشق وعلم بقصة هذا الحصن، قام على الفور بمهاجمته وقبض على عدد من الفرنج المقيمين حوله، ثم عاد إلى دمشق.

وفى نفس العام (٥٧٤هـ/١١٧٨م) وصلت الأنباء إلى صلاح الدين باجتماع الفرنج لغزو بلاد المسلمين فأخرج صلاح الدين ابن أخيه عزالدين فرخشاه على مقدمة جيشه، فاصطدم بالفرنج، وقتل جماعة من مقدميهم وأسر منهم جماعة فخرج صلاح الدين لنجدة ابن أخيه، ولكن وافته الأسرى ورؤوس القتلى، فسر بذلك وعاد إلى دمشق.

وفى العام التالى ٥٧٥هـ/١١٧٩م، واصل صلاح الدين غاراته على بلاد الفرنج، ونازل بانياس، وأرسل عساكره بقيادة عز الدين فرخشاه بن أيوب فأكثر من قتل وأسر الفرنج كما نجح فى فتح بيت الأحزان فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٧٥هـ/الثامن والعشرين من سبتمبر ١١٧٩م

بعد قتال وحصار طويل فغنم منهم مائة ألف قطعة من أنواع الأسلحة، وكثيراً من الأقوات، وأسر ما يقرب من سبعمائة منهم، وخرب الحصن حتى سوّاه بالأرض، وسد البئر التى كانت به ثم أغار على طبرية وصور وبيروت وعاد أخيراً إلى دمشق.

وفى ربيع الأول سنة ٥٧٧هـ/ يوليو ـ أغسطس ١١٨١م هاجم الفرنج ساحل تنيس وأخذوا مركباً للتجار. وفى عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م أغار صلاح الدين على مدينة طبرية، واشتد القتال مع الفرنج بالقرب من قلعة كوكب (وهى قلعة حصينة بالجبل المطل على مدينة طبرية) واستشهد جماعة من المسلمين ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٥٧٨هـ/ الثامن عشر من يوليو ١١٨٧م.

وفى نفس العام (٥٧٨هـ/١١٨٢م) قام البرنس أرناط صاحب الكرك بنقل قطع من أسطوله وحملها على ظهور الجمال براً إلى البحر الأحمر، وشحنها بالمقاتلة وأوقف مركبين على قلعة أيلة لمنع أهلها من التزود بالماء. بينما سارت بقية مراكبه نحو ميناء عيذاب، فقتلوا وأسروا وأحرقوا فى البحر الأحمر نحو ست عشرة مركباً، كما استولوا على مركباً للحجاج، كما أسروا قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع، وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن، كما أخذوا أطعمة كثيرة بميناء عيذاب كانت معدة لإطعام الحجاج، وأحدثوا حوادث لم يسمع فى الإسلام بمثلها، ولا وصل قبلهم رومى إلى ذلك الموضع». ومضوا فى طريقهم إلى المدينة المنورة.

بلغت هذه الأنباء السيئة الملك العادل نائب صلاح الدين بالقاهرة ـ إذ كان صلاح الدين بالشام ـ فأمر على الفور أمير البحر حسام الدين لؤلؤ

بتجهيز الأسطول المصرى إلى البحر الأحمر، فسار إلى قلعة أيلة عند مدخل البحر الأحمر، وظفر بمراكب للفرنج، فحرقها وأسر من فيها، ثم سار إلى ميناء عيذاب متتبعاً مراكب الفرنج، فأوقع بها. وأطلق الأسرى التجار، ورد عليهم ما أخذ منهم، ثم نزل إلى البر وتعقب الفرنج الفارين، وحاصرهم فى شعب لا ماء فيها، وأسرهم جميعاً، وساق منهم أسيرين إلى منى فى موسم الحج ونحرهما عقوبة لهما على قصدهم المدينة المنورة، ثم عاد إلى القاهرة ومعه الأسرى، فضربت أعناقهم جميعاً.

وفى العاشر من المحرم سنة ٥٧٩هـ/الخامس من مايو سنة ١١٨٣م، سار الأسطول المصرى من مصر، فظفر ببطسة فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون مقاتلا من الفرنج، فقاتلهم المسلمون، وكان النصر للمسلمين، فأخذوا الفرنج أسرى، فقتلوا البعض، وعادوا بالباقين والغنائم إلى مصر. وفى نفس العام، أقام صلاح الدين على بيسان فأحرقها ونهبها وفعل نفس الشيء بعدة قلاع صليبية، منها حصن عفر بلا وزرعين. وفى يوم السبت الثالث من رجب سنة ٥٧٩هـ/الثانى والعشرين من أكتوبر سنة ١١٨٣م، خرج صلاح الدين إلى حصن الكرك، فحاصره مدة طويلة، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليه فعاد إلى دمشق. وفى الثانى عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ/الثالث والعشرين من يوليو سنة ١١٨٤م سار صلاح الدين إلى حصن الكرك، ونصب عليه تسعة مجانيق، فهدمت السور المقابل لها، ولم يبق مانعاً إلا الخندق الواسع العميق المحيط بالأسوار، ولكن صلاح الدين لم يتمكن من هدمه أو ردمه. وفى نفس الوقت كاتب الفرنج المحاصرون بالكرك إخوانهم يستنجدونهم، ويخبرونهم بعجزهم وعدم مقدرتهم على حفظ الحصن والدفاع عنه، فسارع الفرنج لنجدتهم فى أعداد غفيرة، فاضطر صلاح الدين إلى رفع

الحصار عن الكرك، وعاد إلى دمشق، بعد أن نهب كل ما على طريقه من البلاد التابعة للفرنج، كما أحرق نابلس ونهبها وقتل من فيها.

وفى عام ٥٨٢هـ/١١٨٩، عقد ريموند صاحب طرابلس حلفاً مع صلاح الدين، يكون بمقتضاه عيناً لصلاح الدين على الفرنج، وقد قام صلاح الدين بإطلاق من فى أسراه من أصحاب ريموند، كى يقوى ويدعم مركزه أمام الفرنج.

كانت هناك هدنة معقودة بين المسلمين والفرنج مداها أربع سنوات (٥٧٩هـ/٥٨٢/١١٨٤-١١٨٨)، فاجترأ البرنس أرناط صاحب حصن الكرك على نقضها. ففى عام ٥٨٢هـ (١١٨٧) كانت قافلة تجارية للمسلمين تمر بالكرك فى طريقها من مصر إلى الشام، ولم يحترم أرناط الهدنة، وانقض على القافلة، فنهبها وقتل من أفرادها من قتل وأسر من أسر، وامتنع عن إجابة صلاح الدين إلى إطلاق سراحهم. وتذكر بعض الروايات أنه قال لبعض الأسرى: «فليأت محمد ليخلصكم» فلما تسامع بذلك صلاح الدين، أقسم أن يقتله بيده إن هو ظفر به.

كانت هذه الحادثة هى عود الثقاب الذى أشعل نار الحرب، وبدأ كل فريق يعد لها عدته، فقد أرسل صلاح الدين إلى سائر بلدان العالم الإسلامى يطلب الإمدادات، فجاءته من كل مكان. وخرج صلاح الدين من دمشق لجهاد الفرنج يوم السبت الأول من المحرم سنة ٥٨٣هـ/الثالث عشر من مارس ١١٨٧م. أما الصليبيون فقد حشدوا جيوشهم بقيادة ثلاثة من كبار قوادهم وهم البرنس أرناط صاحب الكرك، وجى دى لوزنيان صاحب بيت المقدس، والكونت ريموند صاحب طرابلس.

وصل صلاح الدين إلى رأس الماء وأمر ولده الملك الأفضل بالبقاء هناك فى بعض العساكر لتجتمع عنده النجدات والإمدادات الإسلامية ثم سار إلى بصرى، فخيم عندها مرتقباً مجيء الحجاج خوفاً عليهم من غدر أرناط، فلما وصل الحجاج فى شهر صفر ٥٨٣هـ/أبريل ١١٨٧م. رحل صلاح الدين إلى حصن الكرك. ونازله وقطع ما حوله من الأشجار وأفسد زرعه وكرومه، ثم سار إلى الشوبك وفعل بها مثلما فعل بحصن الكرك.

وصلت العساكر المصرية بقيادة الملك العادل أخى صلاح الدين، والتقى مع صلاح الدين على القريتين (وهى بلدة كبيرة من أعمال حمص وتدعى حوارين)، وسارا معاً إلى الكرك، فنازلاها فى ربيع الأول سنة ٥٨٣هـ/مايو ١١٨٧م، وشدد صلاح الدين الحصار عليها، ثم رحل عنها ونازل طبرية، فافتتحها عنوة فى الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/الثانى من يوليو ١١٨٧م، ولم تمتنع عليه سوى قلعتها وبها ليدى اسكيف زوجة ريموند صاحب طرابلس.

تجمعت الحشود الصليبية فى نحو خمسين ألفاً فى صفورية، فلما سقطت طبرية فى أيدى صلاح الدين، انقسم الفرنج إلى فريقين، أولهما يضم ريموند صاحب طرابلس ومعظم القيادات الصليبية وكان يرفض المسير إلى طبرية لإغاثة الليدى اسكيف، وثانيهما يضم مقدم الداوية والبرنس أرناط وكان يرى ضرورة المسير إلى طبرية وإغاثة الليدى اسكيف، وسرعان ما استقر الرأى على قبول رأى الفريق الثانى ولا سيما أن الملك جى دى لوزنيان اقتنع بهذا الرأى. فترك الجيش الصليبى معسكره فى صباح يوم الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ الثالث من يوليو سنة ١١٨٧، لمنع صلاح

الدين من الاستيلاء على قلعة طبرية،فلما تسامع صلاح الدين بتحركاتهم نحوه، سره ذلك، لأنه كان متطلعاً إلى تدمير الجيش الصليبي كي يتيسر له بعد ذلك استرداد الأراضي الإسلامية التي في أيدى الصليبيين، فترك على قلعة طبرية من يحاصرها، بينما سار بالجزء الأكبر من جيشه للقاء الفرنج. توقف الفرنج على مبعدة ستة أميال من طبرية ونصبوا معسكرهم في مساء الرابع والعشرين من ربيع الآخر ٥٨٣هـ/الثالث من يوليو ١١٨٧م، وكان يفصل المعسكر الصليبي عن مدينة طبرية تلال طبرية ومنها تل حطين. وكان المسلمون قد احتشدوا على طول تلك التلال لقتال الجيش الصليبي إذا ما تحرك إلى طبرية، كما لجأ صلاح الدين إلى إفساد آبار المياة.

ومع صباح يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/الرابع من يوليو ١١٨٧م، تحرك الجيش الصليبي إلى طبرية، فلما تم لهم عبور هذه المنطقة الصحراوية ووصلوا إلى تل حطين بالقرب من طبرية كان السير قد أكدهم وأنهك قواهم كما كان العطش قد نال منهم كل منال، فتسارعوا على الآبار القريبة ولكنهم وجدوا أن صلاح الدين قد أفسدها، وبدأت المعركة وهم على شدة الجهد من التعب والعطش وحرارة الصيف، وسرعان ما أحاطتهم به جيوش صلاح الدين من مختلف الجهات. وفي خلال المعركة حاول ريموند صاحب طرابلس أن يجد ثغرة يخرج منها ليحطم دائرة الحصار المضروب حولهم، فلما أحس به الأمير تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين، دبر له مكيدة، وتظاهر بالهزيمة وأفسح له طريق الخروج، فلما بعد بفرقته عن الجيش الصليبي أسرع تقي الدين عمر وانضم إلى جيش المسلمين وأغلق دائرة الحصار مرة ثانية، فلما وجد ريموند نفسه وحيداً آثر النجاة وأسرع بالعودة إلى مقر ملكه في طرابلس. استمر القتال

عنيفاً بين الفريقين، ولجأ المسلمون إلى حيلة جديدة، فأشعلوا النار فى الحشائش المحيطة بمعسكر الصليبيين فأصبحت النار تلفح وجوههم وأجسامهم من كل مكان، وسرعان ما انهارت القوى الصليبية، وألقوا بأسلحتهم، فقتل المسلمون منهم عدداً كبيراً، ومن نجا من القتل وقع فى الأسر. وكان من بين الأسرى الملك جى دى لوزنيان، والبرنس أرناط، وغيرهما من قادة الفرنج وأمرائهم. وبعد المعركة جلس صلاح الدين فى خيمته وحوله قواده، وأحضر ملوك الفرنج ومقدميهم، وأجلسالملك جى إلى جانبه وأجلس الملك أرناط إلى جانب الملك، وآنسى صلاح الدين الملك جى وحادثه، وأمر له بجلاب (ماء ورد) مثلوج، فشربه وكان قد بلغ منه العطش مبلغاً عظيماً، ولما روى ناول البرنس القدح، فشربه، فقال صلاح الدين للملك جى: «لم آذن لك فى سقيه الماء حتى لا يوجب ذلك أماناً له». وذكّر صلاح الدين أرناط بقوله عندما غدر بالقافلة المتوجهة من مصر إلى الشام، «قولوا لمحمدكم يخلصكم». فقال له صلاح الدين «ها أنا أنتصر لمحمد ﷺ». ثم عرض عليه الإسلام فرفض أرناط، فاستل صلاح الدين المنجاه (خنجر مقوس يشبه السيف القصير) من وسطه وضربه به فحل كتفه، وتمم عليه من حضر من الخدم، فلما رآه الملك جى، ظن أن صلاح الدين سيفعل ذلك به كما فعل بأرناط، ولكن صلاح الدين استحضره وطيّب قلبه، وقال: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فتجاوز حده، فجرى عليه ما جرى».

وفى يوم الأحد السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/الخامس من يوليو سنة ١١٨٧م، توجه صلاح الدين إلى طبرية، وخيم بها، وراسل الليدى اسكيف صاحبتها، فأجابته إلى التسليم، وطلبت الأمان لها ولمن

معها، فأمنوا، وسلمت القلعة بما فيها، وخرجت بأموالها إلى طرابلس، مركز زوجها ريموند. وولى صلاح الدين طبرية للأمير صارم الدين قايماز النجمى. ثم رأى صلاح الدين أن المصلحة العليا للمسلمين تتطلب التخلص من الداوية والاسبتارية، وجعل لكل من يأتيه بأسير منهما خمسين ديناراً، فأتى في الحال بمائتين منهم، فأمر بضرب رقابهم، كما كتب صلاح الدين إلى نائبه بدمشق الصفى بن القابض بأن يضرب عنق كل من يجده من الداوية والاسبتارية، فامتثل لأمر السلطان. كما سير صلاح الدين الملك جى وأخاه وكبار القواد الفرنج إلى دمشق وفرّق بقية السبى بين المسلمين، فتصرفوا فيهم وبيعوا فى جميع البلاد الإسلامية.

الاستيلاء على مدن الساحل

اتجه صلاح الدين للاستيلاء على مدن الساحل، وكان هدفه الأول أن يمنع أى إمدادات من الوصول إلى بيت المقدس حتى إذا هاجمها سهل عليه الاستيلاء عليها. وكان هدفه الثانى تأمين مواصلاته البحرية مع مصر، فإن بقاء هذه المدن بأيدى الفرنج يهدد دائماً هذه المواصلات ويمنع وصول أى مدد أو مؤونة قد تأتيه من مصر.

سار صلاح الدين إلى عكا، فوصلها يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/الثامن من يوليو سنة ١١٨٧م، وأقام معسكره بقربها وراء التل، وفى صباح يوم الخميس الأول من جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ التاسع من يوليو ١١٨٧م، ركب صلاح الدين فى عساكره، ووقف بإزاء التل مصمماً على الزحف والقتال، وبينما هو يستعد لحصار عكا والاستيلاء عليها، إذ خرج كثير من أهلها يتضرعون إليه ويطلبون الأمان، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وخيَّرهم بين الإقامة أو الرحيل، عن عكا، فاختاروا الرحيل، وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقى على حالها، ودخل المسلمون عكا يوم الجمعة الثانى من جمادى الأولى سنة

٥٨٣هـ/ العاشر من يوليو ١١٨٧م، واستولوا على ما فيها من الأموال والذخائر، واستنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين وكانوا أربعة آلاف شخص. وقام القاضى الفاضل بتحويل كنيستها إلى جامع ورتب فيه المنبر والقبلة وأقيمت فيه أول صلاة جمعة بعد انتصار المسلمين فى عكا. وأقطع صلاح الدين عكا لولده الملك الأفضل نور الدين علي، وأعطى جميع ما فى عكا من إقطاعات وضياع كانت ملكاً للداوية للفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى، ترضية له عما قاساه في أسرهم من قبل.

وأثناء مقام صلاح الدين بعكا فرّق عساكره، فافتتحت عدة حصون حول عكا، وهى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والتولع والطور ونهبوا ما فيها وسبوا نساءها وأطفالها. وسيّر صلاح الدين ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين فنزل على تبنين ليقطع الإمدادات عنها وعن صور، كما سيّر ابن أخته الأمير حسام الدين بن لاجين إلى نابلس، فنزل ابن لاجين على سبسطية (وهى بلدة من أعمال نابلس) وفيها قبر زكريا عليه السلام، فأخذها، ثم وصل إلى نابلس، فدخلها، وحاصر قلعتها، واستنزل من بها من الفرنج بعد أن منحهم الأمان وتسلم القلعة.

وفى نفس الوقت سار الملك العادل أخى صلاح الدين بعساكره المصرية من عكا إلى مجدل ليابا (قرب الرملة) فحاصره وفتحه وغنم ما فيه، ثم اتجه إلى يافا، وحاصرها وفتحها عنوة، ونهبها، وسبى الحريم وأسر الرجال، وكان الأمير تقى الدين عمر قد نازل تبنين وحاصرها، وفشل فى فتحها، فكتب إلى عمه صلاح الدين يستدعيه ليتولى فتحها بنفسه، فرحل صلاح الدين من عكا فى الثامن من جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ/ السادس عشر من يوليو سنة

١١٨٧م، فوصلها فى الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ/التاسع عشر من يوليو ١١٨٧م، فحاصرها، وضيق عليها، وكانت تبنين قلعة منيعة على رأس جبل، فلما اشتد على أهلها الحصار، راسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان، واستمهلوه خمسة أيام لينزلوا بأموالهم، وقدموا له بعض الرهائن من مقدميهم، كما أطلقوا سراح ما عندهم من الأسرى المسلمين وكانوا يزيدون على مائة رجل، فكساهم صلاح الدين وسيرهم إلى أهلهم. وقد تسلم صلاح الدين تبنين يوم الأحد الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ/السادس والعشرين من يوليو ١١٨٧م، وتسلم ما بها من العدد والدواب والخزائن ولما فرغ صلاح الدين من تبنين سار إلى صيدا، فمر فى طريقه بصرخد (وهى بلدة من أعمال دمشق)، ففتحها دون قتال، ومنها إلى صيدا، فلما علم صاحبها بمسيره إليها، تركها خاوية وأرسلها بمفاتيحها إلى صلاح الدين، فدخلها فى الحادى والعشرين من جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ التاسع والعشرين من يوليو ١١٨٧م. ثم سار صلاح الدين إلى بيروت، فوصلها يوم الخميس الثانى والعشرين من جمادى الأولى ٥٨٣هـ/الثلاثون من يوليو ١١٨٧م فحاصرها، ثمانية أيام، حتى طلب أهلها الأمان، فأمنهم، وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منجمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ/ السادس من أغسطس سنة ١١٨٧م. أما عن مدينة جبيل، فكان صاحبها من جملة الأسرى الذين أرسلوا إلى دمشق مع الملك جى عقب معركة حطين فتكلم مع نائب صلاح الدين بدمشق فى تسليم جبيل مقابل إطلاق سراحه، فأحضره صلاح الدين إلى بيروت، وأطلق سراحه بعد أن أطلق أسرى المسلمين الذين بجبيل، ودخلها صلاح الدين بالأمان دون قتال.

وهكذا افتتح صلاح الدين معظم مدن الساحل، ولم يبق من مدنه

الكبرى سوى مدينة صور ذات الموقع الاستراتيجى الممتاز، كما تجمعت فيها جيوش الصليبيين جميعاً التى خرجت من كل مدن الساحل. ومما ساعد على تقوية وتدعيم مدينة صور فى ذلك الوقت وصول سفينة صليبية تحمل الفارس الصليبى كونراد دى مونتفرات فقد وصل إلى ساحل عكا عقب سقوطها فى أيدى المسلمين دون أن يدرى بسقوطها، فلما أرسى بساحل عكا لم يرى وجوه الفرنج التى اعتاد رؤيتها أو عادتهم أو ملابسهم. فتأكد من سقوطها فى أيدى المسلمين، فرحل إلى مدينة صور، وقد سير الملك الأفضل نور الدين علي صاحب عكا السفن الإسلامية فى طلبه، ولكنهم لم يلحقوا به، وكان أهل صور ـ قبيل مجىء كونراد قد عزموا على مكاتبة صلاح الدين وطب الأمان منه وتسليم صور إليه، فلما آتاهم كونراد وهم على ذلك العزم، ردهم عنه وقوى نفوسهم، وبذل ما معه من الأموال، واشترط عليهم أن تكون صور وأعمالها له، فأجابوه إلى ذلك، وأخذ أيمانهم عليه، فأخذ فى تحصين صور، وتجديد حفر الخنادق حولها وبنى أسواراً جديدة للمدينة. قرر صلاح الدين ترك صور مؤقتا والسير الى عسقلان، لتأمين طرق المواصلات الى مصر، فتسلم الرملة والخليل وبيت لحم، اجتمع باخيه الملك العادل، ونازلا عسقلان فى السادس عشر من جماد الاخر سنة ٥٨٣هـ/ الثالث والعشرين من اغسطس سنة ١١٨٧م. وقد أحضر صلاح الدين إلى عسقلان الملك جى دى لوزنيان ومقدم الداوية من دمشق، وعرض عليهما أن يطلق سراحهما مقابل تسليم عسقلان له، فوافقا، وراسلا الفرنج يأمرونهم بتسليم عسقلان، فرفضوا، وردوا عليهما رداً قبيحاً، فلما رأى صلاح الدين صعوبة ذلك، نصب المنجنيقات على عسقلان، واشتد فى قتالهم، فلما لم يجدوا فى أنفسهم القدرة على الاستمرار على القتال،راسلوا ملكهم جى دى لوزنيان لتسليمه عسقلان على شروط اشترطوها، فأجابهم صلاح الدين إليها،

وسلموا عسقلان فى التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٣هـ/الخامس من سبتمبر سنة ١١٨٧م. وخرج الفرنج إلى بيت المقدس ثم استولى صلاح الدين على بعض قلاع الداوية القريبة من عسقلان وهى غزة والنطرون (وهو حصن قرب الرملة بجنوب فلسطين) وبيت جبريل (وهى بلدة صغيرة بين غزة وبيت المقدس).

قرر صلاح الدين المسير إلى بيت المقدس، خاصة أن الأسطول المصرى بقيادة حسام الدين لؤلؤ قد وصل إلى عسقلان، كما وصل إليه ابنه العزيز عثمان من مصر. ونزل صلاح الدين على القدس يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ٥٨٣هـ/العشرون من سبتمبر سنة ١١٨٧م، وظل خمسة أيام يطوف حول أسوار القدس ليحدد موضعاً يهاجم المدينة منه ولا سيما أنها كانت فى غاية الحصانة، فلم يجد موضع قتال إلا من جهة الشمال، فانتقل إليها يوم الجمعة للعشرين من رجب سنة ٥٨٣هـ/الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١١٨٧م. ونصب عليها المجانيق، كما نصب الفرنج على أسوار القدس منجنيقات، فتقاتل الفريقان قتالا عنيفاً،ولكن لم يلبث أن اشتد الضيق بالصليبيين المحاصرين، واجتمعوا للتشاور، فاتفقوا على طلب الأمان وتسليم القدس لصلاح الدين، فأرسلوا جماعة من كبار رجالهم فى طلب الأمان، وتسليم القدس، فرفض صلاح الدين إجابتهم إلى ما طلبوا وقال لهم: «لا أفعل إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه من المسلمين سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى، وجزاءاً السيئة بمثلها». فلما رجع الرسل خائبين، أرسل ملكهم باليان بن بارزان إلى صلاح الدين يطلب الأمان لنفسه، ليحضر للقاء صلاح الدين، فأجيب إلى طلبه، وحضر، وسأل صلاح الدين الأمان، فلم يجبه إلى ذلك، فاستعطفه فلم يعطف عليه، واسترحمه فلم

يرحمه، فقال له: «أيها الملك. اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه، كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت، ويرغبون فى الحياة، فإذا رأينا الموت لابد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق ما نملكه من أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منا ديناراً ولا درهماً، ولا تأسرون رجلا ولا امرأة، فإذا فرغنا من ذلك كله أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى، وغيرها من المواضع الشريفة، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم، وقاتلنا قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت عزاء ونظفر كراماً». فاستشار صلاح الدين أصحابه، فاتفقوا على إجابتهم إلى الأمان على الشروط الآتية:

أن يدفع الفدية عن أنفسهم بواقع عشرة دنانير عن كل رجل، وخمسة للمرأة وديناراين للطفل. فمن دفع الفدية خلال أربعين يوماً سمح له بالخروج، ومن لم يستطع أصبح أسيراً.

وقد سلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣هـ/الثانى من أكتوبر سنة ١١٨٧م. وكان يوماً مشهوداً، ورفعت الأعلام الإسلامية على الأسوار. وقد أكرم صلاح الدين رجال الدين المسيحيين وسمح لبطريرك المدينة بالخروج معه كل أمواله وأموال الكنائس، وذخائرها، ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير، كما أكرم صلاح الدين ملكة بيت المقدس فسمح لها أن تصحب معها فى خروجها كل أموالها وخدمها. وكذلك فعل

مع زوجات كثير من أمراء الصليبيين ومن بينهم زوجة أرناط نفسه.

وقد أمر صلاح الدين بإصلاح ما خربه الفرنج من مباني القدس، وخاصة فيما يتعلق بالمسجد الأقصى، فقد أزال ما أحدثه الفرنج من البنيان بالمسجد، وتنظيفه وما حوله وبسط صحن الجامع بالبسط النفيسة، وعلق القناديل، كما أمر بأن يحمل إليه المنبر الذى كان قد أمر نور الدين محمود بصنعه ليضعه بنفسه فى المسجد الأقصى لأول مرة بعد أن ظلت معطلة ثمانية وثمانين عاماً يوم الرابع من شعبان سنة ٥٨٣هـ/التاسع من أكتوبر سنة ١١٨٧م وخطب الجمعة الفقيه محيى الدين بن زكى الدين.

رحل صلاح الدين من بيت المقدس فى الخامس والعشرين من شعبان ٥٨٢هـ/الثلاثين من أكتوبر سنة ١١٨٧م إلى صور بعد أن وردت عليه كتب الأمير سيف الدين علي بن أحمد بن المشطوب وكان نائباً للسلطنة بصيدا وبيروت يحرضه على حصار صور. وصل صلاح الدين إلى عكا بصحبة أخيه الملك العادل، فوصلاها أول رمضان سنة ٥٨٣هـ/الرابع من نوفمبر سنة ١١٨٧م، فأصلح صلاح الدين أحوالها، ثم رحل منها ونزل على صور يوم الجمعة التاسع من رمضان سنة ٥٨٣هـ/الثانى عشر من نوفمبر سنة ١١٨٧م وأقام معسكره على مقربة من أسوار صور، وكانت المدينة على درجة كبيرة من الحصانة، وظل صلاح الدين بمعسكره ثلاثة عشر يوماً حتى تلاحقت العساكر، وجاءته العدد والآلات ونصب المنجنيقات عليها. ثم نقل صلاح الدين معسكره إلى تل قريب يشرف على أسوار صور، ثم أخذ فى محاصرة المدينة، ووكل كل واحد من ملوك البيت الأيوبى بحصار جانب من جوانب المدينة ومنهم الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر فشددوا

الحصار والتضييق على المدينة، كما وصل إلى صلاح الدين ابنه الملك الظاهر غازى صاحب حلب.

استدعى صلاح الدين الأسطول المصرى من عكا، فجاء منه عشر شوانى، فصار القتال فى البر والبحر، وتمكن الفرنج من الاستيلاء على خمسة من شوانى المسلمين وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربى ومتوليه بدران الفارسى، فألقى بعضهم بنفسه فى مياه البحر، مما فت فى عضد المسلمين، فأمر صلاح الدين الشوانى الباقية أن تسير إلى بيروت. وقد كانت لهزيمة الأسطول المصرى أثرها فى رفع الروح المعنوية للفرنج. فخرجوا من صور يوماً بعد العصر، فالتقاهم المسلمون، فكانت الدائرة على الفرنج وأسر مقدم كبير لهم كان المسلمون يظنون أنه كونراد دى منتفرات، فضربوا عنقه، ثم ثبت لهم أنه ليس كونراد.

ولما طال الحصار على صور، أصاب اليأس أمراء المسلمين، لأنهم رأوا ما لم يألفوه من تعسر الفتح عليهم، فأشاروا على صلاح الدين بالرحيل لئلا تفنى الرجال وتقل الأموال، ولا سيما أن الشتاء قد دخل واشتد البرد، وكان من رأى صلاح الدين وجماعة من أتقياء أمرائه كالفقيه ضياء الدين عيسى، وحسام الدين طمان، وعزالدين جورديك النورى الثبات إلى فتح صور لئلا يضيع ما بذل من جهد وما أنفق من أموال، وقال صلاح الدين : «إن السور قد تهدم، وقاربت الأمور النجاز، فاصبروا ولا تعجلوا تفلحوا» . فأظهروا الموافقة على مضض، ولم يبذلوا أى جهد فى القتال، وتعللوا بكثرة الجراح وقلة الإمدادات، فلم يسع صلاح الدين إلا الرحيل، فأمر بنقل الأثقال، فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت، وأحرق الباقى لئلا يناله الفرنج، وكان رحيل صلاح الدين فى آخر شوال سنة ٥٨٣هـ/الأول من يناير ١١٨٨م واتجه إلى

عكا.

أمر صلاح الدين الأمير سيف الدين محمود بحصار حصن كوكب الحصين، فأقام على حصارها إلى أواخر شوال، إلا أن الفرنج فاجأوه وقتلوه، فرتب على حصار كوكب الأمير صارم الدين قايماز النجمى. وأقام صلاح الدين بعكا إلى نهاية عام ٥٨٣هـ وولى عليها الأمير عز الدين جورديك. وفى أوائل عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م، خرج صلاح الدين من عكا، لحصار حصن كوكب، ولكنه لم يتمكن من فتحها لمنعتها وحصانتها، فتركها ووكل بها الأمير صارم الدين قايماز النجمى فى خمسمائة فارس، كما وكل بصفد الأمير طغرل الجاندار فى خمسمائة فارس، ووجه إلى الكرك والشوبك الأمير سعد الدين كمشبة الأسدى. ثم رحل صلاح الدين إلى دمشق فوصلها فى السادس من ربيع الأول سنة ٥٨٤هـ/الخامس من مايو ١١٨٨م، فكتب إلى مختلف الأرجاء لاستدعاء الجند للجهاد.

مكث صلاح الدين بدمشق خمسة أيام ثم خرج إلى بعلبك ومنها إلى بحيرة قدس من أعمال حمص، فأقام بها إلى أواخر ربيع الأول ٥٨٤هـ/مايو ١١٨٨م، ثم رحل وخيم على تل قباله حصن الأكراد، فشن الغارات عليه وعلى مختلف حصون الفرنج فى هذه المنطقة. وبعدها اتجه إلى جبلة وتسلمها يوم السبت التاسع عشر من جمادى الأولى ٥٨٤هـ/١٦يوليو ١١٨٨م وسلمها إلى الأمير سابق الدين عثمان بن الداية. ثم رحل إلى اللاذقية وحاصرها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى ٥٨٤هـ/٢١يوليو ١١٨٨م، واشتد القتال عليها إلى أن اضطروا إلى طلب الأمان، ودخلها صلاح الدين يوم الأحد السابع والعشرين من حمادى الأولى ٥٨٤هـ/الرابع

والعشرين من يوليو ١١٨٨م. ورحل صلاح الدين من اللاذقية قاصداً حصن صهيون، وحاصرها يوم الأربعاء الثلاثين من جمادى الأولى سنة ٥٨٤هـ/السابع والعشرين من يوليو ١١٨٨م ونصب عليها المنجنيقات ـ وكانت على درجة كبيرة من الحصانة، ونجح في دخولها يوم الجمعة الثاني من جمادى الأخرة سنة ٥٨٤هـ/التاسع والعشرين من يوليو سنة ١١٨٨م. وسلمها بجميع أموالها وسائر ما فيها من ذخائر إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين. كما افتتح صلاح الدين بعض القلاع والحصون الهامة كقلعة الشغر وقلعة بكاس وقلعة سرمانية وحصن رزية وقلعة دربساك وقلعة بغراس.

ولما افتتح صلاح الدين بغراس أرسل إليه الا برنس (الأمير بوهمند الثالث) صاحب أنطاكية يسأله الصلح، فأجابه بالموافقة على شرط أن يطلق الأبرنس سراح ما عنده من أسرى المسلمين وكانوا نحو ألف أسير، وتم عقد هدنة بين الطرفين مدتها ثمانية أشهر. ثم سار صلاح الدين إلى حلب ومنها إلى معرة النعمان ثم حماة، فحمص، وأخيراً وصل إلى دمشق، فأشار عليه بعض قواده بإراحة جنده، غير أنه رفض قائلا: «إن القدر غير مأمون، والعمر لايعلم كم بقي منه، وللفرص أوقات تنتهز، وقد بقيت مع الكفر هذه الحصون ولابد من المبادرة إلى أخذها، لاسيما صفد وكوكب، فإنهما للداوية والاسبتارية في وسط البلاد، فنخرج ونشتو عندهما لنفتحهما».

ظل الأمير سعد الدين كمشبا الأسدي محاصراً للكرك، حتى اضطر الفرنج إلى أكل دوابهم، وراسلوا الملك العادل أبي بكر وكان مقيماً بتبنين، يعرضون عليه تسليم الكرك مقابل الحصول على الأمان، فوافق الملك العادل وتسلم سعد الدين كمشبا الأسدي الكرك كما تسلم أيضاً بعض الحصون

القريبة منها كالشوبك وهرمز والوعر والسلع فى رمضان سنة ٥٨٤هـ/أكتوبر سنة ١١٨٨م. ثم سار صلاح الدين من دمشق فى منتصف رمضان سنة ٥٨٤هـ/نوفمبر سنة ١١٨٨م إلى قلعة صفد، فحاصرها ونصب عليها المنجنيقات،واستمر فى رميها ليلا ونهاراً بالحجارة والسهام، فلما أشرف أهلها على الهلاك، طلبوا الأمان، فأمنهم صلاح الدين وتسلمها منهم، وخرجوا إلى صور. وذلك فى الرابع عشر من شوال سنة ٥٨٤هـ/السادس من ديسمبر سنة ١١٨٨م. ثم سار صلاح الدين من صفد إلى كوكب، وشدد حصاره لها، وعانى الجند معاناة شديدة لبرودة الجو وهطول الأمطار، واضطر أهلها أخيراً إلى طلب الأمان وتسليم القلعة لصلاح الدين فى منتصف ذى القعدة سنة ٥٨٤هـ/الخامس من يناير سنة ١١٨٩م، فتولاها صارم الدين قايماز النجمى.

رحل صلاح الدين فى مستهل ذى الحجة سنة ٥٨٤هـ/يناير سنة ١١٨٩م بصحبة أخيه الملك العادل، فوصل إلى القدس يوم الجمعة الثامن من ذى الحجة سنة ٥٨٤هـ/الثامن والعشرين من يناير سنة ١١٨٩م وقضى بها عيد الأضحى، ثم سار إلى عسقلان للنظر فى أحوالها ومنها إلى عكا للإشراف على إتمام عمارتها وولى عليها حسام الدين بشارة ومن عكا سار إلى دمشق، فدخلها فى مستهل شهر صفر سنة ٥٨٥هـ/مارس سنة ١١٨٩م.

وفى يوم الجمعة الثالث من ربيع الأولى سنة ٥٨٥هـ/الحادى والعشرين من أبريل سنة ١١٨٩م، خرج صلاح الدين إلى بانياس ومنها إلى مرج عيون، فخيم به، وكان على مقربة من شقيف أرنون. فخرج أرناط صاحب

الحملة الصليبية الثالثة

كان لسقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين صدى قوى فى أوروبا، إذ لبس الرهبان والقساوسة السواد، وأظهروا الحزن وأخذهم بطريك بيت المقدس وطاف بهم مدن أوروبا، يستنجدون بأهلها، ويحثونهم على استرجاع بيت المقدس، وقد صوروا السيد المسيح عليه السلام وجعلوا معه صورة رجل عربى يضربه بعصا وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح، وقالوا هذا المسيح يضربه محمد نبىٌ المسلمين وقد جرحه وقتله، فعظم ذلك على الفرنج، فحشدوا حشودهم حتى النساء خرجن للقتال، ومن لم يستطع الخروج استأجر من خرج عوضًا عنه، أو يعطيهم مالا على قدر طاقته ولما عظمت جموعهم صمموا على قصد عكا ومحاصرتها. وهكذا انتهى الأمر بإرسال حملة صليبية جديدة هي الحملة المعروفة بالحملة الثالثة. وكان يقودها ثلاثة من كبار ملوك أوروبا فى ذلك الوقت وهم فريدريك بربروسا إمبراطور الدولة الرومانية، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أوجست ملك فرنسا.

خرجت جيوش الصليبيين من مدينة صور بقيادة الملك جى والمركيس كنراد، لحصار مدينة عكا،وأتم الحصار من ناحية البحر أسطول الفرنج، فكان يمدهم بالإمدادات ويمنع وصولها إلى المسلمين المحاصرين داخل عكا. فلما علم صلاح الدين، وكان على حصار شقيف أرنون، رحل إلى عكا، ونزل بمرج عكا، وصار محاصراً للفرنج، والفرنج محاصرين لعكا.

استمرت الإمدادات الإسلامية تصل إلى صلاح الدين، فوصل من حماة الملك المظفر تقى الدين عمر، ومن الشرق مظفر الدين بن زين الدين علي كوچك، وقرر صلاح الدين قتال الفرنج فى أول شعبان سنة ٥٨٥هـ/

الرابع عشر من سبتمبر سنة ١١٨٩م لإيصال الإمدادات إلى أهل عكا، ونجح صلاح الدين فى دخول عكا فى الثانى من شعبان ٥٨٥هـ/ الخامس عشر من سبتمبر سنة ١١٨٩م واستمرت المعارك العنيفة بين الفريقين، انتصر المسلمون، فى نهايتها وعقد صلاح الدين مجلساً من قواده للتشاور وكان من رأيه أن يتابع القتال، حتى لا يترك للفرنج الفرصة لاستعادة قواهم، ولكن أمراء وقواد صلاح الدين، رفضوا الموافقة على رأيه، لرغبتهم فى الحصول على القليل من الراحة بعد قتال استمر ما يقرب من خمسين يومًا، فاضطر صلاح الدين للنزول على رأيهم، وانسحب بقواته إلى الخروبة (وهى حصن بساحل الشام مشرفاً على عكا). فانتهز الفرنج الفرصة واستعادوا قواهم، وحفروا خندقًا على معسكرهم حول عكا من البحر إلى البحر، وأداروا حوله سوراً مستوراً بالستائر (والستارة حائط خارجى مبنى من الحجر أو الخشب يحتمى وراءه المدافعون عن الحصن أو السور). كما منعوا وصول الإمدادات إلى المسلمين داخل عكا.

وفى منتصف شوال عام ٥٨٥هـ/السادس والعشرين من نوفمبر ١١٨٩م قدم الملك العادل أخى صلاح الدين بعساكره من مصر، كذلك قدم الأسطول الأيوبى من مصر فى نحو خمسين قطعة بحرية بقيادة مقدم الأسطول حسام الدين لؤلؤ فى منتصف ذى القعدة سنة ٥٨٥هـ/الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ١١٨٩م فبدد الأسطول الأيوبى شمل مراكب الفرنج، وسحقها، وظفر المسلمون ببطستين (والبطسة سفينة حربية ضخمة) كبيرتين من بطس الفرنج، بما فيها من الرجال والأموال والغلال. مما كان له أثره البالغ فى رفع الروح المعنوية لجند المسلمين داخل عكا والبالغ عددهم عشرة آلاف رجل.

واصل صلاح الدين إرسال كتبه إلى جميع الأقطار الإسلامية يستدعى الناس للجهاد، ويحثهم عليه، فأرسل إلى أخيه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب اليمن، يطلب منه الإعانة بالمال، وإلى مظفر الدين قز أرسلان صاحب العجم (ملك أذربيجان)، كما كتب إلى الخليفة الناصر لدين الله العباسى، وفى نفس الوقت استمر وصول الإمداد إلى الفرنج، كما وردت الأخبار إلى صلاح الدين من حلب بخروج الإمبراطور فريدريك بربروسا من القسطنطينية فى عدة عظيمة قيل أنهم مائتا ألف، وقيل مائتا وستون ألفًا، يريد البلاد الإسلامية، فاشتد الأمر على صلاح الدين ومن معه من المسلمين.

مع مطلع الربيع من عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م، بدأ صلاح الدين يعد العدة لاستئناف القتال، فاستدعى الجيوش من كل أطراف الدولة، فوصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص وسابق الدين عثمان صاحب شيذر، وعز الدين إبراهيم بن المقدم صاحب بعرين وفامية وكفرطاب، ووصل بصحبتهم جموع ضخمة من التركمان والعرب، فلما تكاثرت العساكر الإسلامية، رحل صلاح الدين من الخروبة فى الثامن عشر من ربيع الأول ٥٨٦هـ/٢٥ أبريل سنة ١١٩٠م إلى تل كيسان (وهو موضع فى مرج عكا من سواحل الشام)، وتتابع مجىء العساكر الإسلامية، فوصل الملك الظاهر صاحب حلب، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقى صاحب دارا، وعماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار، ومعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود صاحب الجزيرة، وعلاء الدين خرمشاه (ابن عز الدين مسعود صاحب الموصل) نائبًا عن أبيه، كذلك وصل زين الدين يوسف بن زين الدين كوجك صاحب أربل. كما وصل الشريف فخر الدين

رسول الخليفة الناصر لدين الله العباسى فى السادس عشر من ربيع الأول ٥٨٦هـ/ ٢٣ أبريل سنة ١١٩٠م ومعه حملان من النفط، وتوقيع بعشرين ألف دينار تقرض من بعض التجار على ديوان الخليفة العباسى، وخمسة من الزراقين المتقنين صناعة الإحراق بالنار، فشكر صلاح الدين الخليفة على هديته، وقال له «كل ما معى من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد للجهاد، لكانت محمولة إلى الديوان».

وفى أثناء تلك الاستعدادات الإسلامية، قام الفرنج ببناء ثلاثة أبراج ضخمة بارتفاع أسوار عكا، واستغرق العمل فيها سبعة أشهر، ونصبت فى ثلاثة مواضع من أسوار عكا، بعد أن امتلأت بالعدد والعدة، وكسوها بجلود البقر وسقوها بالخل والخمر حتى لا تؤثر فيها نيران المسلمين وكانوا يقربونها كل يوم من أسوار عكا ليكتشفوا نقاط القوة والضعف فى تحصيناتها. واشتد خوف المسلمين من هذه الأبراج، فإن كل واحد منها كان يحمل ما يزيد على خمسمائة فارس، ويتسع سطحه لأن ينصب عليه منجنيق، وفشلت كل محاولات الزراقين والنفاطين لإحراقها، وفى أثناء ذلك تقدم إلى صلاح الدين شاب من أهل دمشق يقال له علي ابن عريف النحاسين، فوعده بصناعة سائل لحرق هذه الأبراج، ومكنه صلاح الدين من دخول عكا بعد أن زوده بكل ما احتاج إليه لصناعة هذا السائل، ونجح عليٌّ فى استخدام هذا السائل فى إحراق أبراج الفرنج الضخمة، كما وصل فى ذلك الوقت الأسطول الأيوبى الذى جرت بينه وبين مراكب الفرنج عدة معارك، قُتِلَ فيها كثيرٌ من الفرنج.

وصل الإمبراطور فريدريك بربروسا ـ كما سبق أن ذكرنا ـ إلى

القسطنطينية، ولكن الإمبراطور البيزنطي لم يرحب بمقدم هذا الإمبراطور ومعه جيشه الصليبي، بل لقد كان يخشى جنود فريدريك الذين نهبوا بلاده وخربوها أثناء مرورهم بها، ولم تكن الثقة متبادلة بين الإمبراطورين، وخير شاهد على هذا أن إمبراطور بيزنطة أرسل في ذلك الوقت خطاباً ودياً إلى صلاح الدين يعلن فيه صداقته، ويعلن فيه كرهه للألمان ويوعده بأنه لن يمكن الألمان من عبور بلاده إلى بلاد الإسلام. ولكن عندما فشل الإمبراطور البيزنطي في منعهم من المرور عبر بلاده، لم يزودهم بالعتاد، فضاقت عليهم الأقوات وقلت، ثم عبروا خليج القسطنطينية، وقد اشتدت ضائقتهم، وكثرت جموعهم وجوعهم، ولما دخلوا بلاد الإسلام، سلكوا طريقهم في الأودية فخطفتهم التركمان، ثم دخل الشتاء، فتراكمت عليهم الثلوج، فاضطروا إلى أكل دوابهم، وأحرقوا عددهم لقلة الحطب لديهم. وكانوا جاهلين لطرق البلاد الإسلامية ومسالكها، لا يقطعون فرسخاً إلا في يومين، وصاروا في كل يوم في نقص من أنفسهم ودوابهم، كذلك دفنوا من عددهم ما عجزوا عن نقله، ولما اقتربوا من بلاد الملك عز الدين قلج بن أرسلان السلجوقي، خرج إليهم ابنه قطب الدين ملكشاه، فألحقوا به الهزيمة، وفر إلى مدينة قونية، فلحقوا به وهاجموها، وأحرقوا أسوارها، وأرسلوا إلى قلج أرسلان. إنا لم نصل لأخذ بلادك، وإنما نزلنا لثأر البيت وأنفذوا إليه بهداياهم، وطلبوا الهدنة منه، فهادنهم، فبقوا في بلاده مدة، وتقووا بعد ذلك بما أرادوه من بلاده من العدة والأزواد. وبعث قلج أرسلان وابنه قطب الدين ملكشاه إلى صلاح الدين يعتذران من تمكينهم لفريدريك بربروسا من العبور في بلادهم لأنهم اضطروا إلى ذلك اضطراراً.

واصل فريدريك بربروسا سيره حتى وصل إلى بلاد الأرمن، فدخل

مقدمهم فى خدمة فريدريك، وزودهم بكل ما احتاج إليه الجيش الألمانى، وجعل من نفسه دليلا لهم، فنزلوا بطرسوس، وأقاموا بها أيامًا للراحة، ولكن فريدريك لم يلبث أن لقى حتفه أثناء سباحته فى نهر طرسوس وقام بالملك من بعده ابنه، فسار بعساكر أبيه إلى أنطاكية.

ولما وصلت إلى أسماع صلاح الدين وصول الألمان إلى بلاد الأرمن واقترابهم من بلاد الشام، عقد اجتماعًا للتشاور مع كبار قواده، فتم الاتفاق على إرسال جزء من جيشه إلى شمال الشام لمنع الألمان من التقدم جنوبًا على أن يبقى صلاح الدين مع الجزء الأكبر من الجيش منازلا الفرنج أمام عكا، كما أمر صلاح الدين بتخريب أسوار طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل ونقل أهلها جميعًا إلى بيروت.

انتهز الفرنج تفرق عساكر المسلمين، وضعف ميمنة المسلمين بصفة خاصة لكثرة من سار منها شمالا لمنع الألمان من التوغل جنوبًا، واتفقت كلمتهم على الخروج من معسكرهم بغتة والهجوم على ميمنة المسلمين، وكان يتولى قيادتها الملك العادل أبو بكر أخى صلاح الدين، وقامت معركة عنيفة بين المسلمين والفرنج عرفت بمعركة العادلية يوم الأربعاء العشرين من جمادى الأخرة ٥٨٦هـ/٢٥ يوليو سنة ١١٩٠م وكتب النصر فيها للمسلمين، ولما شاهد المسلمون بعكا من فوق الأسوار ما حدث لجيش الفرنج، فتحوا أبواب مدينتهم، وهاجموا خيام الفرنج ونهبوا ما فيها وقد اختلفت الروايات حول عدد القتلى من الفرنج فأقل الروايات يجعلها خمسة آلاف قتيل، وأكثرها يجعلها عشرة آلاف قتيل، وقد أثرت هذه الهزيمة فى الروح المعنوية للفرنج، ولكنهم سرعان ما استعادوا قوتهم بعد أن وصلتهم قوة جديدة من أوروبا بقيادة الكندهرى (هنرى دى شمبانى)، فاضطر صلاح

الدين إلى الانسحاب إلى الخروبة ونصب الكندهرى على أسوار عكا عدة منجنيقات فأحرقها المسلمون، وقتل من الفرنج سبعون فارساً، وأسر عدد من مشاهير قوادهم ثم نصب منجنيقين آخرين ولكنهما أحرقا أيضاً.

سار ابن فريدريك بربروسا في الخامس والعشرين من رجب سنة ٥٨٦هـ/الثامن والعشرين من أغسطس ١١٩٠م من أنطاكية طالبًا عكا في جيوشه، على طريق اللاذقية حتى وصل إلى طرابلس، فخرج المركيس صاحب صور لتلقيه وإرشاده على الطريق الصحيح إلى عكا، ومن طرابلس ركب ابن فريدريك البحر إلى عكا، فوصلها في السادس من رمضان ٥٨٦هـ/٧ أكتوبر سنة ١١٩٠م في عدد قليل من قواته، ولكنه لم يلبث أن لقى حتفه في الثاني عشر من ذى الحجة سنة ٥٨٦هـ/العاشر من يناير سنة ١١٩١م أثناء قتاله ضد المسلمين.

ظلت الحرب قائمة أمام أسوار عكا بين المسلمين والفرنج، وقد لجأ صلاح الدين إلى كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة من أجل إيصال الإمدادات إلى أهل عكا، ولكن مع بداية الربيع من عام ٥٨٧هـ/١١٩١م، بدأت المدينة تضعف أمام هذا الحصار الطويل، كما ارتفعت الروح المعنوية للفرنج بوصول ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أوجست ملك فرنسا، وقد حاول صلاح الدين أن يرسل مدداً أو مؤونة جديدة إلى عكا، ولكن أساطيل الفرنج كان لها التفوق في البحر، فعجزت السفن الإسلامية عن دخول ميناء عكا، بل إن ربابنتها أمروا بتحطيمها، فحطمت، وغرقت بما فيها من المسلمين وفى نهاية الأمر لم يستطع أمير عكا بهاء الدين قراقوش الصمود، وأجرى المفاوضات مع الفرنج لتسليمها، على الشروط الآتية:

١ ـ أن تسلم المدينة للفرنج بما فيها من الآلات والعدد والأسلحة.
٢ ـ أن تدفع مائتى ألف دينار فدية لمن بها من أسرى المسلمين.
٣ ـ أن يطلق سراح ألف وخمسمائة فارس من مجاهيل الأسرى الفرنج ومائة معينين بالاسم.
٤ ـ أن يرد الفرنج صليب الصلبوت.
٥ ـ أن يخرج جميع من فى المدينة من المسلمين سالمين.

وسلمت عكا يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأخرة سنة ٥٨٧هـ/الثانى عشر من يوليو ١١٩١م.

الموقف بعد تسليم عكا:

لم يفِ الفرنج بوعودهم، ولم ينفذوا شروط الصلح، وبدأ الخلاف بين الطرفين، فالفرنج لا يريدون تسليم الأسرى المسلمين إلا بعد أخذ الفدية كلها، والمسلمون لا يريدون دفع الفدية إلا إذا تأكدوا من إطلاق سراح الأسرى وعرضوا أن يدفعوا نصف الفدية بشرط أن يضمن رؤساء الداوية إطلاق سراح الأسرى عند دفع النصف الثانى، ولكن رؤساء الداوية رفضوا إعطاء هذا الضمان.، وأصرَّ الفرنج على أخذ الفدية كلها مقدمًا. فتوقف صلاح الدين عن دفع المال، فلما كان يوم السابع والعشرين من رجب ٥٨٧هـ/العشرون من أغسطس ١١٩١م خرج ريتشارد قلب الأسد من عكا، وأحضر أسرى المسلمين، وأمر بقتلهم، ولم يبق فى أسراه غير الأمراء والقواد.

ولما استهل شهر شعبان ٥٨٧هـ/أغسطس سنة ١١٩١م سار الفرنج إلى عسقلان، ورحل صلاح الدين فى أثرهم، والتقى الفريقان عند أرسوف يوم السبت الرابع عشر من شعبان ٥٨٧هـ/السادس من سبتمبر ١١٩١م وانهزم

فيها المسلمون هزيمة عنيفة. ثم رحل صلاح الدين فى التاسع عشر من شعبان ٥٨٧هـ/٢١ سبتمبر ١١٩١م ونزل بالرملة، ورحل منها ليلا إلى عسقلان، حيث أحضر أخاه العادل وكبار الأمراء وشاورهم فى تخريب عسقلان. فأشار عليه الأمير علم الدين سليمان جندر بتخريبها لعجزهم عن الدفاع عنها، ووافق الأمراء والقواد على رأى الأمير علم الدين، فحزن صلاح الدين على تخريبها حزناً عظيماً، ويروى القاضى بهاء الدين بن شداد عن صلاح الدين قوله بعد أن اضطر إلى الموافقة على تخريب عسقلان: «والله لئن أفقد أولادى بأسرهم أحب إلىّ من أن أهدم منها حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله تعالى بذلك وعرفته بحفظ مصلحة المسلمين طريقًا، فكيف أمتنع ؟» ثم رحل صلاح الدين عن عسقلان بعد خرابها يوم الثلاثاء الثانى من رمضان ٥٨٧هـ/٢٣ سبتمبر سنة ١١٩١م ومنها إلى الرملة فوصلها يوم الأربعاء الثالث من رمضان ٥٨٧هـ/٢٤ سبتمبر سنة ١١٩١م فأمر بتخريب حصنها، وهدم كنيسة لد (وهى قرية صغيرة قرب بيت المقدس)، كما سير فرقة من العسكر الخيالة إلى بيت المقدس، وأمر أيضاً بتقوية أسوارها وحفر الخندق حولها.

وفى أثناء ذلك راسل ريتشارد قلب الأسد الملك العادل أخى صلاح الدين راغبًا فى المصالحة وعقد السلم، وزعم أن له أختا عزيزة عليه، وأنها كانت زوجة لملك صقلية الذى توفى وتركها وحيدة، وعرض الملك ريتشارد أن يزوجها من الملك العادل على أن يجعل للعادل الحكم على كل مدن الساحل على أن تستقر أخته فى بيت المقدس بصحبة الرهبان والقسيسين. فرأى الملك العادل أن هذا الزواج سيعود بالخير على المسلمين، وأقنع أخاه صلاح الدين بذلك، وأرسل إلى ريتشارد بالموافقة، إلا أن رجال الدين من

. مرنج، تتمكنوا من التأثير على أخت ريتشارد وأعلموها أن هذا الزواج مخالف للشريعة المسيحية وفيه عصيان وإغضاب للمسيح عليه السلام، فاعتذرت عن هذا الزواج، كما اضطر ريتشارد إلى أن يراسل الملك العادل يبلغه باعتذار أخته، إلا إذا اعتنق الملك العادل المسيحية. ففشلت محاولات هذا الزواج.

كما وصل إلى صلاح الدين رسول المركيس كنراد دى مونتفرات صاحب صور عارضًا الصلح على صلاح الدين على أن تكون له صيدا وبيروت.» كما اشترط على نفسه مجاهرة الفرنج بالعداوة، وأن يقصد عكا ويحاصرها ويسلمها للمسلمين، وأن يطلق سراح من بعكا وصور من أسرى المسلمين، فأجابه صلاح الدين بالموافقة، فلما علم ريتشارد بذلك، عاد إلى عكا لإفساد الاتفاق بين صلاح الدين والمركيس، كما اضطر ريتشارد إلى استرضاء المركيس حتى لا يعاود اتصالاته مع صلاح الدين.

ثم راسل ريتشارد صلاح الدين، وعرض الصلح على هذه الشروط: الاستيلاء على بيت المقدس، ورد صليب الصلبوت، وأخذ البلاد الواقعة بين نهر الأردن والساحل، فرفض صلاح الدين ورد عليه قائلا: «القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا، ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، أما البلاد فهى لنا فى الأصل، واستيلاؤهم كان طارئًا عليها لضعف من كان بها من المسلمين فى ذلك الوقت. وأما الصليب فهو عندنا قربة عظيمة، ولا يجوز لنا أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هى أوفى منها». ورغم فشل هذه المفاوضات من أجل الصلح، إلا أنه من الملاحظ أنه نشأ نوعٌ من الود بين الملك العادل أخى صلاح الدين وريتشارد، فقد اجتمعا فى الثامن عشر من شوال ٥٨٧هـ/الثامن من نوفمبر سنة ١١٩١م على طعام

ومحادثات، فطلب ريتشارد أن يجتمع بصلاح الدين، فرفض العادل وقال: «الملوك إذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك، وإذا انتظم أمر حسن الاجتماع».

وفى أثناء ذلك قتل المركيس كنراد دى مونتفرات صاحب صور على أيدى رجلان من الباطنية، كانا قد دخلا صور، وتنصرا، وأظهرا الترهب، وأحبهما المركيس، وقربهما إليه، إلى أن تمكنا منه وقتلاه، وتولى الحكم فى صور الكندهرى، وتزوج زوجة المركيس، وهذا الكندهرى ابن أخت ملك فرنسا فيليب أوجست من أبيه، وابن أخت ريتشارد ملك انجلترا من أمه.

وفى التاسع من جمادى الأخرة سنة ٥٨٨هـ/٢٢ يونيو ١١٩٢م استولى الفرنج على قلعة الداروم، ثم خربوها، ورحلوا عنها، وأسروا من أهلها خمسمائة رجل. وقرر ريتشارد المسير إلى بيت المقدس، فرتب جماعة من جنده فى اللد لمنع وصول الإمدادات إلى بيت المقدس، كما أرسل الكندهرى إلى صور وطرابلس وعكا لاستحضار من فيها من المقاتلة، فلما علم صلاح الدين بذلك قسم أسوار القدس على الأمراء، وأمرهم باالاستعداد لمواجهة الحصار، وأفسد المياه خارج القدس. وأخذ الفرنج يستعدون للمسير إلى القدس، ولكن لم يلبث أن حدث خلاف بينهم، انتهى برجوعهم إلى الرملة.

تجددت المفاوضات للصلح، وأرسل ريتشارد إلى صلاح الدين قائلا:«قد أهلكنا نحن وأنتم، والأصلح أن نحقن الدماء، ولا ينبغى أن تعتقد أن ذلك عن ضعف منى، بل أريد المصلحة، ولا تغتر بتأخرى عن منزلى، فالكبش يتأخر لينطح، ثم لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم، ولا يجوز لى أن أهلك الفرنج كلهم.، وهذا ابن أختى الكندهرى قد ملكته هذه الديار، وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا

وأطاعوا، وإن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنايس فما بخلت عليهم بها، وأنا أطلب منك كنيسة، وتلك الأمور التى كانت تضيق صدرك في المراسلة لما كانت المراسلة تجرى مع الملك العادل قلت بتركها، وأعرضت عنها، ولو أعطيتنى قرية أو مزرعة قبلتها وقبلتها». فاستشار صلاح الدين الأمراء والقواد، فوافقوه على الصلح مع ريتشارد وكتب صلاح الدين إليه : «إنك إذا دخلت معنا فى هذا الأمر، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان وابن أختك يكون عندى كبعض أولادى، وسيبلغك ما أفعل فى حقه من الخير وأنا أعطيك أكبر من الكنائس وهى القيامة، وبقية البلاد نقسمها، الساحلية التى بيدك تكون بيدك، والتى بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا، وما بين العملين تكون مناصفة، وعسقلان وما وراءها يكون خراباً لا لنا ولا لكم، وإن أردتم قراها كانت لكم، والذى كنت أكرهه حديث عسقلان». واستمرت المشاورات والمفاوضات بين الطرفين، تخللها موقعة عند يافا، فقد حاصرها صلاح الدين وأخذها، وكان ريتشارد فى طريقه إلى بيروت، فلما سمع بسقوطها عاد إليها واستردها، بينما اتجه صلاح الدين إلى الرملة. وفى أثناء ذلك مرض ريتشارد، واشتد به المرض، وأرسل إلى صلاح الدين يطلب فاكهة وثلجاً، فكان صلاح الدين يمده بهما.

وأخيراً عقد الصلح في يوم الأربعاء ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/الثالث من سبتمبر سنة ١١٩٢م. وهو المعروف بصلح الرملة، وحلف عليه كل أمراء المسلمين وأمراء وقواد الفرنج. وكانت أهم شروطه:

- يحتفظ الفرنج بمنطقة الساحل من عكا إلى يافا.
- تكون عسقلان ـ بعد تخريبها ـ وما يليها جنوباً بيد صلاح الدين.
- يسمح للحجاج المسيحيين بزيارة بيت المقدس.
- عقد هدنة بين الطرفين مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر.

رحل ريتشارد والكندهرى وسائر القواد الفرنج إلى عكا، بينما سار صلاح الدين إلى القدس فى الرابع من رمضان سنة ٥٨٨هـ/الثالث عشر من سبتمبر سنة ١١٩٢م لتفقد أحوالها، وتشييد أسوارها وتحصيناتها وتعمير خنادقها ثم رحل السلطان من القدس فى الخامس من شوال عام ٥٨٨هـ/الرابع عشر من أكتوبر سنة ١١٩٢م فوصل إلى نابلس ومنها إلى بيسان ثم واصل سيره إلى دمشق فوصلها يوم ا لأربعاء الخامس والعشرين من شوال ٥٨٨هـ/٣نوفمبر سنة ١١٩٢م ولكنه لم يلبث أن مرض بالحمى يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٥هـ/الرابع من مارس سنة ١١٩٣م.

الدولـــة الأيـــوبية
عقب وفاة صلاح الدين

لما توفى صلاح الدين الأيوبى تولى السلطنة الأيوبية ابنه الملك الأفضل نور الدين علي واستقر بدمشق، بينما توزعت أقاليم الدولة الأيوبية على أفراد الأسرة الأيوبية على النحو التالى:

ـ فى مصر الملك العزيز عماد الدين عثمان.

ـ فى حلب الملك غياث الدين غازى.

ـ فى اليمن الملك العزيز سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب.

ـ وفى الكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبوبكر بن أيوب.

ـ وفى حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الدين المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين.

ـ وفى حمص والرحبة وتدمر الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه.

ـ وفى بعلبك وأعمالها الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب.

ـ وفى بصرى الملك الظافر خضر بن صلاح الدين بن أيوب، وكان فى خدمة أخيه الملك الأفضل أى تابعاً له.

ـ وفى شيزر وأبو قبيس الأمير سابق الدين عثمان بن الداية.

ـ وفى صهيون وحصن بزرية الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين.

ـ وفى تل باشر الأمير بدرالدين سلدرم بن بهاء الدين ياروق.

ـ وفى كوكب وعجلون الأمير عز الدين أسامة.

ـ وفي بعرين وكفر طاب وحصن أفاميه الأمير عز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم.

استوزر الملك الأفضل نور الدين علي، ضياء الدين نصر الدين بن محمد بن الأثير، وفوض إليه كل أمور السلطنة، وكان ضياء الدين شاباً، فحسن للأفضل أبعاد أمراء أبيه وكبار قواده، وأن يستجد له أمراء وقواداً غيرهم، وقال له: «هؤلاء خواص السلطان وينظرون إليك بتلك العين، ويعتقدون أن حقهم واجب وجوب الدين، وهم ـ بحكم المعرفة لك من الصغر ـ يتبسطون ويشتطون ولا يقنعون، وأعمال دمشق لا تسعهم وجميعها لا تقنعهم، والأعمال المصرية لهم أفسح وأوسع، وأما الغرباء، فإنهم يقنعون بأى شيء أعطيتهم ويعترفون بحقك ويعظمونك». وساعده على هذا القول جماعة من أصحابه ممن لا رأى عنده ولا معرفة، فأصغى الملك الأفضل إلى هذا القول، وأعرض عن أصحاب أبيه، ففارقه جماعة منهم الأمير فخر الدين جهاركس، والأمير فارس الدين ميمون القصرى، والأمير شمس الدين سنقر الكبير، فصاروا إلى الملك العزيز عثمان بالقاهرة، فأكرمهم، وأحسن إليهم، وولى فخر الدين جهاركس استاداره، وفوض إلى فارس الدين وشمس الدين صيدا وأعمالها، وكان ذلك لهما، فأقرهما عليه، وزادهما أعمال نابلس وبلادها. كما سار إلى مصر القاضى الفاضل بهاء الدين بن شداد، فخرج الملك العزيز عثمان لاستقباله، وأعظمه وأكرمه، وأحله محل الوالد، وصار لا يصدر أمراً إلا عن رأيه ومشورته، كما استمال الملك العزيز عثمان أصحاب والده وأمراءه ومماليكه وأحسن إليهم، وقربهم، فعظم بذلك شأنه، واجتمعت كلمتهم على نصرته، وتقرير قواعد ملكه، بينما كان الملك الأفضل يفعل ضد ذلك بأصحاب أبيه ويقدم عليهم من استجده ممن لا يعتمد عليهم.

أخذ أمرآء الدولة الأيوبية وكبار قوادها الذين أتوا إلى مصر يوقعون بين الملك العزيز عثمان وأخيه الملك الأفضل نور الدين، وحسّنوا للملك العزيز الاستبداد بالملك والقيام بالسلطنة بدلا من أخيه، فلما أحسّ الوزير ضياء الدين بن الأثير بما يجرى فى القاهرة، أشار إلى الملك الأفضل أن يسترضى أخيه الملك العزيز عثمان بمنحه مدينة القدس، رغم أن القدس كان ضمن أعمال وممتلكات الأفضل، فسر الملك العزيز بذلك، وأرسل عشرة آلاف دينار إلى عز الدين جرديك النورى متولى القدس لينفقها على عسكر القدس، كما خُطبَ للملك العزيز على منابر القدس. ولكن نواب القدس خافوا من محاسبة الملك العزيز لهم، لأنهم كانوا قد مدوا أيديهم فى الوقوف ومن جملتها ثلث نابلس وعملها، وكان صلاح الدين الأيوبى قد أوقف ثلث نابلس وعملها لعمارة القدس، فخان هؤلاء النواب الأمانة، فلما تسامعوا بعزم الأفضل على تسليم القدس للملك العزيز، كتبوا إلى الأفضل يعرضون عليه القيام بالإشراف على القدس وعمارتها من أوقاف القدس فقط، وتنازلهم عن أية أموال أو أوقاف أخرى كانت مخصصة للقدس، فأجابهم الأفضل بالموافقة، وتراجع عن إعطاء القدس لأخيه العزيز عثمان.

اتفق أمراء الدولة الأيوبية فى مصر على أن تكون المملكة مجتمعة للملك العزيز عثمان، وقالوا: «هو أولى أولاد السلطان بذلك، إذ هو المحيى لسُنة والده فى الشجاعة والكرم». وأشاروا على الملك العزيز عثمان بالتوجه إلى الشام لتجتمع له المملكتان أى مصر والشام. وخرج العزيز من القاهرة بعساكر من الصلاحية والاسدية والأكراد وغيرهم، إلى أن بلغ دمشق وحاصرها، فأرسل الملك الأفضل إلى عمه الملك العادل والملك الظاهر صاحب حلب والملك المنصور صاحب حماه والملك المجاهد صاحب حمص، والملك

الأمجد صاحب بعلبك يستنجد بهم، فوردت رسلهم كلهم إليه، بأنهم على عزم نصرته ومساعدته، وأنهم لا يتأخرون عن الوصول إليه.

وصل إلى دمشق الملك العادل، وملوك البيت الأيوبى لنصرة الملك الأفضل، وبعث الملك العادل إلى ابن أخيه الملك العزيز عثمان يشفع له فى الملك الأفضل ويستأذنه فى الاجتماع به وتم الاجتماع بينهما، وتم الاتفاق على أن يعفو العزيز عثمان عن أخيه الأفضل وأن يرفع الحصار عن دمشق، وبالفعل عاد العزيز إلى مصر وخرج لوداعه الملك الأفضل وملوك البيت الأيوبى.

لم تستقر الأمور طويلا بين الأخوين، إذ قرر الملك العزيز بتحريض من أمراء البيت الأيوبى الغاضبين على الملك الأفضل المسير إلى الشام. فلما علم الأفضل سارع بالاستنجاد بعمه الملك العادل للمرة الثانية. وكان الملك العزيز قد وصل إلى الشام بعساكره، فلجأ الملك العادل إلى تحريض الأمراء الأسدية فى جيش الملك العزيز ويخوفهم منه ويستميلهم إليه. فلما أحس الملك العزيز بما حدث قرر الرجوع إلى مصر. ولكن الملك العادل استغل هذه الفرصة، واتفق مع ابن أخيه الملك الأفضل على المسير إلى مصر والاستيلاء عليها على أن يكون للعادل ثلث الديار المصرية وثلثاها للملك الأفضل، وبالفعل وصلا إلى مصر وحاصرا بلبيس، ولكن لم يلبس أن عقد الصلح بين الطرفين وعاد الملك الأفضل إلى دمشق، وبقى الملك العادل بمصر مع ابن أخيه الملك العزيز عثمان.

اختلت أحوال دمشق، لأن الملك الأفضل لزم الزهد وأقبل على العبادة، وترك أمور البلاد لوزيره ضياء الدين بن الأثير، وكثرت الشكوى من سوء تدبير

ابن الأثير، فلما بلغ ذلك الملك العادل والملك العزيز فى مصر، قررا الرحيل إلى الشام واستطاعا الاستيلاء على دمشق وعزل الملك الأفضل عن ملكه. وتم الاتفاق بين العادل والعزيز عثمان على أن تكون دمشق للعادل على أن تكون الخطبة والسكة بدمشق للعزيز عثمان وأن يكون العادل نائبًا للعزيز عثمان بها.

توفى الملك العزيز عثمان بالقاهرة فى المحرم سنة ٥٩٥هـ وخلفه ابنه الملك المنصور ناصر الدين محمد ولم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره، فاتفق رأى أمراء الدولة على مكاتبة الملك الأفضل ليحضر إلى مصر وكان الأفضل مقيمًا بقلعة صرخد مع أهله بعد إبعاده عن دمشق، وطلب الأمراء من الأفضل أن يتولى الأتابكية للملك المنصور حتى يصل إلى السن التى تسمح له بالانفراد بأمور السلطنة، فلبى الملك الأفضل نداء أمراء الدولة وجاء إلى مصر وتولى الأتابكية ولكنه لم يلبث أن سيطر سيطرة كاملة على أمور البلاد ولم يبق للملك المنصور غير مجرد الاسم فقط. ثم اتفق الأفضل مع أخيه الملك الظاهر صاحب حلب على استرداد دمشق من عمهما الملك العادل، وقاما بحصار دمشق، وشددا حصارهما لها، ولكن الملك العادل استطاع أن يتغلب على الأخوين وسار من دمشق إلى مصر، ودخلها، وعفا عن ابن أخيه الملك الأفضل وأعاده إلى قلعة صرخد مع أهله مرة أخرى.

ولما استقر الملك العادل بالقاهرة تولى أتابكية الملك المنصور، غير أن ذلك لم يستمر سوى أيامًا، فقد أحضر الملك العادل أمراء الدولة، وقال لهم: «إنه قبيح بى أن أكون أتابك صبى، مع الشيخوخة والتقدم والملك ليس هو بالإرث، وإنما هو لمن غلب وقام بالانفراد وحده بأمور الدولة، وأقسم له الأمراء يمين الطاعة وأصبح هو الحاكم للدولة الموحدة التى كان يحكمها أخوه صلاح الدين من قبل.

تطور الحركة الصليبية واتجاهها إلى مصر

تأكد الصليبيون بما اكتسبوه من خبرة أثناء مقامهم بالشام أن الخطر الأساسى الذى يهددهم هو مصر ولذلك كان هدف الحملات الصليبية التالية هو القضاء على الدولة الأيوبية فى مصر.

حملة هنرى السادس الصليبية وفشلها:

توفى صلاح الدين الأيوبى والهدنة قائمة بين المسلمين والصليبيين، وكانت الهدنة تنتهى فى عام ٥٩٢هـ/١١٩٥م فجددها الملك العزيز عثمان سنة أخرى تنتهى فى أواسط عام ٥٩٣هـ/١١٩٦م. وكانت أخبار وفاة صلاح الدين وتقسيم دولته والنزاع بين ملوك البيت الأيوبى قد وصلت إلى الغرب الأوروبى، مما أغرى البابوية على الدعوة لحملة صليبية جديدة، وهى الحملة المعروفة بحملة هنرى السادس إمبراطور ألمانيا لأنه كان من أشد المتحمسين من بين ملوك الغرب الأوروبى لاسترداد بيت المقدس. وقد وصلت هذه الحملة إلى عكا فى أوائل عام ٥٩٤هـ/١١٩٧م. ولم يرحب هنرى دى شمبانى ملك بيت المقدس بهذه الحملة، بل أمر رجاله من الصليبيين باستخدام القوة ضد أولئك الصليبيين الألمان، لأن هنرى دى شمبانى تأكد من أن هدف هذه الحملة ليس استرداد بيت المقدس بل فرض سيطرتها على الصليبيين فى الشام. وقد أدى هذا الصدام الصليبى إلى نجاح المسلمين فى إلحاق الهزيمة بالصليبيين قرب عكا، ثم جاءت الأنباء بوفاة الإمبراطور هنرى السادس مما أدى إلى عودة الحملة إلى ألمانيا.

الحملة الصليبية الرابعة
(٥٩٨-٦٠١هـ/١٢٠٢-١٢٠٤م)

أثار فشل حملة هنرى السادس إمبراطور ألمانيا غضب الباب أنوسنت الثالث، فأرسل الدعوة من جديد يدعو لحملة صليبية جديدة، ووجه دعوته إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا، فأجاب الدعوة عدد كبير من أمراء أوروبا واستقر الرأى على أن تكون مصر هدف هذه الحملة المعروفة بالحملة الصليبية الرابعة.

احتشدت الحشود الصليبية فى إيطاليا استعداداً للرحيل إلى الشرق، واتفق زعماء الحملة مع جمهورية البندقية على أن تنقل جنود الحملة على سفنها مقابل مبلغ كبير من المال. ولكن زعماء الحملة لم يستطيعوا تدبير هذا المبلغ الكبير، فانتهز دوق البندقية هذه الفرصة فى تحقيق بعض مآربه، وطلب من قواد الحملة مهاجمة مدينة زارا الواقعة على البحر الإدرياتيكى وانتزاعها من ملك المجر وتسليمها له كثمن لنقلهم على سفن البندقية إلى مصر، فاضطر الصليبيون للاستجابة لطلب دوق البندقية واتجهوا إلى زارا وهاجموها واحتلوها .

وفى ذلك الوقت قام نزاع شديد على العرش بين أفراد الأسرة الحاكمة فى القسطنطينية، انتهى بخلع الإمبراطور البيزنطى إسحاق الثانى، وفرار ابنه الكسيوس إلى الغرب طالباً المساعدة من البابوية وجموع الصليبيين الموجودين فى إيطاليا مقابل إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية مع تعهده بمساعدة الصليبيين فى حملتهم ضد مصر. فرحب الباب بطلبه، كما أن البندقية شجعت الصليبيين بدورها على تلبية طلبه لأنها كانت تخشى على مصالحها

وعلاقاتها التجارية مع مصر من أن تصاب بالضرر إذا ما أغضبت مصر بحملها للصليبين على سفنها لمهاجمتها هذا إلى جانب أن بعض المؤرخين يقولون أن الملك العادل بعث إلى دوق البندقية يدعوه إلى إبعاد هذه الحملة عن مصر ووعده بمنح البندقية مزايا تجارية استثنائية إذا ما نجح فى ذلك.

وعلى كل حال، فقد اتجه الصليبيون إلى القسطنطينية بدلا من مصر للمرة الثانية واحتلوها وأقاموا بها إمبراطورية لاتينية خاضعة لنفوذ البندقية ظلت قائمة نحو ستين عاماً. وكان لقيام هذه الإمبراطورية أثره على الحركة الصليبية بالشرق فقد اجتذبت الإمبراطورية الجديدة التى قامت بالقسطنطينية الكثير من العناصر الصليبية التى كانت تتجه من قبل إلى الشام بل إن كثيراً من صليبيى الشام اتجهوا بعدها للإقامة بالقسطنطينية.

حملة الأطفال

(٦٠٩هـ/١٢١٢م)

قام فى أوروبا صبى من الرعاة يدعى ستيفن لم يكن قد تجاوز الثانية عشر من عمره، وادعى أن المسيح عليه السلام أمره بقيادة حملة صليبية من الأطفال لإنقاذ بيت المقدس، واجتمع حوله عدد كبير من الأطفال بلغوا فيما يقال الثلاثين ألفًا وكلهم فى سن الثانية عشر أو الثالثة عشر من عمرهم، وكانوا خليطًا من الأولاد ومن البنات اللائي اتخذن ملابس الأولاد، ووصل هذا الحشد إلى الشواطئ الإيطالية، فاستقبلهم أهل مارسيليا استقبالا طيبًا. وقد غرَّر بهم بعض التجار وأصحاب السفن فحملوهم إلى ثغور البحر المتوسط وباعوهم فيها بيع الرقيق.

الحملة الصليبية الخامسة
أو
حملة چان دى برين

أدرك الصليبيون أن مصر هى مركز المقاومة الحقيقى فى العالم الإسلامى ضد الحركة الصليبية نظراً لما تتمتع به من موارد مالية وبشرية ضخمة، ورأوا أن استيلاءهم على بيت المقدس لا يتم لهم إلا إذا تملكوا مصر، وعلى ذلك يجب أن يوجهوا جهودهم ضد مصر أولا. ومن هنا ومع بداية القرن السابع الهجرى، الثالث عشر الميلادى، بدأت الحملات الصليبية - فيما عدا الحملة الصليبية الرابعة - تتخذ طريقها إلى مصر.

أمر الباب أنوسنت الثالث فى عام ٦١٢هـ/١٢١٥م بعقد اجتماع فى مدينة روما يحضره ممثلون عن جميع المدن الأوروبية لمناقشة أحوال الإمارات الصليبية فى الشرق. وقد أعلن الباب فى هذا الاجتماع ضرورة القيام بحملة صليبية جديدة تتوجه إلى الأراضى المقدسة، كما تم الاتفاق على أن تكون مصر هى هدف الحملة الصليبية الجديدة وأعلن البابا بأنه سيتولى قيادة الحملة الصليبية الجديدة، ولكنه توفى عام ٦١٣هـ/١٢١٦م قبل خروج الحملة. وقد شارك فى هذه الحملة الملك چان دى برين ملك بيت المقدس، وهيو ملك قبرص، وليو ملك أرمينية، وأندرو ملك المجر، كما انضم إليهم دوقات النمسا وباڤاريا وصاحب طرابلس.

وصلت الحشود الصليبية إلى مدينة عكا فى عام ٦١٤هـ/١٢١٧م. فلما علم الملك العادل بحشودهم، خرج من مصر بعساكره، فوصل إلى الرملة ومنها إلى اللد، فنابلس ثم إلى بيسان، فلما بلغ الفرنج وصوله، برزوا له

من عكا في جموع ضخمة، فخشى الملك العادل أن لقيهم دون أن تتكامل عنده العساكر الإسلامية أن يتعرض لهزيمة شديدة، فلايقوم للإسلام بعد ذلك قائمة، فآثر الانسحاب إلى عقبة فيق (وهي بلدة بين دمشق وطبرية)، وكتب إلى نائبه على دمشق بتحصينها، وأرسل في استنفار عساكر المسلمين للاجتماع به بدمشق. فلما رحل الملك العادل إلى دمشق، انتهز الفرنج الفرصة وهاجموا أهل بيسان وسائر الأعمال التي حولها، وبذلوا فيهم السيف، ونهبوا البلاد، وأخذوا جميع غلاتها، ونهبوا ما بين بيسان وبانياس، ثم نازلوا بانياس، وأقاموا عليها ثلاثة أيام، ثم عادوا إلى مرج عكا، ومعهم من الغنائم والسبي ما لا يحصى سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا، واستراحوا بالمرج قليلا، ثم أغاروا ثانياً ونهبوا صيدا والشقيف، وعادوا إلى المرج، وقد جرت كل هذه الأحداث ما بين منتصف رمضان إلى عيد الفطر من عام ٦١٤هـ/١٢١٧م.

توجه الملك العادل إلى مرج الصفر، ونزل به، وكتب إلى ملوك الشرق ليقدموا عليه: فأول من قدم عليه أسد الدين شيركوه صاحب حمص. ثم سير العادل ابنه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بفرقة من العسكر إلى نابلس، ليمنع الفرنج من التقدم إلى بيت المقدس وكان الفرنج قد نازلوا قلعة الطور التي أنشأها الملك العادل، وتشددوا في قتال أهلها، حتى تمكنوا من سورها، وكادوا يستولون عليها، لولا أن بعض ملوكهم قتل، فانصرفوا عن القلعة إلى عكا، بعدما أقاموا عليها سبعة عشر يوماً. ثم عقد الفرنج اجتماعاً للتشاور في ماذا يبدءون بقصده، فأشار عقلاؤهم بقصد مصر، وقالوا: «إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك، وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أولا مصر

ونملكها، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيره من البلاد» .

حشد الفرنج حشودهم فى عكا، بقيادة الملك چان دى بريين ملك بيت المقدس، ثم أبحروا قاصدين مصر، فوصلوا إلى دمياط فى يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الأول ٦١٥هـ الثامن من يونيو عام ١٢١٨م، فنزلوا على بر جيزة دمياط أو البر الغربى لدمياط، وأحاطوا معسكرهم بخندق، وبنوا حول الخندق سوراً، وأخذوا فى محاربة أهل دمياط.

كانت دمياط على درجة كبيرة من الحصانة، إذ كانت تحيط بها الأسوار والقلاع والأبراج القوية الضخمة، علاوةعلى الخندق الذى كان يحيط بهذه الأسوار، كما كانت تمتد بعرض النيل سلاسل من الحديد لتمنع المراكب الآتية من البحر المتوسط من عبور النيل إلى دمياط، بالإضافة إلى برج السلسلة، وهو برج ضخم مشحون بالمقاتلة بناه المسلمون وسط مجرى النيل لحماية دمياط.

استمرت المحاولات الصليبية لدخول دمياط والتغلب على برج السلسلة واستعانوا لتحقيق هذا الهدف ببناء أبراج خشبية متحركة يزحفون بها فى المراكب إلى برج السلسلة ليملكوه، ولكن حامية البرج استطاعوا أن يردوهم أكثر من مرة.

وعندما علم الملك الكامل محمد ـ الذى كان ينوب عن والده الملك العادل فى مصر ـ بنزول الصليبيين على البر الغربى لدمياط ـ خرج بمن عنده من العساكر، وتقدم إلى والى الغربية بجمع سائر العربان ، وسار فى جمع كثير، كما أخرج الأسطول المصرى وأرسله إلى الشمال فى النيل، ونزل الملك الكامل محمد بناحية العادلية وكان قد بناها الملك العادل عام

٦١٤هـ/١٢١٧م ولما بلغ الملك العادل نزول الفرنج بدمياط، أرسل ما عنده من العساكر إلى دمياط، «حتى صار عند الملك الكامل من المقاتلة ما لا يكاد ينحصر عدده».

ظل برج السلسلة يقاوم أربعة أشهر، وأخيراً بنى الفرنج برجًا عاليًا ضخماً وأقاموه على بطسة كبيرة، وتقدموا به تحت وابل من سهام المصريين إلى أن أسندوا برجهم إلى برج السلسلة وقاتلوا به قتالا عنيفًا إلى أن استولوا على برج السلسلة، فلما ورد على الملك العادل وهو بمرج الصفر بأخذ الفرنج برج السلسلة تأوه تأوهاً شديداً، ودق بيده على صدره أسفًا وحزناً، ومرض من ساعته، فرحل من مرج الصفر إلى عالقين (وهى قرية خارج دمشق) وقد اشتد مرضه، فمات فى يوم الخميس السابع من جمادى الأخرة عام ٦١٥هـ/الحادى والثلاثين من أغسطس سنة ١٢٢٨م.

قرر الملك الكامل محمد منع الفرنج من الاستيلاء على دمياط بعد تغلبهم على برج السلسلة، وقطعهم السلاسل الحديدية الموجودة فى نهر النيل، فنصب الملك الكامل عوضاً من السلاسل جسراً عظيمًا ليمنع الفرنج من عبور النيل. ولكن الفرنج قاتلوا قتالا عنيفًا، حتى قطعوا هذا الجسر، فلم ييأس الملك الكامل، وأمر بإغراق عدد من المراكب فى النيل، ولكن الفرنج تغلبوا على تلك الصعوبة إذ لجأوا أيضًا إلى الحيلة، فقد كان هناك على البر الغربى لدمياط خليج قديم يعرف بالخليج الأزرق، كان يجرى فيه النيل فيصب فى البحر ولكن الرمال طمرته، فأعاد الفرنج حفره وأجروا فيه الماء إلى البحر، وأصعدوا فيه سفنهم حتى وصلت إلى مدينة بورة (وهى بلدة على البحر المتوسط فى الشمال الغربى من دمياط) التى تقابل منزلة العادلية حيث يعسكر الملك الكامل بجيوشه.

كانت هذه الأحداث تجرى، ودمياط لازالت آمنة سالمة وسورها يحميها وأبوابها مفتحة، والميرة والإمداد تصل إليها دون انقطاع، والنيل يفصل بينها وبين الفرنج، والعربان تتخطف الفرنج فى كل ليلة بحيث منعهم ذلك من الرقاد خوفًا من غارات العربان، فتكالب العربان عليهم حتى صاروا يختطفونهم نهاراً ويأخذون خيامهم بمن فيها. وأدرك المسلمون الشتاء فهاج البحر على معسكر المسلمين، وغرقت خيامهم فعظم البلاء واشتد الكرب، وتشدد الفرنج فى القتال، ولن يبق إلا أن يملكوا دمياط، فأرسل الله سبحانه وتعالى ريحًا عنيفة قطعت مراسي مرمة (وهي سفينة ضخمة جداً)، فسارت تلك المرمة إلى البر الذى فيه المعسكر الإسلامي فملكها المسلمون .

وفى نفس الوقت أرسل الملك الكامل محمد سبعين رسولا يستنجد بأهل الإسلام، على قتال الفرنج ويستحثهم على إنقاذ المسلمين منهم، ويخوفهم من تغلب الفرنج على مصر، فإنه متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها، فقدمت النجدات من حماة وحلب.

تعرض المعسكر الإسلامى لمحنة داخلية عنيفة مهدت الطريق أمام الفرنج للاستيلاء على دمياط، فقد انتهز الأمير عماد الدين أحمد بن الأمير سيف الدين ابن الحسين علي بن أحمد الهكارى المعروف بابن المشطوب وفاة الملك العادل، واتفق مع جماعة من الأكراد الهكارية والجند على خلع الملك الكامل محمد وتمليك أخيه الملك الفائز إبراهيم ليصير لهم التحكم فى المملكة الأيوبية، ووافقه على ذلك بعض الأمراء منهم الأمير عز الدين الحميدى، والأمير أسد الدين الهكارى، والأمير مجاهد الدين وغيرهم. فلما بلغ الملك الكامل محمد ذلك، دخل عليهم، فإذا هم مجتمعون وبين أيديهم المصحف، وهم يحلفون لأخيه الفائز فعندما رأوه تفرقوا، فخشى الملك الكامل

محمد على نفسه منهم فترك معسكره بمنولة العادلية وسار إلى أشموم طناح ونزل بها في مساء يوم ١٦ من ذى القعدة سنة ٦١٥هـ/الخامس من فبراير سنة ١٢١٩م. وأصبح الجند بغير سلطان، فتفرقت كلمتهم، وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم ولحقوا بالملك الكامل محمد. فبادر الفرنج عند ذلك وعبروا بر دمياط وهم آمنون، من غير منازع ولا مدافع، وأخذوا كل ما كان في معسكر المسلمين.

عزم الملك الكامل محمد على مغادرة أرض مصر والتوجه إلى بلاد اليمن وكانت بيد ولده الملك المسعود صلاح الدين يوسف ولكن وصل إليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق في الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٦١٥هـ/ السابع من فبراير سنة ١٢١٩م. فقويت به شوكته، وأعلمه الملك الكامل محمد بما كان من مؤامرة ابن المشطوب، فوعده المعظم عيسى بإزالة هذا الخطر عنه، ثم ركب المعظم عيسى إلى خيمة ابن المشطوب، واستدعاه للركوب معه للمسايرة، فاستنظره ليلبس خفيه وثيابه فلم ينظره ولم يمهله فركب معه وسايره إلى أن خرج به من المعسكر الإسلامى، ثم سلمه لجماعة من أصحابه وأمرهم أن لا يتركوه حتى يخرجوه من الديار المصرية وينفوه إلى الشام، فمضى إلى الشام، ووصل إلى حماة، وأقام عند صاحبها الملك المنصور. ثم بعد ذلك أمر الملك الكامل محمد أخاه الملك الفائز أن يمضى رسولا عنه إلى ملوك البيت الأيوبى بالشام والشرق يستحثهم لإرسال العساكر، وكان الغرض من ذلك إبعاده عن مصر.

أحاط الفرنج بدمياط من البحر والبر، وأحدقوا بها، وحاصروها، وضيقوا على أهلها، ومنعوا الأقوات أن تصل إليهم وحفروا على معسكرهم بدمياط خندقًا، وبنوا عليه سورًا على عادتهم كل هذا وأهل دمياط يقاتلونهم أشد

قتال، وصبروا صبراً لم ير مثله، رغم قلة الأقوات وغلاء الأسعار. وقد احتال الملك الكامل محمد للاتصال بأهل دمياط لتشجيعهم وتقوية روحهم المعنوية، فانتدب لذلك رجلا من جنوده يدعى شمائل من أهل قرية من قرى حماة تسمى معرذفتين، فكان يخاطر بنفسه ويسبح فى النيل ومراكب الفرنج محيطة به، ويدخل إلى دمياط، فيقوى قلوب أهلها، ويعدهم بوصول النجدات إليهم، ثم يأتى إلى الملك الكامل ويعلمه بأخبار أهلها فحظى بذلك عند الملك الكامل، وجعله أمير جانداره وولاه القاهرة.

ولما اشتد الحصار الصليبى على دمياط، وأوشكت على السقوط فى أيديهم، خشى الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وأخى الملك الكامل، أن تصل إمدادات صليبية جديدة إلى بيت المقدس منتهزين انشغال الملك الكامل فى مصر بمحاربة الفرنج المحاصرين لدمياط، فيتمكنوا من الاستيلاء على بيت المقدس ولا يمكن استرداده بعد ذلك، فقرر الملك المعظم عيسى تخريب أبراج بيت المقدس وأسواره. وفى نفس الوقت استمر الحصار الصليبى على دمياط، حتى نفذ ما عند أهل دمياط من الأقوات، واشتد الغلاء بها، واشتد الجوع بأهلها حتى مات أكثرهم وعجزوا عن الحركة والمدافعة، وكثر الوباء فى أهل دمياط، فتسور الفرنج سور دمياط، ودخلوها يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان سنة ٦١٦هـ/الخامس من نوفمبر ١٢١٩م. فكانت مدة الحصار ستة عشر شهراً واثنتين وعشرين يوماً. وحصن الفرنج أسوار دمياط، وجعلوا جامعها كنيسة، وبثوا سراياهم فى القرى يقتلون ويأسرون، فعظم الخطب واشتد البلاء.

انسحب الملك الكامل محمد، ونزل قبالة طلخا عند مخرج بحر أشموم طناح، وشرع الجند يبنون الدور والفنادق والحمامات والأسواق فى هذه المنزلة

التى عرفت فيما بعد بالمنصورة. وسارع الملك الكامل يطلب النجدات، من ملوك وأمراء البيت الأيوبى لدفع الخطر الصليبى عن مصر. فوصله الملك الأشرف موسى بن العادل، والملك الناصر صاحب حماة، والملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، والملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه صاحب بعلبك وغيرهم، وبلغت بذلك عدة فرسان المسلمين نحو الأربعين ألفاً.

ازداد وصول الإمدادات الصليبية إلى دمياط، فقرروا التقدم جنوباً للاستيلاء على بقية الديار المصرية، فوصلوا إلى قبالة المعسكر الإسلامى، وأقاموا معسكرهم بحيث لم يكن يفصل بين المعسكرين سوى بحر أشموم طناح. فاشتد القتال بين الطرفين براً وبحراً، وفى نفس الوقت ظلت الرسل تتردد بين الطرفين لعقد الصلح، وقد وافق الملك الكامل محمد على التنازل للفرنج عن بيت المقدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبلة وجميع ما فتحه صلاح الدين الأيوبى من مدن الساحل فيما عدا الكرك والشوبك مقابل تسليم دمياط والانسحاب من مصر، فرفض الفرنج وصمموا على الحصول على الكرك والشوبك وكذلك الحصول على تعويض مالى مقداره خمسمائة ألف دينار لتعمير أسوار القدس التى خربها المسلمون فرفض الملك الكامل محمد هذه الشروط.

اضطر الملك الكامل إلى حسم أمر الحملة الصليبية عسكرياً بعد أن فشلت الجهود السلمية، فأرسل سفناً من أسطوله بقيادة الأمير بدرالدين حسون فى بحر المحلة، فحالت هذه السفن بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال بالميرة وبين الوصول إلى معسكرهم عند المنصورة، ثم عبر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة إلى الأرض التى عليها معسكر الفرنج، وفتحوا السدود الواقعة على النيل وكان الوقت هو وقت فيضان النيل، فأغرقت المياة

المعسكر الصليبى وأصبح من الصعب عليهم العودة إلى دمياط، ولم يتبق أمامهم للنجاة سوى طريق واحد ضيق، فأمر الملك الكامل محمد فى الحال بنصب الجسور عند بحر أشموم طناح، وعبرت العساكر الإسلامية عليها، وسيطرت على الطريق المؤدى إلى دمياط، فانحصر الفرنج من سائر الجهات.

قرر الفرنج خوض الجولة الأخيرة من القتال للوصول إلى دمياط، فخربوا خيامهم ومجانيقهم وأشعلوا فيها النار، فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا لكثرة الوحل والمياه فى الأرض، فلاذوا إلى طلب الصلح، وبعثوا يسألون الملك الكامل محمد وأخوته الأمان لأنفسهم على أن يتركوا دمياط للمسلمين دون قيد أو شرط. وبدأ الكامل محمد يستشير ملوك البيت الأيوبى، فأشار عليه البعض بمواصلة القتال حتى يتم له النصر النهائى، فرفض الكامل هذا الرأى قائلا: «إن هؤلاء ليسوا جميع الفرنج، وإذا أبدناهم لا نقدر على أخذ دمياط إلا بمطاولة وحروب كثيرة مدة، ويسمع ملوك ما وراء البحر من الفرنج وباباهم بما يجرى على الفرنج، فيقدم إلينا أضعاف هؤلاء وتعود للحرب خدعة، وقد ضجرت العساكر من الحرب وكلت». فاتفق رأى الجميع على بذل الأمان لهم، وتسلم دمياط منهم على شرط أن يأخذ الملك الكامل بعض ملوكهم كرهائن عندهم إلى أن يسلموا له دمياط كما اشترط الفرنج أن يكون ابن الملك الكامل عندهم رهينة إلى أن تعود رهائنهم. فتم الاتفاق على ذلك، وبعث الفرنج بعشرين ملكًا من ملوكهم. وبعث الملك الكامل إليهم بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتم تسليم دمياط يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب سنة ٦١٨هـ/الثامن من شهر سبتمبر سنة ١٢٢١م ولما تم تسليم المدينة للمسلمين، بعث الفرنج بالصالح نجم الدين أيوب ابيه أبيه، وأطلق الملك الكامل رهائنه من ملوك الفرنج ولقد اتفق الطرفان بعد

ذلك على هدنة مدتها ثمانى سنوات، وعلى أن يطلق كل فريق ما عنده من الأسرى، وحلف الملك الكامل محمد وأخوته وحلف ملوك الفرنج على ذلك ودخل الملك الكامل إلى دمياط بعساكره وأهله، فكان يوماً مشهوداً، وتبارى الشعراء فى الإشادة بهذا النصر العظيم، ومن بينهم الشاعر شرف الدين بن عنين الذى قال فى قصيدة له:

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى ما ∴ إذا جـــهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفلا ∴ من الروم لا يحصى يقيناً ولا ظناً
تداعوا بأنصار الصليب وأقبلت ∴ جموع كأن الموج كان لهم سفناً
وأطمـعـهم فـينا غـرور فـأرقلوا ∴ إلينا سـراعـا بالجـهـاد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم ∴ بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأساً نفت عنهم الكرى ∴ وكيف ينام الليل من عدم الأمنا


BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الحملة الصليبية السادسة

فشلت حملة جان دى بريين فى تحقيق هدفها فى الاستيلاء على مصر كخطوة أولى وأساسية من أجل استرداد بيت المقدس، وما كادت السفن الصليبية ترحل عن دمياط، حتى وصلت إليها بعض السفن الصليبية تحمل جنداً من الألمان، وهم فرقة من الجند أرسلهم الإمبراطور فريدريك الثانى للإسهام فى حملة جان دى بريين، ولكن هذه السفن وصلت متأخرة بعد رحيل الحملة الصليبية عن الديار المصرية. فاحترموا الهندة الموقعة بين المصريين والفرنج، وجلوا عن مصر فى شهر شعبان عام ٦١٨هـ/سبتمبر سنة ١٢٢١م.

والواقع أن فريدريك الثانى كان قد أرسل هذه الفرقة استجابة منه لدعوة البابا الذى كان يحضه وقتئذ بإلحاح للإسهام فى الحملات الصليبية التى كان ملوك أوروبا يبعثون بها إلى الشام ومصر، ورغم استجابة فريدريك لرغبة الباب بإرساله هذه الفرقة، إلا أن البابا لم يقتنع بالدور الذى قام به فريدريك واستمر يحثه على إرسال حملة أخرى أكبر وأقوى. فاضطر فريدريك إزاء ذلك أن يتوجه إلى الشام على رأس حملة جديدة هى الحملة الصليبية السادسة. غير أن هذه الحملة كانت عجيبة فى كل ما يحيط بها من ظروف وملابسات، فلقد كانت حملة صغيرة لا يتجاوز عدد رجالها الستمائة فارس فقط، والأعجب أنها جاءت استجابة لرغبة الملك الكامل محمد نفسه وباتفاق وتفاهم بينه وبين فريدريك الثانى.

أما الأسباب التى دعت الملكين إلى مثل هذا التفاهم والاتفاق فهى المصلحة المشتركة، فبعد انسحاب الحملة الصليبية الخامسة ساءت العلاقات

بين الكامل محمد وبين أخيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، بسبب أطماع الأخير، فقد استولى المعظم عيسى على المعزة وسلمية، وحاصر حماة، فغضب الملك الكامل وأصر على أن يتخلى المعظم عيسى عن كل ما اغتصبه من أراضى بدون وجه حق، فاضطر المعظم عيسى أن ينزل على إرادته وهو حانق، ثم سرعان ما انضم الملك الأشرف موسى إلى أخيه المعظم عيسى ضد أخيهما الملك الكامل محمد، ولم يكتف المعظم عيسى بذلك بل تحالف مع السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ملك الدولة الخوارزمية ووثق علاقته به ليستعين به إذا هاجمه أخوه الملك الكامل، لهذا سعى الكامل إلى إرسال الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى الإمبراطور فريدريك الثانى يعرض عليه أن يقدم إلى عكا، ووعده أن يعطيه بيت المقدس. فلما بلغ ذلك المعظم عيسى، كتب إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه يسأله النجدة على أخيه الكامل محمد، ووعده أن يخطب له على المنابر بدمشق، ويضرب السكة باسمه، فسيّر إليه جلال الدين خلعة لبسها وشق بها شوارع دمشق، وقطع الخطبة للملك الكامل. فلما علم الكامل محمد بذلك قبض على عدة من الأمراء ومماليك أبيه لاتصالهم ومكاتبتهم المعظم عيسى منهم فخر الدين الطنبا الحبيشى وفخر الدين الطن الفيومى، وقبض أيضاً على عشرة أمراء من البحرية العادلية، واعتقلهم، وصادر أموالهم وممتلكاتهم من أجل الإنفاق على العسكر المصرى الذى قرر الكامل تسييره إلى دمشق لتأديب أخيه المعظم عيسى.

رد الإمبراطور فريدريك الثانى على سفارة الملك الكامل محمد بسفارة مماثلة، تحمل هدايا وتحف إلى الكامل محمد، وكان فيها عدة خيول، منها فرس الملك بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر فرحب الملك الكامل بتلك السفارة على طول الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة بل خرج الكامل بنفسه

لاستقبالها عندما اقتربت من القاهرة، وأكرم أعضاء السفارة، إكرامًا زائدًا وأنزلهم فى دار الوزير صفى الدين بن شكر، كذلك أرسل الكامل محمد هدية عظيمة إلى الإمبراطور فريدريك تحتوى على تحف من الهند واليمن والعراق والشام ومصر وبلاد العجم، وأرسل الكامل جمال الدين بن منقذ الشيزرى بتلك الهدية إلى فريدريك الثانى.

وقد غادرت السفارة الألمانية مصر ومرت بدمشق ـ فى طريق عودتها إلى أوروبا ـ لتطلب من الملك المعظم عيسى تسليم بيت المقدس للإمبراطور، ولكن المعظم عيسى عارض هذه الفكرة، وهدد بالحرب، ثم قصد بيت المقدس فخرب قلاعًا وعدة صهاريج بالقدس. ولكن المعظم عيسى ما لبث أن توفى بدمشق فى شهر ذى القعدة سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م، وتولى ابنه الناصر داود الذى رفض طلب عمه الكامل محمد بأن يترك له قلعة الشوبك ليجعلها خزانة له، فوقعت الوحشة بينه وبين عمه الملك الكامل، وعزم الكامل على قصده وأخذ دمشق منه.

عهد الكامل محمد إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة من بعده، وأركبه بشعار السلطنة، وشق الصالح القاهرة، وأنزله بدار الوزارة وعمره يومئذ اثنتان وعشرون سنة. ثم خرج الملك الكامل من مصر فى عساكره الضخمة وفى صحبته ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين محمود بن الملك المنصور، وقد وعده أن يسلمه حماة وكانت بيد أخيه الملك الناصر قلج أرسلان وفى صحبته من أهله أيضًا ابن أخيه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن الملك الجواد شمس الدين مودود بن الملك العادل، وكان قد ربّاه عمه الملك الكامل بعد موت أبيه، وأقطعه البحيرة من ديار مصر. ولما وصل الملك

الكامل - إلى غزة نزل بها مخيمًا بتل العجول، وبعث ولاته إلى نابلس والقدس والخليل وغيرها من الأعمال، ثم سار الكامل من غزة إلى نابلس ونزل بها بدارالملك المعظم، ولما تيقن الملك الناصر داود من قصد عمه الملك الكامل له، أرسل إلى عمه الملك الأشرف من البلاد الشرقية يعتضد به ويستنصر به على الملك الكامل، فسار الأشرف إلى دمشق، وزينت لقدومه، وضربت بها البشائر، وخرج الناصر داود لاستقباله في رمضان سنة ٦٢٥هـ/أغسطس سنة ١٢٢٧م وفي قلب الأشرف من محبة دمشق، والميل إلى تملكها ما فيه، فهو يعمل على ذلك باطناً.

سيّر الملك الأشرف الأمير سيف الدين علي بن قلج رسولا إلى أخيه الملك الكامل محمد، يشفع في الملك الناصر داود ويطلب منه إبقاءه في دمشق، ويقول «إنا كلنا في طاعتك ولم نخرج عن موافقتك». فلم يجب الملك الكامل إلى ذلك، وخاطب سيف الدين علي بن قلج بما فيه أطماع الملك الأشرف أو تحريضه للاستيلاء على دمشق. وهنا أشار الملك الأشرف على ابن أخيه الملك الناصر داود بأن يمضيا إلى نابلس فلما بلغ الملك الكامل مسيرهما، قرر الرحيل من نابلس والعودة إلى القاهرة ووصل إلى تل العجول ونزل به في الوقت الذى وصل فيه الملك الأشرف موسى والملك الناصر داود ومعهما الملك المجاهد صاحب حمص إلى نابلس. ثم أقام الملك الناصر داود بنابلس، ورحل الملك الأشرف ومعه الملك المجاهد إلى غزة للاجتماع بالملك الكامل، لما سمع الملك الكامل بقرب أخيه الملك الأشرف، خرج إلى استقباله، وعاد به إلى معسكره بتل العجول ونزلا به، ثم وقع الاتفاق بينهما على انتزاع دمشق من ابن أخيهما الملك الناصر داود وأن تكون للملك الأشرف وما معها من الأعمال إلى عقبة فيق. ويكون للملك

الناصر داود عوضًا عن دمشق حران والرقة والرها وسروج ورأس عين وجملين والموزر وهى ما كانت للأشرف، وأن تنزع بعلبك من الأمجد بهرام شاه وتعطى هى وأعمالها لأخيهما الملك العزيز عثمان، وأن تنزع حماة من الملك الناصر قلج أرسلان بن المنصور وتعطى للمظفر تقى الدين محمود بن المنصور، وأن تؤخذ من المظفر سلمية وتضاف إلى الملك المجاهد صاحب حمص.

وفى الوقت الذى انشغل فيه الملك الكامل محمد بترتيب أوضاع البيت الأيوبى فى مصر والشام، وصل إلى عكا الامبراطور فريدريك الثانى، وكان قد سبقه جموع أخرى من الفرنج ولكنهم لم يتمكنوا من الحركة لانتظارهم الامبراطور، ولما وصل فريدريك إلى عكا بعث رسوله إلى الملك الكامل محمد، وأمره أن يقول له: «الملك يقول لك كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شىء ولا أجىء إليهم. والآن فقد كنتم بذلتم لنائبى - فى زمن حصار دمياط - الساحل كله، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية وما فعلنا وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم، وإعادتها إليكم. ومن نائبى؟ إن هو إلا أقل غلمانى، فلا أقل من إعطائى ما كنتم بذلتموه له». فتحير الملك الكامل محمد لأن أخاه الملك المعظم عيسى الذى كان السبب فى استدعاء الكامل لفريدريك الثانى توفى، إلا أن الكامل لم يمكنه دفعه أو محاربته لما تقدم بينهما من الاتفاق، فأرسل إليه سفارة على رأسها الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ولاطفه. وقد انتهز الفرنج الفرصة وشرعوا فى عمارة مدينة صيدا، وكانت مناصفة بين الفرنج والمسلمين، وأسوارها مخربة، فعمرها الفرنج، واستولوا عليها، وأزالوا عنها حكم المسلمين.

لما علم الملك الناصر داود بما تم الاتفاق عليه بين عميه الملك الكامل محمد، والملك الأشرف موسى، رحل من نابلس عائداً إلى دمشق، فبلغ الملك الأشرف موسى وهو بتل العجول ذلك، فسار ليلحق به، فلحقه بالقصير المعروف بقصير ابن معين الدين بالغور، فاجتمعا به، وحضر اجتماعهما الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل، وابن أخيه الملك المغيث بن الملك المغيث وكانا مع الناصر داود، والأمير عز الدين أيبك المعظمى صاحب صرخد، وقال له الأشرف موسى : «إني اجتمعت بخدمة عمك السلطان الملك الكامل وقصدت الإصلاح بينك وبينه بجهدى، وحرصت على أن يرجع عنك ويقر عليك بلادك لكنه امتنع وأبى إلا أن يأخذ دمشق منك، وأنت تعلم أنه سلطان البيت الأيوبى، وكبيرهم، وصاحب الديار المصرية ولا يمكن الخروج عما أمر به، وقد وقع الاتفاق على أن تسلم إليه دمشق وتعوض عنها من الشرق كذا وكذا» وذكر له ما تم الاتفاق عليه. فلما انتهى الملك الأشرف من كلامه، قام الأمير عز الدين أيبك المعظمى، وقال: «لا كيد ولا كرامة ولا نسلم من البلاد حجراً واحداً، ونحن قادرون على دفع الجميع ومقاومتهم، ومعنا العساكر المتوافرة» وقال للملك الناصر داود «قم وامض إلى دمشق» فرحل الملك الناصر إلى دمشق ولم يستطع الملك الأشرف منعه لقلة من معه من الجند. فلما وصل الناصر داود إلى دمشق استعد للحصار، وقام أهل دمشق بنصرته لأنهم كانوا يحبونه ويحبون والده.

سار الملك الأشرف موسى إلى دمشق وحاصرها، وقطع عنها نهرى بانياس والقنوات، فخرج إليه عسكر دمشق، وقاتلوه وجنده أعنف قتال، وساعدهم على ذلك عامة أهل دمشق، حتى أعادوا الماء إلى دمشق، كما سير الملك الناصر داود الشيخ شمس الدين الخسرو شاهى رسولا إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه، يخبره بأن أعمامه إنما قصدوا بلاده بسبب

انتمائه وولائه هو وأبيه إلى جلال الدين بن خوارزم شاه، وبحثه الناصر بحصار مدينة خلاط ليرغم الملك الأشرف موسى على تخفيف حصاره عن دمشق، ونجدة خلاط.

استقر الملك الكامل محمد بتل العجول، وأخذ يرسل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، والشريف شمس الدين الأرموى قاضى العسكر إلى الإمبراطور فريدريك الثانى لإجراء المفاوضات معه، وقد انتهت هذه المفاوضات بعقد معاهدة يافا فى الثانى والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٢٦هـ/ الثامن عشر من فبراير سنة ١٢٢٩م وأهم شروطها:

١ ـ أن تسلم بيت المقدس للإمبراطور، بشرط أن يبقيها على ما هى من الخراب، ولا يجدد أسوارها، وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج.

٢ ـ أن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى تكون بأيدى المسلمين، ولايدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط.

٣ ـ أن يأخذ الفرنج جميع القرى الواقعة على الطريق من يافا إلى بيت المقدس.

٤ ـ أن يطلق الكامل محمد سراح من عنده من الأسرى.

٥ ـ أن يتعهد فريدريك بمحالفة الملك الكامل ضد جميع أعدائه ولو كانوا مسيحيين صليبيين.

٦ ـ أن يضمن الإمبراطور عدم وصول إمدادات صليبية إلى الإمارتين الصليبيتين فى أنطاكية وطرابلس.

٧ ـ أن يستمر العمل بهذه المعاهدة لمدة عشر سنوات.

وهكذا تم هذا الاتفاق الغريب بين الملك الكامل محمد وفريدريك الثانى والذى كان أغرب ما فيه تنازل المسلمين عن بيت المقدس للفرنج، مما

أثار السخط والكراهية على الكامل محمد. ويصف المقريزى الشعور الإسلامى عند تسليم بيت المقدس للفرنج بقوله: «وبعث السلطان فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج، فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وحضور الأئمة والمؤذنين من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان. فعزّ عليه ذلك وأمر بأخذ ما كان معهم من الستور والقناديل الفضة والآلات، وزجرهم : «امضوا إلى حيث شئتم» فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار». كما ثار المسيحيون أيضًا على فريدريك لأنهم كانوا لا يريدون مسالمة المسلمين، بل يعتقدون بوجوب محاربتهم.

ولما وقعت الهدنة بين الكامل محمد وفريدريك الثانى، بعث الأخير يستأذن فى دخول القدس، فأجابه الكامل إلى ما طلبه، وسير القاضى شمس الدين قاضى نابلس ليكون فى خدمته. فسار معه إلى المسجد الأقصى، وطاف معه ما فيه من المزارات كما أعجب الإمبراطور بالمسجد الأقصى، وقبة الصخرة، فلما خرج من المسجد الأقصى، ورأى قسيسًا وبيده الإنجيل وقد قصد دخول المسجد، فصاح به الإمبراطور، وزجره وأنكر مجيئه، وقال: «ما الذى أتى بك إلى ها هنا، والله لئن عاد أحد منكم يدخل إلى ها هنا بغير إذنى لآخذن ما فى عينيه، نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وإنما تصدق علىّ وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، ولا يتعدى أحدٌ منكم طوره». فانصرف القس وهو يرعد خوفًا منه، ومضى الإمبراطور ونزل فى الدار التى خصصت لإقامته. ثم رحل الإمبراطور إلى عكا ومنها إلى بلاده فى أواخر جمادى الآخرة سنة ٦٢٦هـ/أول مايو سنة ١٢٢٩م.

وبذلك انتهت الحملة الصليبية السادسة التى تعتبر من أغرب الحملات الصليبية على المشرق الإسلامى.

الدولة الأيوبية ما بين انتهاء الحملة الصليبية السادسة ومجيء الحملة الصليبية السابعة إلى مصر

قرر الملك الكامل محمد قصد دمشق، فوصل إلى ظاهرها فى جمادى الأولى سنة ٦٢٦هـ، واتفق مع الملك الأشرف موسى على محاصرتها، وقطع عنها نهرى بانياس والقنوات، ورغم ذلك كان أهل دمشق يخرجون كل يوم ويقاتلون أشد قتال، وطالت فترة الحصار إلى شهر رجب سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م فاشتد ذلك على أهل دمشق لإقبال الصيف، وغلاء الأسعار، كما نفذت أموال الملك الناصر داود وفارقة جماعة من أصحابه وانضموا إلى الكامل والأشرف، فأخذ الناصر فى ضرب أوانيه من الذهب والفضة دنانير ودراهم، وفرقها على عسكره، حتى أتى على أكثر ما عنده من الذخائر، فرأى الملك الناصر أن الأصلح له الخروج إلى عمه الملك الكامل، فخرج ليلا من قلعة دمشق فى أواخر رجب سنة ٦٢٦هـ فى نفر يسير من أصحابه وألقى نفسه على باب مخيم الملك الكامل، ولما بلغ الكامل مجيئه، خرج إليه وتلقاه وأكرمه إكراماً كبيراً، وتحدث معه وباسطه وطيّب قلبه بعد أن عاتبه عتاباً كثيراً، ثم أمره بالرجوع إلى قلعة دمشق، فعاد إليها.

تم عقد الصلح بين الكامل محمد وابن أخيه الناصر داود وعوضه الكامل عن دمشق بالكرك والشوبك وأعمالهما والصلت والبلقاء والأغوار جميعها، ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل، ثم تنازل الناصر داود عن الشوبك للكامل. ثم قام الكامل بتسليم دمشق لأخيه الملك الأشرف موسى، وتوجه الكامل إلى حماة فتسلمها، ومنها سار إلى البلاد الشرقية، ثم قرر العودة إلى مصر، فدخلها فى رجب سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م.

استقرت أحوال مصر والشام فى أواخر عصر الكامل محمد إلى أن توفى فى الثالث والعشرين من رجب سنة ٦٣٥هـ/مارس ١٢٣٨م، فخلفه فى السلطنة ابنه العادل الثانى، ولكن العادل لم يستقر طويلا على العرش لصغر سنه، ولانصرافه عن شئون الملك باللهو، مما جعل أمراء الدولة يتآمرون عليه، ويعزلوه، ونصبوا بدلا منه أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م. ولكن منذ اليوم الأول لحكم الصالح نجم الدين واجه عداءاً شديداً من عمه الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والذى تحالف مع الناصر داود صاحب الكرك، والملك المنصور صاحب حمص ضد نجم الدين أيوب، كما تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين، واتفق معهم على معاضدته ومساعدته ومحاربة نجم الدين أيوب، وأعطاهم قلعة الصفد وبلادها، وقلعة الشقيف وبلادها، وجميع إيرادات إمارة طبرية، وأن يتوقف المسلمون عن الإشراف الفعلى على بيت المقدس، وتسليم طبرية وعسقلان وكوكب إليهم، فتسلم الفرنج ذلك كله، وعمروا قلعتى طبرية وعسقلان وحصنوهما. وتسلموا الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى.

بعث الملك الصالح إسماعيل عسكراً إلى غزة، فنزلوا بها، ومضى الملك المنصور بنفسه إلى عكا، واجتمع بالفرنج، واتفق معهم على السير معه لقتال الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاضطر نجم الدين أن يواجه هذا التحالف الأيوبى الصليبى بالتحالف مع الخوارزميين وكان الخوارزميون قد تعرضوا لهجمات المغول المدمرة على دولتهم، ورغم مقاومتهم المستميتة فقد هزمهم المغول، فاضطروا إلى الفرار من وجههم واتجهوا إلى الغرب على هيئة جماعات، وأخذوا يغيرون بدورهم على الإمارات والممالك الإسلامية المجاورة خاصة فى إقليم الجزيرة وشمال الشام غارات مدمرة أشبه بغارات المغول، كما

أخذوا يعرضون خدماتهم الحربية على من يحتاج إليها ويقبلها من ملوك العالم الإسلامى، فاتصل بهم الملك الصالح نجم الدين أيوب وألحقهم بخدمته، وحرضهم على أعدائه من أمراء البيت الأيوبى والصليبيين فى الشام. فعبر الخوارزمية نهر الفرات فى نحو عشرة آلاف مقاتل. نحو بلاد الشام وهم ينهبون ويقتلون ويسبون، ولما سمع بذلك عساكر الملك الصالح إسماعيل الذين بغزة اضطروا للرجوع إلى دمشق، كما رحل الملك الناصر داود إلى الكرك. وواصل الخوارزمية سيرهم حتى وصلوا إلى بيت المقدس فى الثانى من صفر سنة ٦٤٢هـ/الحادى عشر من يوليو سنة ١٢٤٤م، فقرر الفرنج إجلاء الصليبيين عن المدينة، فدخلها الخوارزمية، وقتلوا من كان بها من النصارى، وسبوا النساء ، ونبشوا قبور النصارى، وأحرقوا جثثهم، ثم ساروا إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب يخبرونه بقدومهم فأمرهم بالإقامة فى غزة.

سيَّر نجم الدين أيوب عسكراً من مصر بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس، فسار إلى غزة، وانضم إلى الخوارزمية وفى الثانى عشر من جمادى الأولى سنة ٦٤٢هـ/السابع عشر من أكتوبر سنة ١٢٤٤م حدث اللقاء عند غزة بين الجيش المصرى ومعه الخوارزمية وبين جيوش ملوك الشام المتحالفين مع الفرنج، وتمكن الجيش المصرى الخوارزمى من إلحاق الهزيمة المريرة بالتحالف الشامى الصليبى، وسارع بيبرس بالاستيلاء على غزة والساحل، والقدس والخليل، وبيت جبريل والأغوار، ثم سقطت دمشق بعد حصار دام ستة أشهر فى الثامن من جمادى الأولى سنة ٦٤٣هـ/الأول من أكتوبر سنة ١٢٤٥م.

أما عن الخوارزمية، فقد انقلبوا على الصالح نجم الدين أيوب لأنهم لم يحصلوا على ما يكفيهم من الأسلاب والمغانم، ومال إليهم الأمير ركن الدين

بيبرس والناصر داود صاحب الكرك، كما سارع الملك الصالح إسماعيل بالانضمام إليهم، وحاصروا جميعاً دمشق وقطعوا عنها الإمدادات، فاشتد الغلاء بها، ومات كثير من الناس جوعاً، وأكل الناس القطط والكلاب والميتات، واستمر هذا البلاء ثلاثة أشهر. وهنا لجأ الصالح نجم الدين أيوب إلى أعمال الحيل، وأغرى الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص على الانضمام إليه، كما اتفق مع الحلبيين على محاربة الخوارزمية، ثم خرج نجم الدين أيوب بعساكره من مصر فى طريقه إلى الشام فلما علم الخوارزمية بمسير نجم الدين أيوب من مصر، ومسير الملك المنصور صاحب حمص بعساكر حلب، رحلوا عن دمشق، للقاء الملك المنصور، وقد حدث اللقاء بين الفريقين قرب حمص فى أول المحرم سنة ٦٤٤هـ.

وانهزم الخوارزمية هزيمة عنيفة، تبدد منها شملهم، ولم تقم لهم بعدها قائمة.

سيّر الصالح نجم الدين أيوب، عسكراً كبيراً على قيادة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ لمحاربة الناصر داود صاحب الكرك، فألحق فخر الدين الهزيمة بالناصر ومعه الخوارزمية، واستولى على جميع البلاد التابعة للناصر، حتى اضطر إلى طلب الأمان من فخر الدين، وفى العام التالى ٦٤٥هـ/١٢٤٧م استولى فخر الدين على طبرية من يد الفرنج ثم استولى على عسقلان وهدم حصونها.

وهكذا تمكّن الصالح نجم الدين أيوب من إعادة الوحدة السياسية إلى السلطنة الأيوبية فى مصر والشام ولكنه كان عليه التفرغ لمواجهة الخطر الصليبى الذى أصبح يهدد مصر ذاتها والمتمثل فى الحملة الصليبية السابعة.

الحملة الصليبية السابعة

«حملة لويس التاسع على مصر»

أحدث سقوط بيت المقدس واسترجاع المسلمين لها دوياً كبيراً فى أوروبا يذكرنا بالدوىّ المماثل الذى حدث فى أوروبا على إثر استرجاع صلاح الدين لها من أيديهم فى المرة الأولى فنشطت الدعوة فى أوروبا لإرسال حملة صليبية جديدة إلى الشرق لاسترجاعها، وقد تحمس الملك لويس التاسع ملك فرنسا لهذه الحملة تحمساً كبيراً وتصدى لحمل مسئوليتها وتولى قيادتها، ولعل تدينه الذى عرف به كان من بين الدوافع التى دفعته إلى ذلك، كما قيل أيضاً فى صدد تعليل تحمسه هذا أنه كان قد أصيب بحمى ملارية شديدة فى أوخر سنة ١٢٤٤م، ونذر أن يخرج على رأس حملة صليبية من فرنسا إذا هو شفى من مرضه، ولما تم شفاؤه، أعلن عن عزمه على الوفاء بنذره وحمل الصليب والذهاب لغزو الأراضى المقدسة إيماناً منه بأن الله منّ عليه بالشفاء ليقوم بهذه المهمة التى كرّس حياته من أجلها.

انعقد مجمع ليون الكنسى برئاسة الباب أنوسنت الرابع خلال الفترة من ٢٨ يونيو إلى ١٧ يوليو ١٢٤٥م/٦٤٣هـ لمناقشة أحوال الصليبيين فى الشرق الإسلامى وأصدر المجمع قراره بإرسال حملة صليبية إلى الشرق وإسناد قيادتها إلى الملك لويس التاسع ملك فرنسا. وقد استغرقت استعدادات لويس التاسع ثلاث سنوات بدأت بعقد مجمعاً كبيراً فى مدينة باريس فى نفس العام (١٢٤٥م/٦٤٣هـ) حضره المندوب البابوى آدون دى شاترو وكبار رجال مملكته ورجال الدين فيها من الأساقفة ورؤساء الأساقفة ورؤساء الأديرة وغيرهم. وخطب لويس التاسع فى الحاضرين داعياً إياهم إلى حمل الصليب، وتمكن بفصاحته من إثارة غيرتهم الدينية، وضرب لهم المثل لذلك إذ كان

أول من أدرج نفسه فى سجل الحرب المقدسة. وحذا حذوه كثير من الأمراء والأشراف، فبادر بالانضمام إلى الحملة أخوته الثلاثة روبرت كونت أرتوا، والفونس كونت بواتييه وشارل كونت أنجو، وكذلك هيج الرابع دوق برجنديا، ووليم دى دامبير أمير الأراضى الواطئة، وجوانفيل مؤرخ هذه الحملة وأحد فرسانها، وعدد كبير من البارونات وكبار رجال الإقطاع بفرنسا وفى طليعتهم بطرس كونت بريتانى وهيج العاشر كونت لامارش. كذلك شاركت الملكة مرجريت دى بروفانس زوجها لويس فى هذه الحملة، وحملت هى الأخرى شارة الصليب، واقتدت بها بعض النبيلات نذكر من بينهن زوجة كل من كونت بواتييه وكونت أرتوا. ثم عيّن الملك لويس الملكة الوالدة بلانش القشتالية لتحل محله فى شئون الحكم فى فرنسا أثناء غيابه بالشرق، كما حصل من الملك هنرى الثالث ملك إنجلترا على وعد بعدم قيام حرب بين فرنسا وإنجلترا فى تلك الأثناء، كما أرسل لويس إلى الإمبراطور فردريك الثانى وأحاطه علماً بما هو عازم على القيام به.

بدأت الاستعدادات فى فرنسا لإرسال الحملة الصليبية، غير أن البحرية الفرنسية لم تكن تمالك من السفن ما يكفى لنقل حملة حربية كبيرة عبر البحر المتوسط، ولذلك طلب لويس من جمهورية جنوا ومدينة مرسيليا تأجير سفنها لذلك الغرض وعقد معهما اتفاقيات بهذا الشأن. أما البندقية فقد رفضت تزويده بما يحتاج إليه من سفن خوفاً على مصالحها التجارية مع مصر والشام. كما أرسل لويس إلى جزيرة قبرص جماعة من رجاله لشراء وإعداد ما يحتاجه الجيش من الأطعمة والمؤونة، حتى يجدها معدة عند مروره بالجزيرة التى اعتبرت القاعدة التى تلتقى عندها الجيوش الصليبية الذاهبة إلى الشرق.

وأخيراً رحل الملك لويس التاسع من باريس إلى ميناء إيجور جنوبى فرنسا فى الثانى عشر من شهر أغسطس سنة ١٢٤٨م وكان مع الملك زوجته الملكة مرجريت وأخويه شارل كونت أنجو وروبرت كونت أرتوا، أما شقيقه الثالث ألفونسو كونت بواتييه فقد بقى فى فرنسا بعض الوقت لجمع نجدات وإمدادات أخرى ليلحق بالجيش الفرنسى فيما بعد. ومر لويس فى الطريق بمدينة ليون حيث كان يقيم البابا أنوسنت الرابع، حيث منحه البابا صك الغفران على آثامه. بعد ذلك غادر لويس وجيوشه ليون إلى إيجور، ومن هذا الميناء أبحر لويس على رأس الفوج الأول من الحملة فى الخامس والعشرين من شهر أغسطس ١٢٤٨م قاصداً قبرص التى وصلها فى السابع عشر من شهر سبتمبر ١٢٤٨م، فأرست سفنه فى ميناء ليماسول، حيث نزل الملك لويس والملكة مرجريت فى ضيافة هنرى الأول لوزينان ملك قبرص ورجاله وهناك وفد على الملك لويس التاسع من عكا نائب مقدم طائفة الفرسان الاسبتارية، ومقدم طائفة الفرسان الداوية، وكثيرمن الشخصيات الصليبية.

عقد الملك لويس التاسع اجتماعاً لكبار قواده، فاتفق الحاضرون على أن مصر هى الجديرة بالهجوم، وأن الاستيلاء عليها هو الكفيل بحل المسألة الصليبية على خير ما يتمنى العالم الصليبى الأوروبى الغربى، لأن مصر هى المركز الاستراتيجى الحامى لظهر الحركات الحربية الإسلامية، ضد الصليبيين ببلاد الشام، وهى المورد الوفير لتغذية هذه الحركات الحربية الإسلامية بالمال والرجال، كما أن الهجوم على مصر والاستيلاء على دمياط بالذات فيه محو للعار الذى لحق بالصليبيين بالجلاء عنها من قبل زمن الملك جان دى بريين. ثم إن لدمياط فى أيدى الصليبين قيمة يستطيع الملك لويس التاسع استخدامها للمساومة إذا عرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب شروطاً

للهدنة والمبادلة ببيت المقدس، على غرار ما حدث وتكرر أيام أبيه الملك الكامل محمد وفضلا عن ذلك فإن الاستيلاء على دمياط بإمكانياتها البحرية والتجارية سوف يضمن مكافأة الجمهوريات الإيطالية التى أسهمت بسفنها فى نقل جنود الحملة وعتادها من جنوب فرنسا إلى جزر قبرص، وسوف يغرى جمهورية البندقية وهى التى لم تشارك فى إعداد ونقل هذه الحملة بأن تشارك بسفنها فى العمليات الصليبية المقبلة، نظير ما عسى يصبح لها من مصالح فى دمياط بعد الاستيلاء عليها.

كان رأى الملك لويس التاسع أن يبحر على وجه السرعة إلى مصر، ولكن رؤساء الاسبتارية والداوية وكبار القواد أقنعوه بوجوب التأجيل إلى ما بعد انتهاء فصل الشتاء وعواصفه وأمطاره لصعوبة الرسو فى ذلك الفصل عند الشواطئ المصرية القليلة العمق، فضلا عن قلة المياه فى النيل وقنواته مما يجعل دخول السفن التموينية فى المياه الضحلة عملية قريبة من المستحيل كما أن الأسطول الفرنسى الذى أبحر بلويس التاسع من فرنسا لم يكن يحمل الجيش الفرنسى بأكمله، ولذلك كان لابد من الانتظار حتى يلحق به بقية الجيش.

وصلت أنباء تحركات لويس التاسع إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب خلال إقامته بدمشق وعساكره على حصار مدينة حمص، إذ بعث إليه الإمبراطور فردريك الثانى رسولا متنكراً فى زى تاجر يخبره بأن لويس التاسع عازم على المسير بجيوشه إلى مصر. فسارع نجم الدين أيوب بالمسير إلى مصر محمولا على الأكتاف فى محفة، فوصلها، ونزل بأشموم طناح يوم الثلاثاء ٣ صفر سنة ٦٤٧هـ/١٨ مايو سنة ١٢٤٩م فجعل من هذه البلدة الصغيرة معسكره الرئيسى، ومركز عملياته المقبلة.

رأى الصالح نجم الدين أيوب أن الصليبيين سوف يبدأون بالرسو على الشاطئ الغربى للنيل قبالة دمياط كما فعلت حملة جان دى بريين، ولذلك أمر بشحن دمياط بالذخائر والأقوات وآلات الحرب، كما بعث إلى نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبى على يأمره بتجهيز السفن البحرية وإرسالها على وجه السرعة إلى دمياط، فشرع فى تجهيزها وسيرها شيئاً بعد شئ، كما أرسل نجم الدين الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ على رأس جيش كبير ليعسكر فى البر الغربى لدمياط حتى يكون فى مقابلة الصليبيين عند وصولهم إلى دمياط.

أبحر لويس التاسع بحملته من ميناء ليماسول يوم الخميس ١٣ مايو ١٢٤٩م (المحرم سنة ٦٤٧هـ) نحو السواحل المصرية. وكانت عدتها ألفان وثمانمائة من الفرسان، عدا المشاة والبحارة والتابعين والملحقين بالجيش من غير الجند أى قرابة الخمسين ألفاً. وبلغ عدد السفن التى أقلعت بالحملة من قبرص ألف وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة ومتوسطة، غير أن رياحاً عاصفة شديدة لم تلبث أن هبت على السفن الصليبية وهى فى أول يوم لها فى عرض البحر، فشتت شملها، وجنحت معظمها صوب عكا وسواحل الشام، بحيث لم يصل مع لويس سوى ثلث عدد فرسانه فقط.

وفى الساعة الثانية من نهار يوم الجمعة ٢٠ صفر ٦٤٧هـ/٤ يونيو ١٢٤٩م، وصلت السفن الصليبية إلى الشواطئ المصرية وألقت مراسيها بالبر الغربى تجاه دمياط. وسارع لويس التاسع بالكتابة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب قائلا: «أما بعد، فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أنى أقول أنك أمين الأمة المحمدية، وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال

ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلى منهم الأديار. وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لى بكل الأيمان ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان، ما ردنى ذلك عن الوصول إليك، وقتالك فى أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لى، فهى هدية حصلت فى يدى، وإن كانت البلاد لك والغلبة على، فيدك العليا ممتدة إلىّ. وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا.» فلما وصل هذا الكتاب إلى نجم الدين أيوب، تأثر وأغرورقت عيناه بالدموع واسترجع ـ أى قال إنا لله وإنا إليه راجعون ـ . وأمر القاضى بهاء الدين زهير كاتب الإنشاء بكتابة الرد بخطه على كتاب لويس التاسع، قائلا فيه : «أما بعد، فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك، وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه، فلو رأت عيناك ـ أيها المغرور! ـ حد سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولابد أن تزل بك القدم، فى يوم أوله لنا وآخره عليك. فهنالك تسيء بك الظنون، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون، فإذا قرأت كتابى هذا، فكن فيه أول سورة النحل: «أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه» وكن على آخر سورة ص : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾. ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين : ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مع الصابرين﴾، وإلى قول الحكماء: إن الباغى له مصرع، وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك، والسلام».

وفى يوم السبت الحادى والعشرين من صفر سنة ٦٤٧هـ/الخامس من

يونيو ١٢٤٩م، نزلت العساكر الصليبية وعلى رأسها الملك لويس التاسع عند طرف جيزة دمياط على الشاطئ الغربى للنيل بعد مقاومة عنيفة من جانب المسلمين، بقيادة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، ثم استمرت المناوشات بين الفريقين، واستشهد من المسلمين بعض كبار الأمراء أمثال الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام والأمير صارم الدين أزبك الوزيرى.

أخطأ الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، حينما قرر فجأة الانسحاب من جيزة دمياط فى مساء يوم السبت، حينما أرسل بعض الخطابات عن طريق الحمام الزاجل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ولم يتلق منه رداً، فظن أنه قد مات ولاسيما أن نجم الدين أيوب كان مريضاً، فانسحب فخر الدين ليلا إلى الجانب الشرقى للنيل الذى تقع عليه مدينة دمياط، ولم يكتف بترك الجسر الذى كان يربط بين الجانبين الغربى والشرقى للنيل، بل ترك مدينة دمياط أيضاً وانسحب جنوباً إلى أشموم طناح حيث معسكر السلطان، فلما رأى أهل دمياط رحيل فخر الدين وعسكره، خرجوا من مدينتهم ليلا، ولم يبق بالمدينة أحد البتة، وفروا إلى أشموم طناح «وهم حفاة عراة جياع فقراء، حيارى بمن معهم من الأطفال والشيوخ». كما تركت حامية دمياط المؤلفة من بنى كنانة المدينة، ولحقوا بفلول الجيش إلى أشموم طناح أيضاً.

وفى صباح يوم الأحد الثانى والعشرين من صفر سنة ٦٤٧هـ/السادس من يونيو ١٢٤٩م، عبر جنود الحملة الصليبية النيل إلى دمياط على الجسر الذى تركه الأمير فخر الدين، فوجدوا أبواب دمياط مفتوحة ولا أحد يحميها فخشوا أن تكون مكيدة، فتمهلوا قليلا حتى أيقنوا أن ليس فى المدينة أحد للمقاومة، ثم دخلوا دمياط واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية، والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة والأقوات والأزواد والذخائر والأموال والأمتعة وغير ذلك.

وعندما وصلت فلول الجيش الإسلامى إلى أشموم طناح، غضب الملك الصالح نجم الدين، واشتد حنقه على الكنانيين، وأمر بشنقهم بعد أن استفتى الفقهاء فأفتوا بقتلهم، فشنق ما يزيد على خمسين من أمرائهم. كما اشتد غضبه على فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وكاد يقتله لولا أن الموقف لم يكن يحتمل حدوث انقسام فى الجبهة الإسلامية.

أمر الملك الصالح نجم الدين أيوب بالانسحاب من أشموم طناح إلى مدينة المنصورة فحمل فى حراقة، حتى وصل إلى قصره بالمنصورة يوم الثلاثاء ٢٤ صفر ٦٤٧هـ/٨ يونيو ١٢٤٩م فشرع الجند فى ترميم دورها وأبنيتها ونصبت بها الأسواق، وجددت أسوارها وخاصة المطلة على النيل، كما وصلت إليها السفن المحملة بالعدد والمقاتلة، ثم وفدت إليها كتائب من المتطوعة وطوائف العامة والعربان.

استقر لويس التاسع بمدينة دمياط، منتظراً مجىء بقية قوات الحملة التى بعثرتها الرياح إلى سواحل الشام، ويبدو أنه اعتقد أن جيوشه لن تكون كافية لهجوم كامل على المنصورة، حتى بعد وصول سفنه التى جنحت بها الرياح إلى سواحل الشام، فأرسل إلى فرنسا يطلب مجىء أخيه الثالث كونت بواتييه بقوات فرنسية وأسلحة ومؤونة إلى دمياط يضاف إلى ذلك أن لويس التاسع أراد أن يجنب حملته ويلات ما صادفته حملة جان دى بريين من مخاطر وأهوال بسبب زحفها أثناء موسم فيضان النيل. ولم يعلم لويس أن مياه الفيضان لا تصل إلى الدلتا قبل أواخر شهر يوليو من كل عام أى أنه كان باستطاعته أن يزحف جنوباً نحو القاهرة قبل ذلك الميعاد بمدة طويلة، كما أنه لم يعلم بأن صعوبات النقل بين البلاد المصرية فى العصور الوسطى تستمر إلى ما بعد أيام الفيضان بمدة غير قصيرة. ومع ذلك قرر لويس التاسع أن

يبقى بحملته فى دمياط،. مما أعطى الفرصة للملك الصالح نجم الدين أيوب وعساكره لمهاجمة الصليبيين بإغارات فدائية ليلية جرئية، ومنح مكافآت مالية ضخمة عن كل رأس من رؤوس الصليبيين يأتيه به أحد رجاله. كذلك وقع فى أسر المسلمين أعداد كبيرة من الأسرى الصليبيين كان الملك الصالح يرسلهم إلى القاهرة لعرضها فى شوارع القاهرة بهدف رفع الروح المعنوية فى أنحاء البلاد. ويعطينا المقريزى الكثير من الأمثلة عن أسرى الصليبيين وأعدادهم التى كانت ترسل للعرض فى شوارع القاهرة فيقول: «فلما كان يوم الاثنين سلخ شهر ربيع الأول (٦٤٧هـ)، وصل إلى القاهرة من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العرب ستة وثلاثون أسيراً منهم فارسان. وفى خامس شهر ربيع الآخر وصل سبعة وثلاثون أسيراً، وفى سابعه وصل اثنان وعشرون أسيراً، وفى سادس عشرة وصل خمسة وأربعون أسيراً، منهم ثلاثة من الخيالة. «وفى ثامن عشر جمادى الأولى خمسون أسيراً. وفى ثالث عشر شهر رجب وصل إلى الاقهرة سبعة وأربعون أسيراً من الفرنج، وأحد عشر فارساً منهم».

بدأ لويس التاسع يستعد للتحرك من دمياط ولاسيما بعد وصول أخيه الفونسو كونت بواتييه، فعقد لويس مجلس حرب لتقرير خطة الزحف، فاقترح بطرس كونت بريتانى ومعه غالبية البارونات ومعظم قواد الجيش أن يكون المسير نحو الإسكندرية أولا ومنها إلى القاهرة، وكان اقتراحاً طيباً وجيهاً لأن ميناء الإسكندرية أكبر حجماً من ميناء دمياط ويستطيع أن يأوى عدداً كبيراً من سفنهم كما أن ميناء الإسكندرية أقرب إلى أوروبا وموانئ فرنسا من ميناء دمياط ولذلك يمكنهم الحصول بسرعة وسهولة على الإمدادات من أوروبا وفرنسا. ولكن الكونت أرتوا ـ أخى الملك لويس ـ رفض هذا الاقتراح وقرر أن يسير إلى القاهرة مباشرة والاستيلاء عليها، إذ أن سقوط القاهرة سيتبعه سقوط

بقية المدن المصرية بحكم أنها حاضرة الدولة الأيوبية، وانضم لويس التاسع إلى أخيه الكونت أرتوا، وقرر المسير إلى القاهرة.

وأخيراً وفى يوم السبت الثانى عشر من شعبان ٦٤٧هـ/العشرين من نوفمبر ١٢٤٩م، خرجت الحملة من دمياط بعد أن ترك لويس بها حامية قوية ومعها الملكة مرجريت، وسارت فى نفس الطريق الذى سلكته من قبل حملة جان دى برين.

توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب يوم الاثنين الموافق ليلة النصف من شعبان ٦٤٧هـ/الثانى والعشرين من نوفمبر ١٢٤٩م، بعد أن عهد لولده المعظم تورانشاه بالسلطنة فى مصر، مع بقاء الأمير حسام الدين بن أبى علي في وظيفة نيابة السلطنة بالقاهرة، والأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ على القيادة العليا للجيش فى المنصورة. ويبدو أن الملك الصالح نجم الدين أيوب قد رتب ذلك كله مع زوجته شجر الدر، وهو على فراش الموت، بدليل أنه عقب وفاة الملك الصالح مباشرة استدعت شجر الدر إليها الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، والطواشى جمال الدين محسن وكان من أقرب الناس إلى نجم الدين أيوب ووظيفته النظر فى شئون القصر والحاشية وأعلمتهما دون سواهما بالوفاة، وأوصتهما بكتمان الخبر عن جميع رجال الدولة والناس حتى يحضر تورانشاه أولا من ولايته بحصن كيفا لاستلام مقاليد السلطنة وحرصاً على بقاء خبر الوفاة مكتوماً تام الكتمان، كلفت شجر الدر جماعة الأطباء الذين يمكن الاعتماد عليهم فى حفظ هذا السر، بالقيام بأنفسهم بتغسيل جثمان السلطان، ثم أرسلت شجر الدر الجثمان بعد تحنيطها فى تابوت على ظهر سفينة ليلا إلى قلعة الروضة، حيث دفنت فى هدوء . فى نفس الوقت الذى أعلنت فيه شجر الدر أن السلطان مريض لا يزوره أحد

سوى أطباؤه، وظلت الأوامر والمكاتبات السلطانية تخرج من المعسكر السلطانى وعليها توقيع السلطان وقد قيل أن السلطان قد قام بتوقيعها قبل وفاته وقيل أن خادمًا اسمه سهيل كان يتقن تقليد التوقيع السلطانى. وظل السماط السلطانى يمد كالعادة، كما كان الأمراء يدخلون إلى السماط ويأكلون وينصرفون كل يوم كالمعتاد، وكانت شجر الدر تبرر تغيب السلطان بقولها : «السلطان مريض، ما يصل إليه أحد».

وفى نفس الوقت استحضرت شجر الدر أمراء الجيش إلى المعسكر السلطانى بالمنصورة، وأعلنت فيهم خبر مرض السلطان ورغبته فى تحليف الأمراء له ولابنه تورانشاه بعده، وللأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بالقيادة العامة عنى الجيش المصرى كله، مع اشتراك الأمير فخر الدين كذلك فى تدبير أمور الحكم، فأجاب جميع الحاضرين بالسمع والطاعة، وحلفوا على ذلك، وأرسلت شجر الدر مرسومًا إلى الأمير حسام الدين بن أبى علي نائب السلطنة بالقاهرة لشرح ما تم من تحليف أمراء الجيش، وزعماء المماليك، فقام الأمير حسام الدين بن أبى علي بتحليف أكابر رجال الدولة بالقاهرة للملك الصالح نجم الدين أيوب ولابنه الملك المعظم تورانشاه بولاية العهد من بعده وأصبح يخطب على المنابر للملك المعظم تورانشاه بعد أبيه الملك الصالح، كما نقش اسمه على الدنانير والدراهم بعد اسم أبيه.

أرسلت شجر الدر الأمير فارس الدين أقطاى لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا، كما بعث الأمير حسام الدين بن أبى علي نائب السلطنة بالقاهرة رسولا آخر من عنده لإحضار تورانشاه، ووصل رسول الأمير حسام الدين إلى حصن كيفا، وأخبر الملك المعظم بأن المصلحة العليا تتطلب سرعة عودته إلى مصر، لأن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ طامعًا فى الاستيلاء

على السلطنة ثم وصل إليه بعد ذلك رسول شجر الدر، فخرج الملك المعظم من حصن كيفا فى الحادى عشر من رمضان سنة ٦٤٧هـ فى طريقه إلى مصر.

تقدم الفرنج فى محاذاة النيل حتى وصلوا إلى قرية فارسكور يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٤٧هـ/الموافق الثانى من ديسمبر ١٢٤٩م دون أن يلقوا فى طريقهم أى مقاومة عسكرية، ما عدا صعوبات الزحف الحربى فى أرض شمال الدلتا، وهى صعوبات لابد منها حتى بعد انتهاء موسم فيضان النيل بمدة طويلة، فلما وصلت أخبار نزول الفرنج بفارسكور إلى معسكر المنصورة، سارع الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بإبلاغ القاهرة بتلك الأخبار فى رسالة من إنشاء الكاتب الشاعر بهاء الدين زهير يحض فيها الناس جيمعًا على الجهاد افتتحها بالآية القرآنية الكريمة : ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً، وجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بأموالِكُم وأَنْفُسِكُم، ذَلِكَ خيرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُم تعْلَمُونَ﴾ وقرئت هذه الرسالة على الناس فى صلاة الجمعة بالجامع الأزهر الشريف. وكان لهذه الرسالة أثرها إذ أوضحت للناس ضرورة تقديم كل المساعدات الممكنة للقوات المصرية المدافعة عن المنصورة حتى تستطيع هذه القوات المقاومة والثبات ضد الزحف الصليبى.

وفى يوم الثلاثاء أول رمضان ٦٤٧هـ/الثامن من ديسمبر ١٢٤٩م التحمت القوات المصرية مع القوات الصليبية فى قتال شديد انتهى بانتصار الصليبيين، واستشهد فيها الأمير العلامى أمير مجلس وجماعة من الأجناد. ثم تقدم الصليبيون فى نفس اليوم إلى قرية شارمساح وهى على مسافة عشرين كيلو مترًا تقريبًا جنوبى فارسكور، وفى يوم الثلاثاء السابع من رمضان ٦٤٧هـ/الرابع عشر من ديسمبر ١٢٤٩م وصل الصليبيون إلى قرية البرامون

وهى على مسافة عشرة كيلو مترات تقريباً جنوبى شارمساح، فاضطرب الناس وزلزلوا زلزالاً شديداً، ثم واصل الصليبيون سيرهم حتى نزلوا قبالة الجيش الإسلامى يوم الاثنين الثالث عشر من رمضان ٦٤٧هـ/الموافق العشرين من ديسمبر ١٢٤٩م بحيث لم يكن يفصل بين الجيشين الإسلامى والصليبى سوى بحر أشموم طناح.

بدأ الصليبيون يحصنون معسكرهم، فحفروا حوله خندقًا، وابتنو سوراً وستروه بالستائر ونصبوا المجانيق ليرموا بها على معسكر المسلمين، وأنزلوا شوانيهم بإزائهم فى نهر النيل، بينما وقفت الشوانى الإسلامية أمام المنصورة، وسرعان ما وقع القتال بين الفريقين براً وبحراً. ففى نفس اليوم الذى وصل فيه الجيش الصليبى قبالة المنصورة أى يوم الاثنين ١٣ رمضان ٦٤٧هـ./الموافق للعشرين من ديسمبر ١٢٤٩م، عبرت فرقة استطلاعية صغيرة من الخيالة المصرية الأيوبية بحر أشموم طناح، وبغتت هذه الفرقة الاستطلاعية جنود الصليبيين فى معسكرهم وعادت من حيث أتت بعد أن فقدت من رجالها عدداً مات غرقًا فى الماء أثناء محاولتهم الفرار. ثم أرسل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ سرية كبيرة عبرت بحر أشموم طناح بعد خمسة أيام من عودة سريته الأولى أى يوم السبت ١٨ رمضان ٦٤٧هـ/الموافق ٢٥ ديسمبر ١٢٤٩م «وهو يوم عيد الميلاد، والصليبيون مشغولون بالعيد وصلواته وولائمه، وهاجمت السرية الإسلامية المعسكر الصليبى وألحقت بالمدافعين عنه خسائر كبيرة. ومنعًا لتكرار هذه الحوادث أمر الملك لويس التاسع بالإسراع فى إتمام حفر الخندق وبناء السور، ولذا لم يلبث المعسكر الصليبى أن بدا بعد إتمام عمليات حفر الخندق وبناء السور، كأنه جزيرة حصينة مسورة يحيط بها الماء من جميع الجهات.

تطورت الحرب بين الطرفين إلى مناوشات منها ما حدث يوم الجمعة أول شوال سنة ٦٤٧هـ/السابع من يناير ١٢٥٠م وقد عاد جنود المناوشة الأولى بأحد الكونتات الفرنسيين أسيراً إلى المعسكر الإسلامى ويصف المقريزى هذه المناوشات وما حدث فيها بقوله : «وما من يوم إلا ويقتل من الفرنج ويؤسر، وقد لقوا من عامة المسلمين وسوابلهم نكاية عظيمة وتخطفوا منهم وقتلوا كثيراً. وكانوا إذا شعروا بالفرنج ألقوا أنفسهم فى الماء وسبحوا إلى أن يصيروا فى بر المسلمين». وفى يوم الخميس السابع من شوال سنة ٦٤٧هـ/ الثالث عشر من يناير ١٢٥٠م استولى المسلمون على شينياً فيه نحو مائتى رجل من الصليبيين على رأسهم كونت كبير. وفى يوم الخميس الرابع عشر من شوال ٦٤٧هـ/العشرين من يناير ١٢٥٠م، هاجمت قوة إسلامية المعسكر الصليبى وقتلوا أربعين فارساً صليبياً وعدداً كبيراً من خيلهم، كما أسروا سبعة وستون أسيراً منهم ثلاثة من أكابر الداوية.

أدرك الملك لويس التاسع استحالة استمرار تلك المناوشات التى فقد فيها الكثير من رجاله، ورأى أنه لابد من الالتحام مع المسلمين فى معركة حاسمة تحدد مصير الحملة الصليبية. وقرر بناء جسر على بحر أشموم كى تعبر عليه قواته إلى المعسكر الإسلامى فى المنصورة. وبدأ بالفعل فى تشييد هذا الجسر، ولكن الفرنج لم يكادوا يتمون بضعة أمتار من الجسر إلا وتعرضوا لوابل من قذائف المجانيق بالإضافة إلى قذائف النار الإغريقية التى أنزلت الرعب فى قلوب الصليبيين.

واستدعى الملك لويس التاسع إليه بارونات الجيش وقادته، وعقد مجلساً حربياً لبحث ما ينبغى اتخاذه من خطة جديدة بعد أن اتضحت استحالة تشييد جسر للعبور إلى معسكر المنصورة مادام الجيش المصرى الأيوبى قادراً على

توسيع مجرى بحر أشموم طناح من الناحية الجنوبية بقدر تضييقه من ناحية الصليبين، ومادامت القذائف المصرية قادرة على إحراق المعدات الصليبية لتشييد هذا الجسر، وبينما المناقشة تجرى، حضر إلى المعسكر الصليبى أحد البدو دل الفرنسيين على مخاضة فى بحر أشموم طناح تعرف باسم مخاضة سلمون قريبة من المعسكر الصليبى. ثم جمع الملك لويس التاسع مجلسه الحربى مساء يوم الاثنين الثالث من ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ/السابع من فبراير ١٢٥٠م لشرح خطته التى رتبها على مشروع عبور مخاضة سلمون، واستقر الرأى النهائي على أن يعبر الملك لويس التاسع وأخوته الثلاثة والفرسان والخيالة الصليبية وطائفة الفرسان الداوية مخاضة سلمون فجر الثلاثاء الرابع من ذى القعدة ٦٤٧هـ/الثامن من فبراير ١٢٥٠م فى ثلاث وحدات كبرى على رأس كل منها أحد أخوة الملك لويس على حين يظل هيو الرابع دوق برجنديا وبارونات قبرص والشام بفئات خيالتهم وفئات المشاة والرماة الصليبية فى مواضعهم لحراسة المعسكر الصليبى واستكمال بناء الجسر لتعبر الرجالة عليه وتلحق بقائدها فى المنصورة. وصدرت تعليمات مشددة من الملك لويس التاسع بأن تقف كل مقدمة الجيش الصليبى بعد عبورها مخاضة سلمون فى موضعها حتى تصل إليها تعليمات جديد من الملك لويس التاسع، والانتظار حتى تعبر القوة الرئيسية من الفرسان تحت قيادة الملك لويس.

عبرت القوات الصليبية مخاضة سلمون فجر يوم الثلاثاء الرابع من ذى القعدة ٦٤٧هـ/الموافق للثامن من فبراير ١٢٥٠م، وتمكنت مقدمة الجيش الصليبى التى كان يقودها الكونت أرتوا من التغلب على ثلاثمائة من الخيالة المصرية، ثم انطلق إلى داخل مدينة المنصورة قبل أن تبدأ بقية وحدات الجيش الصليبى من عبور المخاضة، فخالف بذلك تعليمات أخيه الملك لويس التاسع.

سمع الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بأنباء الهجوم الصليبى على المعسكر الإسلامى بالمنصورة ـ وكان وقتئذ فى الحمام، فسارع بالخروج، وركب فرسه من غير اعتداد ولا تحفظ، ليأمر الجند المصرى بالركوب للقتال، وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده، غير أن الفرسان الداوية أحاطوا به، ففر من كان معه، وتركوه وهو يدافع عن نفسه، فطعنه أحدهم برمح فى جنبه، فسقط عن فرسه، فتكاثروا عليه وقتلوه، واستولوا على معسكر المسلمين بقرية جديلة.

قرر الكونت أرتوا بعد أن استولى على المعسكر الإسلامى اقتحام مدينة المنصورة نفسها والاستيلاء على القصر السلطانى، فأصدر أوامره بدخول المنصورة من ناحية القصر السلطانى، ولم يكد أرتوا يقترب من القصر حتى صدرت أوامر الأمير بيبرس البندقدارى قائد فرقة المماليك البحرية بتطويق الجيش الصليبى وتدميره، ومطاردة فلوله فى كل أنحاء المنصورة، وقد أسهم أهل المنصورة فى هزيمة الصليبيين فقد تعقبوا فلول الصليبيين فى الشوارع والأزقة وأخذوا يرمونهم بالقذائف والأحجار والطوب من الأسطح والنوافذ، وانتهت المعركة بتدمير فرقة الكونت أرتوا ولم ينج أرتوا نفسه من القتل. وبلغ عدد القتلى من الصليبيين فى هذه المعركة ثلاثمائة تقريبًا من فرقة كونت أرتوا، ومثل ذلك العدد من الداوية ومثله مرة أخرى من الفرقة الإنجليزية بما فى ذلك قائدها وليام سالسبرى وهو الذى اشتهر فى المراجع الأجنبية بلقب طويل السيف، أما وليام سوناق رئيس الداوية فلم ينله من هذه المعركة سوى أنه فقد إحدى عينيه.

وفى الوقت الذى كانت تجرى معركة المنصورة، كانت باقى فرق الجيش الصليبى تعبر مخاضة سلمون دون أن تدرى بما حدث فى المنصورة،

وأخذت تستعد لاستكمال بناء الجسر لتعبر الرجالة إليه. وهنا دارت معركة عنيفة بين الفريقين، استخدمت فيها السيوف والدبابيس والحراب، وتكبد الصليبيون فيها خسائر فادحة، فأشار أحد قواد لويس التاسع عليه بالارتداد إلى الضفة الجنوبية لبحر أشموم طناح ليكون على مقربة من معسكره بقيادة دوق برجنديا الذى يرابط على الضفة المواجهة، وفى أثناء ارتداد الملك لويس التاسع تعرض لهجمات متتالية من جانب القناصة المسلمين حتى إن الملك لويس نفسه كاد يذهب وميمنته غرقى فى بحر أشموم طناح ثم استطاع أخيراً أن يصل إلى معسكر جديلة، وبدأ على الفور فى إقامة قنطرة مؤقتة لاستكمال الجسر الذى عجزت عن إتمامه جميع المحاولات السابقة، ثم كمل إعداد الجسر بإقامة هذه القنطرة المؤقتة، وغدا الجسر صالحاً للعبور.

قرر المسلمون خوض المعركة الحاسمة مع الصليبيين يوم الجمعة السابع من ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ/الموافق الحادى عشر من فبراير ١٢٥٠م فوضع القائد بيبرس البندقدارى خطة الهجوم على المعسكر الصليبى وهى خطة تدل على مهارته وكفاءته الحربية، إذ قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول عبارة عن جبهة تشبه قوساً من الفرسان والخيالة بلغت عدتها أربعة الآلاف ومن خلفهم القسم الثانى المكون من المشاة والرماة أما القسم الثالث فكان عبارة عن جموع احتياطية هائلة لمساعدة الفرسان والمشاة إذا اقتضت الضرورة ذلك. أما الجيش الصليبى فكان تنظيمه على أساس ميمنة وقلب وميسرة، وفى الميمنة جعل الملك لويس أخاه شارل كونت أنجو، وفى القلب وقف الملك لويس التاسع، وفى الميسرة وقف ألفونسو كونت بواتييه.

اندفع المسلمون من جميع الجهات نحو المواقع الصليبية فى وقت واحد، ونجحوا فى تحليم ميمنة الجيش الصليبى التى كان يقودها شارل

كونت أنجو، فاضطر الملك لويس التاسع أن يخرج بنفسه لإنقاذ أخيه كونت أنجو، وتحول الهجوم المصرى إلى القلب الصليبى، وألحقوا به خسائر فادحة، وأبادوا بقية الداوية والاسبتارية، أما الميسرة وعلى رأسها ألفونسو كونت بواتييه فقد تعرضت لهجمات متتالية أدت إلى تدميرها ووقوع كونت بواتييه أسيراً، ولكن سرعان ما صمد الصليبيون وأنقذوا كونت بواتييه. فلما حلّ الليل انسحب المسلمون بعد أن صدهم الفرنسيون على طول خط القتال.

وصل الملك المعظم تورانشاه إلى المنصورة يوم الجمعة الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ/الموافق الخامس والعشرين من فبراير ١٢٥٠م، ونزل بقصر أبيه، وأخذ تورانشاه يستعد لتوجيه الضربة القاضية للصليبيين، ولجأ إلى نفس الخطة الحربية التى اتبعها من قبل جده الملك الكامل محمد أثناء الحملة الصليبية الخامسة، فأمر بأن تصنع عدة سفن، وحملت هذه السفن مفككة على الجمال إلى بحر المحلة، حيث أعيد تركيبها وشحنها بالمقاتلة وسارت شمالا، حيث كمنت بالمرصاد للسفن الصليبية التموينية التى يعتمد الصليبيون على وصولها إليهم من دمياط، فلما جاءت سفن الصليبيين تحمل المؤن من دمياط خرجت عليها السفن الإسلامية وقاتلتها واستولت على اثنتين وخمسين سفينة صليبية وبلغ عدد القتلى والأسرى من الصليبيين قرابة الألف كما غنم المسلمون ما فى السفن الصليبية من الأزواد والأقوات بينما حمل الأسرى على الجمال إلى المعسكر الإسلامى، فانقطع المدد من دمياط عن الصليبيين، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب، ثم دارت معركة ثانية بين المراكب الإسلامية والصليبية يوم الاثنين غرة ذى الحجة عام ٦٤٧هـ/السابع من مارس ١٢٥٠م، استولى فيها الصليبيون على سبع حراريق من المراكب الإسلامية

كانت موجودة فى بحر المحلة، ولكن نجا من كان فيها من المسلمين، وفى يوم الثلاثاء التاسع من ذى الحجة عام ٦٤٧هـ/الخامس عشر من مارس ١٢٥٠م، استولى المسلمون على اثنتين وثلاثين مركبًا صليبية محملة بالحبوب والأعلاف والمؤن ومن ضمنها سبع شوانى صليبية حربية للحراسة. فاشتد الغلاء عند الصليبيين، وأخذوا فى مراسلة الملك المعظم تورانشاه يطلبون منه الهدنة فاجتمع برسلهم الأمير زين الدين أمير جاندار، وقاضى القضاة بدر الدين السنجارى وعرض رسل الملك لويس التاسع أن يسلموا دمياط للمسلمين ويأخذوا عوضًا عنها مدينة بيت المقدس وبعض المدن الساحلية بالشام، ولكن رفضت كل مطالبهم.

رأى الملك لويس التاسع الانسحاب بالجيش الصليبى كله فى البر والنهر إلى دمياط، وأن يكون البدء فى تنفيذ هذه الخطة مساء الثلاثاء غرة المحرم سنة ٦٤٨هـ/الخامس من أبريل ١٢٥٠م، وقد حرص الصليبيون على إشعال النار فيما لديهم من أخشاب ومراكب كى لا ينتفع بها المسلمون. ثم شرع الصليبيون فى الانسحاب غير أنهم ارتكبوا خطأ كبيراً عندما تركوا الجسر الذى شيدوه على بحر أشموم طناح سليماً، فاغتنم المسلمون الفرصة، وعبروا الجسر خلف الصليبيين، حيث دارت معارك رهيبة بين الفريقين استمرت طوال ليلة الثلاثاء وصباح الأربعاء الثانى من المحرم ٦٤٨هـ/السادس من أبريل ١٢٥٠م حتى وصلا إلى قرية فارسكور حيث حلت بالصليبيين عند فارسكور الكارثة الأخيرة التى يصفها المقريزى بقوله : «فطلع صباح نهار يوم الأربعاء، وقد أحاط بهم المسلمون، وبذلوا فيهم سيوفهم، واستولوا عليهم قتلا وأسراً. فبلغت عدة القتلى عشرة آلاف فى قول المقل، وثلاثين ألفًا فى قول المكثر وأسر من خيالة الفرنج ورجالتهم المقاتلة، وصناعهم وسوقتهم ما

يناهز مائة ألف إنسان. وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة». وفر الملك لويس التاسع مع عدة من أكابر قواده إلى قرية تدعى منية أبي عبد الله (وهي قرية صغيرة لا تزال موجودة إلى اليوم على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط بين شارمساح وفارسكور وهي التي تعرف اليوم باسم ميت الخولي عبد الله)، ولكن سرعان ما طلب الملك لويس وقواده الأمان، فأمنهم الطواشي جمال الدين محسن الصالحي، ونزلوا على أمانه، وأخذوا إلى المنصورة، فأنزل الملك لويس في دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان ـ كاتب الإنشاء ـ التي كان ينزل بها حينما يأتي إلى المنصورة، ووكل بحفظه الطواشي صبيح المعظمي كما نزل معه في نفس الدار أخواه شارل كونت أنجو وألفونسو كونت بواتييه. وقد أحسن تورانشاه إلى لويس التاسع وأخويه وكبار باروناته، ومن أمثلة ذلك أن تورانشاه أرسل خلعًا إلى لويس التاسع إلا أنه رفض لبسها، كما دعاه تورانشاه إلى وليمة عظيمة ولكنه امتنع عن حضورها.

أخذ تورانشاه يجرى مفاوضاته مع الصليبيين، وعرض عليهم الحصول على بعض المعاقل الصليبية في بلاد الشام أو الحصول على قلاع الداوية والاسبتارية في الشام، ولكن لويس التاسع رفض هذين الاقتراحين، كما حاول تورانشاه إجراء مفاوضات مع قواد بارونات الحملة الصليبية وعرض عليهم الاقتراحين اللذين سبق وعرضهما على الملك لويس التاسع إلا أنهم رفضوا الاقتراحين. فأدرك تورانشاه استحالة الحصول على بعض معاقل الصليبيين أو معاقل الداوية والاسبتارية فتنازل عن هذا الاقتراح، وعرض اقتراحًا جديداً على لويس التاسع يقوم على أساس تعهد لويس التاسع بدفع مبلغ كبير من المال في سبيل إطلاق سراحه مع أخويه وباروناته بالإضافة إلى

الجلاء الكامل عن دمياط، فوافق الملك لويس التاسع على هذا الاقتراح، وتم عقد معاهدة الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات وفقاً للشروط الآتية:

أولا : أن يسلم الملك الفرنسى مدينة دمياط إلى المسلمين فدية عن نفسه، مبيناً أن مقامه من الشهرة بحيث لا يصح أن تقدر فديته بمال.

ثانياً : أن يدفع الملك لويس مبلغ ثمانمائة ألف بيزنط (وهى عملة ذهبية بيزنطية) فدية عن باقى الأسرى الفرنسيين وعوضاً عن الخسائر والمصاريف التى تكبدها المصريون منذ استيلاء الفرنسيين على دمياط.

ثالثاً : أن يطلق لويس سراح جميع المسلمين الذين أسرهم الفرنسيون خلال هذه الحملة، وأولئك الذين أسرهم الصليبيون فى الأراضى المقدسة منذ صلح يافا الذى عقد بين الإمبراطور فردريك الثانى والملك الكامل محمد جد المعظم تورانشاه.

رابعاً : أن يعمل الصليبيون على حفظ الأمن وإقرار السلام فى جميع البلاد التى يحتلونها فى فلسطين.

خامساً : أن يتعهد سلطان مصر بإطلاق سراح جميع من وقع فى قبضة المسلمين من الفرنسيين منذ وصولهم إلى الشاطئ المصرى.

سادساً : إخلاء سبيل جميع الصليبيين الذين أسرهم المسلمون منذ الهدنة التى عقدت بين الإمبراطور فردريك والملك الكامل.

سابعاً : أن يتعهد السلطان بحراسة جميع عتاد الفرنسيين وأثقالهم الموجودة بدمياط بعد رحيلهم عنها إلى أن تسنح الفرصة لنقلها إلى البلاد المسيحية.

ثامناً: أن يمنح جميع المرضى من المسيحيين وغيرهم ممن سيبقون فى دمياط لبيع ما يمتلكون أماناً مماثلا، على أن يرحلوا إما عن طريق البر أو عن طريق البحر متى شاءوا دون أن تقام فى وجوهم عقبات أو عراقيل.

وقد أقسم الطرفان بالمحافظة على هذه الهدنة وعدم الإخلال بها.

رحل الملك المعظم تورانشاه من المنصورة إلى فارسكور وضرب بها الدهليز (أى الخيمة) السلطانى، وأقام فيه برجًا خشبيًا، كان يصعد إليه ليشرف على العسكر والقرية كلها. كذلك نقل الملك لويس وكبار الأسرى من الفرنسيين فى أربع سفن، وعندما وصلت إلى فارسكور، ألقت بمراسيها بالقرب من الشاطىء قبالة الدهليز السلطانى فى يوم الخميس الرابع والعشرين من المحرم سنة ٦٤٨هـ/الثامن عشر من شهر أبريل سنة ١٢٥٠م، وسرعان ما نصبت خيمة كبيرة بالقرب من خيمة الملك تورانشاه نزل بها الملك لويس التاسع.

بعث تورانشاه بأخبار هزيمة الملك لويس التاسع ووقوعه أسيرًا فى رسالة طويلة إلى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة بدمشق، ونصها: «من ولده تورانشاه، الحمد لله الذى أذهب عنا الحَزَنَ، وما النصرُ إلا منْ عند الله، ويومئذ يفرحُ المؤمنونَ بنصرِ الله، وأمَّا بنعمة ربِّكَ فحدِّث، وإنْ تَعُدُّوا نعمَةَ الله لا تُحْصُوها. نبشر المجلس السامى الجمالى، بل نبشر المسلمين كافة بما منَّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين. فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا لا تيأسوا من روح الله. ولما كان يوم الثلاثاء مستهل السنة المباركة، تمم الله على الإسلام بركتها، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقًا لا يعلمهم إلا الله، فجاءوا من كل فج عميق، ومكان سحيق. فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين ومازال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل، وحل بهم الخزى والويل، فلما أصبحنا يوم الأربعاء، قتلنا منهم ثلاثين ألفًا، غير من

ألقى نفسه فى اللجج، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج. والتجأ الفرنسيس إلى المنية، وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته، وجلاله وعظمته»./ وبعث الملك المعظم تورانشاه مع الرسالة غفارة (معطف) الملك لويس التاسع وكانت هذه الغفارة مصنوعة من الصوف، قرمزية (أى حمراء) اللون ومبطنة بالفراء، فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور، ورآه المؤرخ أبو شامة وهو يحتفل بعرضها على الناس فى احتفال كبير بدار نيابة السلطنة بدمشق وذلك يوم الأربعاء السادس عشر من المحرم سنة ٦٤٨هـ/الموافق للعشرين من أبريل سنة ١٢٥٠م فقال الشاعر نجم الدين محمد بن إسرائيل فى هذه المناسبة:

إن غفارة الفرنسيس التى جاءت ∴ فهى حقًا لسيد الأمراء
كبياض القرطاس لونًا ولكن ∴ صبغتها سيوفنا بالدماء

وقال شاعر آخر:

أسيد أملاك الزمن بأسرهم ∴ تنجزت من نصر الإله وعوده
فلازال مولانا يبيح حمى العدى ∴ ويلبس أسلاب الملوك عبيده

أخذ الملك المعظم تورانشاه يتخلص من كبار قواد الدولة، فأخرج الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل بن الكامل محمد من قلعة الجبل إلى قلعة الشوبك واعتقله بها. وأخرج الملك السعيد فخر الدين حسن بن الملك العزيز عثمان بن العادل من مصر إلى دمشق، فلما وصلها، قبض عليه جمال الدين بن يغمور واعتقله. وأرسل فى استدعاء الأمير حسام الدين بن أبى علي نائب السلطنة فى القاهرة وأقام مكانه فى نيابة السلطنة بالقاهرة الأمير جمال الدين

أقوش النجيبى. كما بعث إلى شجر الدر يتهددها، ويطالبها بمال أبيه وما تحت يدها من الجواهر. كما تنكر لفارس الدين أقطاى الذى ذهب بتعليمات من شجر الدر لإحضار تورانشاه من حصن كيفا، وكان قد وعده بمنحه لقب أمير وتعيينه على نيابة الإسكندرية، مما أغضب أقطاى. كما أعرض عنه كثير من كبار الأمراء، لعزله رجال الدولة القدامى عن وظائفهم واحداً بعد أخر، وأحل محلهم رجالا من بطانته التى جاءت معه من حصن كيفا، فجعل الطواشى مسروراً ـ وهو خادمه ـ استادار السلطان، وأقام صبيحًا ـ وكان عبداً حبشيًا ـ أمير جاندار وأنعم عليه بأموال كثيرة وإقطاعات جليلة، وأمر أن تصاغ له عصا من الذهب، وأخذ يتوعد المماليك، حتى قيل أنه سكر يومًا، فضرب بسيفه رؤوس الشموع حتى تتقطع ويقول: «هكذا أفعل بالبحرية». ويسمى كل واحد منهم باسمه. وهكذا اجتمع الجميع ـ سواء كانت شجر الدر أو أمراء الدولة وزعماء المماليك ـ على ضرورة التخلص من تورانشاه.

وفى يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٤٨هـ/الموافق للثانى من مايو ١٢٥٠م مد السماط بفارسكور وجلس تورانشاه على عادته ليتناول طعامه، فتقدم إليه القائد بيبرس البندقدارى، وضربه بالسيف، فتلقاه تورانشاه بيده، فقطع بعض أصابعه، فأسرع إلى البرج الخشبى الذى نصب له بفارسكور وهو يصيح : «من جرحنى؟» فقالوا : «الحشيشية»، فقال: «لا والله إلا البحرية! والله لا أبقيت منهم بقية!» وضمد جرحه، فاجتمع أمراء المماليك وقرروا قتله، فدخل عليه ركن الدين بيبرس وفارس الدين أقطاى وغيرهما من أمراء المماليك البحرية وهم شاهرون سيوفهم، ففر تورانشاه إلى أعلى البرج، وأغلق بابه، والدم يسيل من يده، فأضرموا النار فى البرج، ورموه بالنشاب، فألقى نفسه من أعلى البرج، وتعلق بملابس فارس الدين أقطاى،

واستجار به فلم يجره، فجرى تورانشاه نحو النيل ورمى بنفسه فيه علّه ينجو من المماليك، وهو يقول: «ما أريد ملكاً، دعونى أرجع إلى الحصن يا مسلمين أما فيكم من يصطنعنى ويجيرنى؟» فلم يجبه أحد، وظل المماليك يرمونه بالنشاب من كل ناحية، ثم سبحوا خلفه فى الماء ، وقطعوه بالسيوف قطعاً، حتى مات جريحاً حريقاً غريقاً، بينما فر عنه أصحابه واختفوا. وتركت جثته على شاطئ النيل ثلاثة أيام لا يقدر أحدٌ أن يتجاسر على دفنه، إلى أن شفع فيه رسول الخليفة العباسى، فحمل إلى الجانب الآخر من النهر ودفن.

اجتمع الأمراء المماليك البحرية وكبار رجالات الدولة وأهل المشورة بالدهليز السلطانى عقب مقتل تورانشاه، واتفقوا على إقامة شجر الدر أم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطانة على مصر. وعهدوا إلى الأمير عز الدين أيبك التركمانى فى الصالحى بأتابكية العسكر، وأقسم الأمراء على ذلك، وخرج الأمير عز الدين الرومى من المعسكر السلطانى بفارسكور إلى قلعة الجبل بالقاهرة، وأنهى إلى شجر الدر ما جرى من الاتفاق على اختيارها سلطانة على مصر، فأبدت موافقتها، وأصبحت كل أمور مصر فى يدها. وخطب لها على منابر مصر والقاهرة، ونقش اسمها على السكة كالتالى: «المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين» . وكان الخطباء يقولون فى الدعاء : «اللهم وأدم سلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع، ملكة المسلمين، والدة الملك خليل»، وكان بعضهم يقول: بعد الدعاء للخليفة : «واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح» .

تجددت المفاوضات بين المماليك والصليبيين، وكان يمثل المماليك

الأمير حسام الدين بن أبي علي، وتم الاتفاق بين الطرفين على تنفيذ شروط الصلح السابقة التي وقعت بين المعظم تورانشاه ولويس التاسع وأهمها تسليم دمياط ودفع الفدية البالغ قيمتها ثمانمائة ألف بيزنط على أن يدفع نصفها قبل الرحيل عن الديار المصرية وبعث الملك لويس التاسع إلى الصليبيين في دمياط يأمرهم بتسليمها للمسلمين، فأبوا، فكرر أوامره إليهم إلى أن دخل العلم الإسلامي دمياط يوم الجمعة الثاني من صفر سنة ٦٤٨هـ/الموافق السادس من مايو ١٢٥٠م ورفع على أسوار دمياط، فكانت مدة استيلاء الصليبيين عليها أحد عشر شهراً وتسعة أيام. وقبيل تسليم دمياط بساعات أبحرت الملكة مرجريت إلى عكا ومعها وليدها يوحنا الحزين الذي وضعته في دمياط، وبصحبتها بعض البارونات الصليبيين وفي يوم الأحد الرابع من صفر سنة ٦٤٨هـ/الثامن من مايو ١٢٥٠م، أبحر الملك لويس التاسع من دمياط إلى عكا، فقال الشاعر جمال الدين بن مطروح في ذلك:

قل للفرنسيس إذا جئته ∴ مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى ∴ من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصراً تبتغي ملكها ∴ تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ∴ ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ∴ بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفًا لا يرى منهم ∴ إلا قتيل أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها ∴ لعل عيسى منكم يستريح
إن يكن الباب بذا راضيًا ∴ فربَّ غشي قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنًا إنه ∴ أنصح من شق لكم أو سطيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة ∴ لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها ∴ والقيد باق والطواشي صبيح.

القسم الثانى

تاريخ مصر فى العصر المملوكى

٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م

قيام الدولة المملوكية

بمقتل تورانشاه ابن السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ينتهى عصر الدولة الأيوبية فى مصر والشام ويتولى شجر الدر السلطنة يبدأ عصر جديد هو عصر سلاطين المماليك الذين حكموا من خلال دولة عرفت باسم الدولة المملوكية ولقد عرفت هذه الدولة بهذا الاسم لأنها قامت على أكتاف فئة من الرقيق الأبيض أو المماليك، وأيضاً لأن السلاطين الذين تعاقبوا على عرش السلطنة فيها كانوا كلهم من المماليك أو من أبنائهم.

ورغم أن نظام الرق كان نظاماً معترفاً به فى الإسلام منذ بدئه إلا أن المماليك لم يعلن لهم شأن ولم يظهر لهم أثر فى أحداث الدولة الإسلامية عامة إلا فى خلال عهد الدولة العباسية ولعل أول خليفة عباسى اعتمد اعتماداً كبيراً على المماليك فى توطيد نفوذه وسلطانه هو الخليفة العباسى المعتصم (٢١٨-٢٢٨هـ) فقد ضاق هذا الخليفة بنفوذ الفرس وأراد أن يقضى عليهم وعلى نفوذهم فقرر أن يعتمد على الأتراك بدلا منهم فامتلك أعداداً كبيرة منهم وشكل منهم قوة حرسه الخاص وجيشه ثم بنى لهم مدينة خاصة بهم لم يلبث أن انتقل إليها معهم وجعلها عاصمة لملكه وهى مدينة سامرا. ولقد كان من أثر ذلك أن تغلغل نفوذ المماليك الأتراك فى كافة الولايات التابعة للخلافة العباسية ومن بينها مصر، فصار جند مصر وولاتها من المماليك الأتراك أو أولادهم.

والمعروف أن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية فى مصر (٢٥٤-٢٩٢هـ) كان أبوه مملوكاً تركياً. فكان من الطبيعى أن يعتمد أحمد بن

طولون على المماليك الأتراك من بنى جنسه لتوطيد سلطانه، فأكثر من شراء مماليك الديلم، سكان جنوب بحر قزوين، وبلغت عدتهم أكثر من أربعة وعشرين ألف غلام من الأتراك، وأربعين ألفاً من السود وسبعة آلاف من الأحرار المرتزقة، ثم تأسست الدولة الأخشيدية فى مصر (٣٢٣-٣٥٨هـ) فجعل محمد بن طغج الأخشيد جيشه من الأتراك ومن الديلم. وقد بلغت عدة هذا الجيش بمصر والشام أربعمائة ألف جندى عدا حرسه الخاص الذى بلغ عدده ثمانية آلاف مملوك. ولما فتح الفاطميون مصر عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) كانوا فى حاجة إلى جيش كبير يوطد أركان دولتهم فيها ويسهل عليهم ما اعتزموه من مد سلطانهم إلى بلاد الشرق، وكان جيشهم بادئ الأمر مؤلفاً من المغاربة، فأضافوا إليه فى مصر الأتراك والأكراد والغز الديالمة والصقالبة.

ولما قامت الدولة الأيوبية فى مصر (٥٦٧هـ/١١٧١م) عمل سلاطينها على جلب الأتراك إليها، وبذلوا الأموال الضخمة فى شرائهم بغية الاعتزاز بقوتهم. وكان أكثر السلاطين الأيوبيين استجلاباً للأتراك الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقد روى لنا أبو المحاسن بن تغرى بردى وابن إياس أن الصالح أكثر من شراء المماليك بعد أن آل إليه حكم مصر حتى كان عامة عسكره منهم. ولما خذله أنصاره وانفض عنه أعوانه من الأكراد وجد فيهم عدته فاعتز بهم، وأكثر من شرائهم. وقد حرص الملك الصالح على تحاشى أى احتكاك قد ينشب بين مماليكه وبين أهالى القاهرة فاختار جزيرة الروضة لتكون مقراً لهم وشيد لهم بها قلعة ليسكنوها ولذلك أطلق عليهم أسم المماليك البحرية.

وكانت الغالبية العظمى لجماعات المماليك الذين جلبهم الأيوبيون

وسلاطين المماليك من بعدهم فى مصر من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق (تشمل بلاد القفجاق حوض الفلجا والأراضى الواقعة حول بحر قزوين) واسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهر، فكانوا خليطاً من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد فضلا عن أقلية من مختلف البلاد الأوربية. وكانت أهم الأسواق التى يشترى فيها المماليك واقعة على الساحل الشمالى من البحر الأسود وبحر آزوف وفى مستعمرة كافا وكانت تابعة لجمهورية جنوة.

عاش المماليك فى مصر أثناء حكمهم لها كطائفة منفصلة عما حواليها واحتفظوا بشخصيتهم ولم يختلطوا بأى عنصر من عناصر السكان المصريين سواء فى ذلك الأقباط أو المسلمين، ولم يسمحوا لسكان مصر أو أي جزء من أجزاء ممتلكاتهم بالانخراط فى صفوفهم ولم يتزوجوا منهم إلا فيما ندر. وقصروا أعمال الجندية على أشخاصهم وذهبوا إلى مدى أبعد من ذلك، حيث اشترطوا ألا ينخرط فى سلك المماليك الحربية إلا من يستوردونه من جديد، فأبناء المماليك مهما عظم شأنهم كانوا يقصرونهم على الأعمال الكتابية والإدارية ولا يسمحون لهم بالدخول فى الجيش، أما أهل مصر فكانوا فى عصر المماليك يتولون الوظائف الكتابية ولم يكن لهم نصيب فى الجيش العامل اللهم إلا فى بعض الأعمال غير العسكرية كأعمال الأئمة والصناع.

وكان المملوك شديد التمسك بسيده، أو أستاذه الذى اشتراه وقام بتربيته وكانت رابطة الأستاذ بمماليكه رابطة لا انفصام لها، فقد كانوا يخلصون له فى السراء والضراء ويكونون رهن إشارته يوجههم كيفما شاء لتحقيق مآربه. ولم تكن رابطة الأستاذية هى الرابطة الوحيدة التى كانت تسيطر على عواطف المماليك، فالمماليك الذين كانوا ينشأون معاً عند أستاذ

واحد كانت تنشأ بينهم رابطة تعرف بالخشداشية، وهذه الرابطة كانت لها قوة واحترام فيما بينهم وكانت تجعل الواحد منهم يتعاطف مع خشداشة أى زميله، ويؤازره فى المحن والشدائد، وينصره على أعدائه وينتصر له دائماً.

كان للمماليك نظام خاص يبدأ منذ اللحظة التى كان يتم فيها شراء السلطان للمملوك، فبعد عرض هذا المملوك الجديد على السلطان كان يرسل مباشرة إلى الثكنات المخصصة لسكنى وتربية المماليك السلطانية بالقلعة والتى كانت تعرف بالطباق وكانت كل طابقة من هذه الطباق مخصصة لجنس معين من أجناس المماليك، لذلك كان يبعث بالمملوك الجديد إلى الطبقة المخصصة لبنى جنسه. وهناك يبدأ تهذيبه وتثقيفه وتعليمه فيشرف على تعليمه فقيه مخصص لهذا الغرض يحضر كل يوم ويقوم بتعليمه هو وزملائه القرآن والدين والصلاة والكتابة والخط ويؤدبه بآداب الشريعة. فإذا ما شبَّ الواحد منهم بعض الشيء يبدأ الفقيه فى تعليمه شيئاً من الفقه. وإذا ما صار إلى سن البلوغ يبدأ هو وزملاءه فى تلقى دروساً وتدريبات على فنون القتال والحرب على يد معلم آخر يكون من فئة الفرسان والمقاتلين. فإذا أتم المملوك ذلك يصبح بعدها أهلا لأن يلتحق بخدمة السلطان، فيلحق عندئذ بإحدى وظائف خدمته بالقصر وكان باب الترقى فى حكومة المماليك مفتوحاً على مصراعيه لكل مملوك يثبت كفايته للعمل فيرقى من مملوك بسيط إلى أمير خمسة أو عشرة أو خمسين أو مائة أو ألف حتى يبلغ السلطنة نفسها.

تولية عز الدين أيبك السلطنة المملوكية

اتفقت كلمة أمراء المماليك البحرية بعد قتل تورانشاه على تولية شجر الدر السلطنة فى مصر، وتلقبت بعده ألقاب من بينها : «الملكة عصمة الدين شجر الدر» و«الستر العالى والدة الملك خليل» ودعى لها على المنابر» بملكة المسلمين والدة الملك خليل» و«عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح». فأخذت شجر الدر تتقرب من أمراء المماليك وتمنحهم الرتب والإقطاعات، كما خفضت الضرائب عن الأهالى لتستميل قلوبهم وساست الرعية أحسن سياسة، على أن الأحوال اضطربت على أثر توليتها السلطنة فإن الخليفة العباسى المستعصم بالله نعى على أهل مصر إقامة امرأة فى السلطنة، ولم يتمكن أمراء المماليك من أن يحصلوا على موافقته على اختيارها، بل على العكس رد الخليفة على طلبهم بقوله : «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلا. ولذلك أسرع أمراء المماليك بتزويج شجر الدر من أحدهم وهو الأمير عز الدين أيبك التركمانى، الذى لقب بالملك المعز وتنازلت له شجر الدر عن السلطنة بعد أن حكمت البلاد ثمانين يوماً.

الأخطار التى واجهت الدولة المملوكية الجديدة:

١ ـ الأيوبيون فى الشام:

كان أول الأخطار التى تعرضت لها الدولة المملوكية الجديدة معارضة الأيوبيين أصحاب الحق الشرعى فى ملك مصر والشام ولذلك بادر الأيوبيون بالاستيلاء على السلطنة بالشام فاستولى الملك الناصر يوسف صاحب حلب على دمشق، والملك المغيث عمر على الكرك والشوبك، والملك السعيد حسن

علي قلعة الصبيبة فاستقر رأى أمراء المماليك على أن يشترك فى الحكم مع المعز أيبك طفل من سلالة الأيوبيين هو الأشرف موسى حفيد الملك الكامل محمد وكان فى نحو السادسة من عمره، على أن تكون جميع الأمور فى يد المعز أيبك. ولكن هذا الإجراء لم يسكت غضب الأيوبيين فى الشام، فاضطر المعز أيبك إلى أن يعلن فى جميع أنحاء البلاد أن مصر تابعة للخليفة العباسى المستعصم بالله، وأن الملك المعز أيبك نائبه بها، ورغم ذلك صمم الملك الناصر يوسف على المسير إلى مصر والقضاء على المماليك.

خرج الناصر يوسف بعساكره من دمشق يوم الأحد منتصف رمضان سنة ٦٤٨هـ الحادى عشر من ديسمبر سنة ١٢٥٠م بصحبة عدد من ملوك الأيوبيين بالشام فى طريقه إلى مصر. فلما وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة، أسرعت العساكر المملوكية بقيادة الأمير حسام الدين أبو علي، والأمير فارس الدين أقطاى الجمدار إلى الصالحية. كما سار الملك المعز أيبك إلى الصالحية أيضاً. وفى نفس الوقت وصل الملك الناصر يوسف إلى قرية كراع القريبة من العباسة، وكان التفوق واضحاً لجيوش الناصر لكثرة عساكره ولميل أكثر عسكر مصر إليه ولكن سرعان ما انتهى القتال لصالح الملك المعز أيبك وفرار الملك الناصر يوسف وأسر عدد من ملوك الأيوبيين. وكان من نتائج هذا النصر أن أقدم المعز أيبك على عزل الملك الأشرف موسى وانفرد باسم السلطنة فى عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م.

وفى عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م عقد الصلح بين الملك المعز أيبك وبين الملك الناصر صاحب دمشق، عندما أرسل الخليفة العباسى المستعصم بالله رسوله نجم الدين البادرائى للقيام بالوساطة بين الطرفين ونجح فى عقد الصلح على أن تكون مصر وجنوب فلسطين بما فيه غزة والقدس وبلاد الساحل

للمعز أيبك وأن تكون الأجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة لملوك البيت الأيوبى وأن يطلق المعز سراح مَنْ أسره من رجال الناصر يوسف.

٢ ـ ثورة الأعراب فى مصر:

ثارت القبائل العربية فى مصر فى بلاد الصعيد وبعض مناطق من الوجه البحرى وقطعوا الطرق براً وبحراً فتوقف التجار عن القيام بنشاطهم. وكان الدافع الرئيسى. وراء ثورة هذه القبائل العربية هو رفضهم الخضوع للمماليك لأنهم من الجنس التركى وليسوا أحراراً. وتولى زعامة تلك الثورة الشريف حصن الدين ثعلب الذى نسب إليه قوله : «نحن أصحاب البلاد، وأنا أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب، وهم خوارج خرجوا على البلاد»، كما سارع حصن الدين ثعلب بالكتابة إلى الملك الناصر يوسف صاحب دمشق يستحثه على القدوم إلى مصر.

اجتمعت حشود القبائل العربية بالقرب من ديروط وأقسموا يمين الطاعة والولاء لحصن الدين ثعلب، وبلغ عددهم اثنى عشر ألف فارس. فجهز إليهم الملك المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار، والأمير فارس الدين أقطاى المستعرب فى خمسة آلاف فارس، فبرز إليهم الأمير حصن الدين ثعلب ولكن الهزيمة لحقت بحصن الدين ثعلب، وفرّ هارباً، ثم طلب الأمان من المعز فأمنه، واستدعاه إليه، وسرعان ما قبض عليه وعلى سائر أصحابه و كانت عدتهم نحو ألفى وستمائة رجل، فأمر الملك المعز بشنقهم جميعاً، أما حصن الدين ثعلب فقد أرسل إلى الإسكندرية وحبس بها. وفى نفس الوقت سارع الملك المعز بإخماد ثورات العرب فى أنحاء البلاد، وفرض عليهم المزيد من الضرائب والمكوس ومعاملتهم بالعسف والقهر فانتهت ثوراتهم طوال العصر المملوكى.

٣ ـ الصراع بين أمراء المماليك:

استفحل نفوذ فارس الدين أقطاى خاصة بعد نجاحه فى القضاء على ثورة العرب، وانضمت إليه المماليك البحرية، فأصبح ملجأ لهم يسألونه فى حوائجهم ويكون هو المتحدث باسمهم مع الملك المعز. وقد اضطر الملك المعز إلى السكوت عن تصرفات أقطاى وحاول استرضائه فأقطعه ثغر الإسكندرية. ولكن سكوت الملك المعز جعل أقطاى يتمادى فى تصرفاته بحيث كان إذا ركب من داره إلى القلعة، سار فى موكب فخم يفوق موكب الملك المعز. ثم صاهر أقطاى الملك المظفر صاحب حماة، وطلب أقطاى من الملك المعز أن يسكن قلعة الجبل مع عروسه، فقرر المعز قتله قبل أن يفكر فى عزل المعز وتولى السلطنة فى مصر بدلا منه.

أرسل الملك المعز إلى أقطاى يستدعيه إلى القلعة للتشاور، وبمجرد دخوله القلعة أغلقت الأبواب، وأمر المعز بالقبض عليه وقتله، وانتشرت الإشاعات فى القاهرة بقتله، فسارع أصحابه فى نحو السبعمائة فارس، ووقفوا تحت القلعة، وفى ظنهم أنه لم يقتل وإنما قبض عليه، ولكن المعز أمر بإلقاء رأس المعز إليهم، فسقط فى أيديهم، وقرروا ترك القاهرة، فمنهم من قصد الملك المغيث صاحب الكرك، ومنهم من سار إلى الملك الناصر صاحب دمشق ومنهم من ذهب إلى الملك علاء الدين ملك سلاجقة الروم بآسيا الصغرى. وقد تتبع الملك المعز أيبك من بقى منهم بالقاهرة فقبض على من بقى منهم وقتل بعضهم وحبس باقيهم وصادر أملاكهم وأموالهم ونسائهم وأتباعهم واستصفى أموالهم. ونودى فى القاهرة ومصر بتهديد من أخفى أحداً من البحرية.

صفا الجو للمعز أيبك مدة، واستمر الحال على ذلك إلى سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م حين ساءت العلاقة بينه وبين زوجته شجر الدر، فقد نغص عليها حياتها أنها كانت شديدة الغيرة على زوجها أيبك، حتى أرغمته على التخلص من زوجته الأولى أم ولده علي ومنعته من زيارتها هي وابنها. ويبدو أن الملك المعز سأم هذه الحياة الزوجية وأرسل إلى الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته ويظهر أنه كان يرمى من وراء ذلك إلى هجر شجر الدر التى ما لبثت أن فطنت إلى ما يدبر لها، وتوجست خيفة حين غادر أيبك القلعة وأقام فى مناظر اللوق، فبعثت إليه تلتمس منه الصفح عنها، فاستجاب إلى دعوتها، ودخل القلعة فى الوقت الذى دبرت فيه شجر لدر قتله بحمام القصر فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ/الأول من أبريل ١٢٥٧م فثار مماليك المعز لقتله ودبروا مؤامرة أخرى شاركت فيها أم علي زوجة المعز السابقة وانتهت بمقتل شجر الدر، وانتقلت السلطنة بعد مقتل المعز أيبك إلى ابنه علي، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة على أن يلقب بالمنصور ويعين الأمير سيف الدين قطز أتابكاً له.

٤ ـ الخطر المغولى:

أثار استيلاء المغول على بغداد وقتلهم للخليفة المستعصم بالله العباسى فى الرابع من صفر سنة ٦٥٦هـ/العاشر من فبراير سنة ١٢٥٨م موجة شاملة من الذعر والأسى فى العالم الإسلامى أجمع وبدأ الناس فى الشام ومصر بالذات يحسون أن دورهم قريب وأن الموقف يتطلب الاتحاد لمواجهة تلك الأزمة التى لم يشهد المسلمون مثلها حتى ذلك الوقت. ولكن ملوك الأيوبيين بالشام رأوا أن يتخذوا فى مبدأ الأمر سياسة مداهنة وملاينة للمغول لعل ذلك ينقذهم من أذاهم فبعث الملك الناصر يوسف صاحب حلب

ودمشق بابنه إلى هولاكو يخطب وده ويسأله أن يعينه على أخذ مصر من أيدى المماليك، لكن هولاكو رد عليه رداً جافاً يأمره فيه بالخضوع والتبعية دون قيد أو شرط ثم بدأ هولاكو يغزو الشام، فلم يجد الناصر يوسف بداً من مد يده إلى المماليك يطلب منهم العون والمساعدة.

قرر الأمير سيف الدين قطز إعلان نفسه سلطاناً على مصر بعد أن نادى بأن الملك المنصور علي ابن المعز أيبك صبى صغير لا يعرف تدبير أمور السلطنة وأنه لابد من وجود سلطان قوى على عرش السلطنة ليقاتل التتار. وفي نفس الوقت اندفع هولاكو بجيوشه إلى شمال الشام، فاستولى على حلب وقلعتها، ومنها إلى دمشق فاستولى عليها، فاضطر الملك الناصر يوسف إلى الانسحاب إلى غزة، وفى غزة استمر جنده ينفضون من حوله وانضم بعضهم إلى المماليك، فاضطر إلى أن يتجه إلى قطيا الواقعة على حدود مصر ولكن المغول بعثوا ببعض رجالهم فأسروه.

وفى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م أرسل هولاكو إلى مصر خطاب تهديد ووعيد إن هى امتنعت عن التسليم إليه والإذعان له. فلما وصل هذا الخطاب إلى قطز جمع أمراءه وشاورهم فى الأمر، فاتفقوا على قتل رسل المغول والمسير إلى الصالحية، وتناسى المماليك وأمراؤهم خصوماتهم السابقة، وأسرعوا يتحدون مع بعضهم كتلة واحدة لمواجهة هذا الخطر الذى يهددهم. جميعاً، ومما يذكر فى هذا الشأن أن كثيراً من المماليك البحرية من أنصار أقطاى الذين كانوا قد فروا من مصر على إثر مقتله أخذوا فى العودة إليها ثانية وعلى رأسهم الأمير بيبرس البندقدارى ليساندوا حكومتهم وسلطانهم فى هذه الفترة العصيبة، فرحب قطز بهم وأقطع الإقطاعات لكبارهم.

ونودى فى القاهرة ومختلف مدن مصر بالخروج للجهاد فى سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله ﷺ. وأرسل الملك المظفر سيف الدين قطز إلى ولاته على مدن وأقاليم مصر إرسال العساكر تمهيداً للخروج إلى الشام. وسار قطز حتى نزل بالصالحية وتكاملت عنده العساكر، فطلب اللقاء مع أمراء المماليك، وتكلم معهم فى الرحيل لقتال المغول، فوجد منهم تقاعساً ورفضوا الرحيل، فقال لهم « يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين فى قارب المتأخرين». فاضطروا إلى الرحيل مع قطز.

عاد هولاكو إلى بلاده بسبب وفاة الخان الأعظم مانجوخان، وجعل كتبغا نوين نائباً عنه بحلب، وبيدرا نائباً عنه بدمشق.

عهد السلطان قطز إلى الأمير بيبرس البندقدارى بأن يتقدم إلى بلاد الشام مع فرقة من العسكر ليقف أو ليستطلع أخبار المغول، فسار بيبرس إلى غزة، واضطرت حامية المغول التى تنزل بها إلى الانسحاب، فاستولى بيبرس على غزة. وفى نفس الوقت سار قطز إلى بلاد الشام، فلما وصل غزة واصل المسير على رأس العساكر المصرية محاذياً الساحل نحو الشمال، وضمن حياد الصليبيين بعكا، ثم اجتمع بالأمرآء وحثهم على إنقاذ الشام من المغول، ونصرة الإسلام والمسلمين.

التقى الجيش المملوكى بجيش المغول قرب مدينة بيسان فى موضع يقال له عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ/ الثالث من سبتمبر سنة ١٢٦٠م وفى موقعه عين جالوت أظهر

الجيش المملوكي شجاعة نادرة، حتى يقال أن العسكر اضطرب فى أول الأمر، فألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصاح بأعلى صوته «وا إسلاماه» وحمل بنفسه على المغول، وانتهت معركة عين جالوت بانتصار حاسم للإسلام والمسلمين ومقتل كتبغا، وفرار التتار من دمشق ثم من شمال الشام كله. فاستولى عليه قطز، وبذلك أصبحت مملكته تضم مصر والشام كله.

أعاد قطز الأمن إلى نصابه فى جميع المدن المخربة بالشام كما أعاد أمراء الأيوبيين على ولاية حمص وحماة على أن يدفعوا له الجزية، وعند عودة قطز إلى مصر تعرض له قواد الجيش وعلى رأسهم بيبرس؛ لأن قطز كان قد وعد بيبرس بمنحه ولاية حلب إلا أنه لم يف له بوعده وأعطاها لعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ، مما أثار الحقد فى نفس بيبرس، وصمم على الانتقام من قطز فى أول فرصة مواتية، ولم تلبث أن واتته الفرصة عندما وصل ركب السلطان قطز إلى الصالحية فى طريقه إلى القاهرة إذ أظهر قطز رغبته فى الصيد. ولما فرغ السلطان من الصيد تقدم منه بيبرس وطلب امرأة من سبى التتار، فأجابه السلطان إلى طلبه وأنعم عليه بما أراد. وكان أن تظاهر بيبرس برغبته فى تقبيل يد السلطان ـ وكانت إشارة بينه وبين شركائه من الأمراء المتآمرين ـ فقبض بيبرس على يد قطز ليمنعه من الحركة فى حين انهال عليه بقية الأمراء من البحرية بسيوفهم ورماحهم وألقوه عن فرسه حتى أجهزوا عليه يوم السبت الخامس عشر من ذى القعدة سنة ٦٥٨هـ/الثانى والعشرين من أكتوبر سنة ١٢٦٠م.

عصر الظاهر بيبرس

نبغ من بين المماليك الذين استكثر منهم الملك الصالح نجم الدين أيوب عدة رجال كان لهم أثر كبير فى تغيير مجرى السياسة المصرية كان أشهرهم بيبرس. وقد أجمع المؤرخون على أنه ولد ببلاد القفجاق (تشمل بلاد القفجاق حوض نهر الفلجا والأراضى حتى حول بحر قزوين)، ثم بيع لأحد تجار الرقيق على إثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م. وقد قدم به هذا التاجر إلى حماة، ولما عرضه على الملك المنصور محمد صاحب حماة لم يعجبه فبيع بدمشق بثمانمائة درهم ثم رده مشتريه لبياض فى إحدى عينيه، فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب، فأقام فى خدمته مدة ثم أخذه منه الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاتخذه رئيساً لإحدى فرق حرسه الخاص لما رآه فيه من الهمة والفطنة والذكاء، وظل يرتفع ذكره ويسمو قدره ويتدرج فى المناصب حتى أصبح قائداً لفرقة المماليك التى كان لها الفضل الأكبر فى هزيمة حملة لويس التاسع فى المنصورة. ثم شارك أمراء المماليك فى التخلص من تورانشاه وتولية شجر الدر عرش السلطنة المصرية، ولم يزل يترقى إلى أن قتل فارس الدين أقطاى، فخرج بيبرس من القاهرة مع الفارين من المماليك البحرية، وتنقل فى بلاد الشام إلى أن عاد إلى مصر مرة أخرى على عصر السلطان قطز، وخرج معه إلى قتال المغول فأبلى بلاءً حسناً، وكان له فضل كبير فى انتصار عين جالوت ولكنه اضطر إلى قتل سيف الدين قطز حينما رفض منحه ولاية حلب، وعاد قطز إلى القاهرة وجلس على عرش السلطنة المملوكية فى عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.

جهود الظاهر بيبرس لتدعيم الدولة المملوكية:

١ ـ القضاء على الثورات الداخلية:

أخذ الظاهر بيبرس يستميل عامة الناس فى مصر بتخفيف عبء الضرائب عنهم ولا سيما أن قطز كان قد استحدث كثيراً من الضرائب والمكوس ليستعين بحصيلتها على حرب المغول. فلما ولى بيبرس أبطل جميع تلك الضرائب التى استحدثها قطز وكتب منشوراً بذلك قرأ على منابر المساجد، فسر الناس بذلك، ولكن الأمور لم تستتب لبيبرس بسهولة فقد تعرض ـ شأنه شأن سلاطين المماليك الآخرين لثورات داخلية خطيرة.

ففى القاهرة ثار جماعة من السودان والركبدارية (وهم الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان فى المواكب) والغلمان، وشقوا شوارع القاهرة وهم ينادون «يا آل علي» وفتحوا دكاكين السيوفيين بين القصرين وأخذوا ما فيها من السلاح واقتحموا اصطبلات الجند وأخذوا ما فيها من الخيول. وكان يتولى قيادتها رجل يعرف بالكورانى، أظهر الزهد وسكن جبل المقطم، وكان الغلمان يترددون عليه فحدثهم فى ضرورة الثورة على الدولة، وأقطعهم الإقطاعات وكتب لهم بها سجلا، فلما ثاروا فى شوارع القاهرة، أحاط بهم الجند، وقبضوا عليهم، وصلبوهم خارج باب زويلة.

أما فى الشام، فقد كان بيبرس كتب إلى ملوك وأمراء الشام يخبرهم بسلطنته، فأجابوه كلهم بالسمع والطاعة، فيما عدا الأمير سنجر الحلبى نائب دمشق، الذى استاء لمقتل قطز، ورفض طاعة بيبرس، ونادى بنفسه سلطاناً على دمشق فى ذى الحجة سنة ٦٥٨هـ/نوفمبر سنة ١٢٦٠م وتلقب بالملك المجاهد، وخطب له على منابر دمشق، وبدأ فى عمارة قلعة دمشق، وأشرك

الصناع وكبار رجال الدولة وكذلك النساء فى عمارتها، فلما حضر رسول الملك الظاهر بيبرس إليه، وجده قد تسلطن فعاد إلى مصر، فكتب الظاهر بيبرس إليه يعنفه ويقبح فعله، فرد عليه سنجر الحلبى رداً قبيحاً.

لجأ بيبرس إلى الحيلة فأرسل الأمير جمال الدين المحمدى إلى دمشق ومعه مائة ألف درهم وهدايا وخلع ليستميل بها الناس على الملك المجاهد سنجر. فقدم دمشق فى الثالث من صفر سنة ٦٥٩هـ/السابع من يناير سنة ١٢٦١م، فأفلحت خطة بيبرس فانفض الأمراء فى دمشق عن سنجر ونادوا للملك الظاهر بيبرس، فبعث الملك المجاهد إليهم بعساكره ولكنه تعرض للهزيمة، فالتجأ إلى قلعة دمشق، فى نفس الوقت الذى دخل فيه الأمير إيدكين البندقدار إلى دمشق وملكها وأقسم له الأمراء يمين الولاء، فخاف المجاهد سنجر على نفسه، ففر من قلعة دمشق إلى بعلبك، ولكن قوة من العسكر قبضت عليه وأحضرته إلى القاهرة، فاعتقله بيبرس بالقلعة إلى أن أفرج عنه بعد ذلك وقلده نيابة حلب.

أما عن حلب، فإن سيف الدين قطز كان قد ولى عليها عند عودته إلى مصر من غزو المغول علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، غير أن السعيد علاء الدين سار فى حلب سيرة معوجة، كان من جرائها أن بغضه العسكر وكره الناس ولايته عليهم، فقبض عليه أمراء حلب، وقدموا عليهم الأمير حسام الدين لاجين، غير أن التتار ساروا إلى حلب وتملكوها وفرّ حسام الدين لاجين ومن معه إلى حماة، وحذروا الملك المنصور صاحبها من التتار، فلما تحقق من صدق قولهم خرج إليهم وسار معهم إلى حمص، وكان التتار فى هذه الأثناء قد انقضوا على حماة، فاتفقت جموع المسلمين المحتشدة بحمص فى المحرم سنة ٦٥٩هـ/ديسمبر سنة ١٢٦٠م على محاربة

التتار، فالتقوا بهم بظاهر حمص وقاتلوهم وتم النصر للمسلمين، وعاد الملك المنصور إلى حماة، أما حسام الدين لاجين فإنه ذهب إلى مصر وأقام بها واستقر مكانه فخر الدين الحمص نائباً من قبل الظاهر بيبرس. وفى نفس الوقت كان الظاهر بيبرس قد كلف نائبه بدمشق الأمير علاء الدين البندقدار بالقبض على بعض الأمراء الذين توهم منافستهم له مثل الأمير شمس الدين أقوش البرلى، الذى كان قطز قد ولاه على نابلس وغزة وبعض بلاد الساحل. ولكن شمس الدين البرلى استطاع الفرار ومعه بعض المماليك العزيزية والناصرية، فاتجهوا شمالاً وحاولوا استمالة صاحبى حمص وحماة إلى جانبهم، فلما فشلوا فى ذلك انقضوا على حلب واستولى عليها البرلى ورفاقه، ولم يلبث أن أخذ البرلى يوطد مركزه فى حلب ويستعد لمواجهة ما عساه أن ينعشه السلطان من جند ضده، فاستعان بما وجده من أموال فى حلب فى استمالة كثير من العرب والتركمان ليقفوا إلى جانبه ويحاربوا فى صفه.

وعندما علم السلطان بيبرس بما فعله الأمير البرلى فى حلب غضب لذلك وأرسل ضده جيشاً بقيادة الأمير جمال الدين المحمودى كما عين الأمير سنجر الحلبى نائباً على حلب ليستردها من البرلى وبالفعل نجحت قوات الظاهر بيبرس فى الاستيلاء على حلب، وعندئذ فر البرلى إلى البيرة على نهر الفرات حيث أعلن ندمه وتوبته، وأرسل إلى السلطان بيبرس يطلب عفوه، فعفا عنه وأكرمه عند قدومه إلى مصر.

٢ ـ إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة:

خدم بيبرس السلطنة المملوكية خدمة جليلة عندما أقام الخلافة العباسية

بالقاهرة سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م. على أن بيبرس لم يكن أول من فكر فى إحيآء الخلافة العباسية، بل سبقه إلى التفكير فى ذلك أحمد بن طولون الذى أراد فى سنة ٢٦٩هـ/٨٨٢م أن يكسب حكمه الصفة الشرعية باجتذاب الخليفة المعتمد إلى مصر هرباً من أخيه الموفق الذى كانت له السلطة العليا فى الجيش والإدارة والذى اغتصب كل السلطات حتى لم يبق للخليفة شىء. ولكن الخليفة المعتمد لم يفلح فى الهرب إلى مصر، إذ قبض عليه عيون أخيه الموفق وأعادوه إلى عاصمته شبه سجين. كما فكر محمد بن طغج الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية حين ذهب إلى الشام سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م لإنجاد الخليفة المتقى من جور الحمدانيين بالموصل واستبداد الأتراك الذين تنازعوا على الاستئثار بالسلطة فى بغداد، فلقيه بالرقة فى شمال نهر الفرات، وطلب منه أن يصحبه إلى مصر، ولكن الخليفة المتقى رفض هذا العرض. كما أن الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق فكر أيضاً فى إحياء الخلافة العباسية، فما كاد يعلم من الأمير عيسى بن مهنا أن أميراً عباسياً قدم إلى دمشق حتى أرسل يستدعيه إليه، غير أنه فوجئ بقدوم التتار، فعاد الأمير ثانية إلى عيسى بن مهنا. وعندما قدم الملك المظفر قطز إلى دمشق على إثر انتصاره على التتار فى موقعه عين جالوت أخبره الأمير عيسى بن مهنا بقدوم ذلك الأمير العباسية فقال له قطز: «إذا رجعنا إلى مصر أنفذه إلينا لنعيده إن شاء الله». غير أن العمر لم يمهل قطز لينفذ مشروعه الخاص بإحيآء الخلافة العباسية إلى مكانتها الأولى على أن يكون مقرها القاهرة.

وفى سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م استدعى بيبرس الأمير أبا العباس أحمد غير أنه لم يحضر عندما علم أن أميراً عباسياً آخر فى طريقه إلى مصر وهو الأمير أبو القاسم أحمد، وكان قد فرّ من بغداد من وجه التتار ووصل إلى دمشق،

فكتب إلى الظاهر بيبرس الأميران علاء الدين طيبرس نائب دمشق وعلاء الدين أيدكين البندقارى كتاباً يذكر أن فيه رجلا وصل دمشق يدعى أنه أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر العباسى، ومعه جماعة من عرب خفاجة فكتب إليهما ما بيبرس يوصيهما به خيراً ويرسلا معه حجاباً إلى مصر.

وصل أبو القاسم أحمد إلى القاهرة فى الثامن من رجب سنة ٦٥٩هـ/ الثامن من يونيو سنة ١٢٦١م، فأعد بيبرس العدة لاستقباله، وخرج للقائه ومعه الوزير بهاء الدين بن حنا وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وجميع الأمراء والجند وأعيان القاهرة ومصر، والعلماء والمؤذنون والشهود واليهود يحملون التوراة والنصارى يحملون الإنجيل. وساروا جميعاً إلى المطرية لمقابلته وحين وقع نظر الظاهر بيبرس عليه ترجل وعانقه، ثم ركب الخليفة وهو لابس شعار بنى العباس ومعه بيبرس يتبعهما الجيش حتى وصل إلى قلعة الجبل.

وفى يوم الاثنين الثالث عشر من رجب سنة ٦٥٩هـ/الثالث عشر من يونيو سنة ١٢٦١م، عقد بيبرس مجلساً فى قاعة الأعمدة بالقلعة، دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء، وشيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام وسائر أرباب الدولة والعرب الذين قدموا إلى مصر مع أبى القاسم أحمد وذلك لإثبات نسبه وتقرير بيعته، ولما انتظم عقد المجلس جلس بيبرس بين يدى الإمام أبى القاسم أحمد. واستدعى العربان الذين قدموا معه من بغداد، فأقروا جميعاً بين يدى قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز بأن الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله بن الخليفة الناصر لدين الله المتصل النسب بالعبّاس بن عبد المطلب، وأقر ذلك بعض القضاة والفقهاء، فقبل قاضى القضاة

شهاداتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة ثم قام بعد ذلك الملك الظاهر وبايعه وكذلك بايعه القضاة ولقبوه بالمستنصر بالله، ثم أرسل الظاهر بيبرس لأخذ البيعة له من الناس على اختلاف طبقاتهم، وتم ذلك ونقشت السكة في مصر باسميهما، كما أمر بالدعاء للخليفة قبل الدعاء له في خطبة الجمعة، ولم يكتف بذلك بل دعا الخليفة ليخطب ويصلي بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة، فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء بالجامع وخطب الخليفة خطبة أثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذي رد الخلافة إلى بني العباس.

وفي الرابع من شعبان سنة ٦٥٩هـ/الرابع من يوليو سنة ١٢٦١، ركب الخليفة والظاهر بيبرس والوزير والقضاة والأمراء وكبار رجال الدولة إلى خيمة أقيمت بالمطرية خارج القاهرة، وهناك ألبس الخليفة الملك الظاهر بيبرس خلعة السلطنة وهي عمامة سوداء مذهبة مزركشة وجبة حرير سوداء ودراعة بنفسجية اللون وطوق ذهب، وقيد من ذهب، وضع في رجليه، وسيف، ولواءان منشوران على رأسه، وسهمان كبيران، وترس وقدم له فرس أشهب في عنقه مشدة سوداء، وعليه كنبوش (أي بردعة) أسود. وعلى أثر ذلك عقد اجتماع تلافيه فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء تفويض الخليفة العباسي للملك الظاهر بيبرس وذلك لتقوية عرشه على أعدائه من أمراء المماليك، وإثباتاً لأحقية المماليك في تولي شئون مصر. ولما فرغ فخر الدين بن لقمان من قراءة هذا التفويض، سار الظاهر بيبرس وعليه الخلعة يتقدم موكب السلطنة عائداً إلى القاهرة حتى وصل إلى باب النصر ثم سار في طريق مفروش بالبسط يمتد من باب النصر إلى القلعة.

عزم الظاهر بيبرس بعد ذلك على إعادة الخليفة إلى بغداد فرتب له جيشاً من عشرة آلاف فارس وجهزه بالمال والسلاح لمعاونته فى إعادة الخلافة العباسية وإقامة نفسه خليفة فى بغداد، وخرج بيبرس بصحبة الخليفة حتى وصلوا إلى دمشق، غير أن أحد أمراء الموصل أسر إلى الظاهر بيبرس أن يعدل عن فكرة تأسيس خلافة قوية فى بغداد لأن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر، فخاف بيبرس عاقبة هذا الأمر. ولم يجهز الخليفة إلا بثلاثمائة فارس سار على رأسهم إلى بلدة الرحبة الواقعة على نهر الفرات، حيث انضم إليه أربعمائة فارس من عرب العراق الذين لجأ إليهم عقب هربه من بغداد بعد مقتل الخليفة المستعصم ثم رحل من الرحبة إلى مشهد علّى ومنها إلى عانة. وهناك تقابل بالأمير أبى العباس أحمد وكان معه سبعمائة فارس من التركمان تمكن الخليفة من استمالتهم إليه واضطر أخيراً هذا الأمير إلى الانضمام إلى الخليفة بعد أن أمنه، ثم رحل إلى الحديثة ففتحها دون مقاومة، وقصد بعد ذلك إلى هيت فأغلق أهلها الباب دونه، فظل محاصراً لها حتى تمكن من فتحها ونهب أموال من بها من اليهود والنصارى. فلما علم التتار بذلك أدركوا أن الخليفة ما جاء إلا للاستيلاء على كرسى الخلافة فخرجوا لقتاله، ووقعت بين الفريقين معركة دموية انتهت بانتصار التتار وهزيمة الخليفة وجيشه واستشهاده، ولم ينج سوى الأمير أبى العباس أحمد ونحو خمسين فارساً.

حزن الظاهر بيبرس لما علم بمقتل الخليفة المستنصر بالله لأنه لم يستفد من إرساله لاسترداد بغداد سوى ضياع الأموال التى أنفقها فى سبيل إعداد هذه الحملة والتى قدرها المؤرخون بنحو مليون دينار. كما أن بيبرس بقتل هذا الخليفة قد فقد الأمل فى استمرار قيام خلافة عباسية فى مصر، تجعل سلطانه

وسلطان خلفائه شرعياً، ولكن سرعان ما تبددت همومه وسنحت له الفرصة بإحياء الخلافة العباسية فى مصر فى شخص أبى العباس أحمد. وكان قد نجا فى موقعة هيت التى قتل فيها الخليفة المستنصر بالله وقدم إلى عيسى بن مهنا فكاتب الأمير عيسى الظاهر بيبرس يخبره بقدوم الأمير أبى العباس أحمد، فأمره بيبرس بإرساله إلى القاهرة.

وفى يوم الخميس الثانى من المحرم سنة ٦٦١هـ/السادس عشر من نوفمبر سنة ١٢٦١م، أحضر الظاهر بيبرس الأمير أبى العباس أحمد واحتفل بمبايعته بالإيوان الكبير بقلعة الجبل بحضور القضاة والأمراء وكبار رجال الدولة، ثم قرئ نسبه بعدما ثبتت صحته لقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز الذى بايعه على أثر ذلك، ثم باعيه الظاهر بيبرس على العمل بكتاب الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهاد أعداء الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها والوفاء بالعهود وإقامة الحدود وما يجب على الأئمة فعله فى أمور الدين ». فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على بيبرس وقلده أمور البلاد والعباد، بعد ذلك بايعه الوزير، والأعيان، ومختلف طبقات الشعب، ولقب بالحاكم بأمر الله. ثم أمر بيبرس أن يخطب باسم الخليفة واسمه على منابر مصر وأعمالها وأن يقدم اسم الخليفة فى الدعاء يوم الجمعة على المنابر قبل اسمه. وفى يوم الجمعة الثالث من المحرم سنة ٦٦١هـ/السابع عشر من نوفمبر سنة ١٢٦٢م خطب الخليفة بالناس فى مسجد القلعة وتعرض فيها إلى ما حدث من زوال الخلافة العباسية وفضل الظاهر بيبرس فى إقامتها بعد زوالها.

وهكذا أعيدت الخلافة العباسية ثانية إلى مصر، ولم يكن هناك تفكير

هذه المرة الثانية فى الاستيلاء على بغداد، كما أن الخلفاء العباسيين بمصر أصبحت سلطتهم قاصرة على الأمور الدينية.

٣ ـ جهود بيبرس ضد الصليبيين:

لم يكن سلاطين المماليك أقل حماسة فى طرد الصليبيين من بلاد الشام من أسلافهم الأيوبيين. وقد أعقب فشل الحملة الصليبية السابعة ورحيل لويس التاسع عن مصر فترة هدوء حتمتها الظروف المحيطة بالمسلمين والصليبيين. فالدولة المملوكية كانت فى أشد الحاجة إلى تثبيت أقدامها، كما أن الإمارات الصليبية فى الشام كانت تعانى من الفتن الداخلية. ولم يلبث الموقف أن تغير تماماً فى عهد بيبرس وخلفائه، إذ نجد أن السياسة المصرية نحو الصليبيين فى الشام تتسم بطابع العنف والقسوة، ولم يكن ذلك بالأمر الهين فقد كان على بيبرس أن يناضل الإمارات الصليبية وهى أنطاكية وطرابلس والجزء الباقى من مملكة بيت المقدس.

بدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين على شكل مناوشات محلية، ويفهم من كلام المقريزى أن بيبرس ذهب بنفسه إلى بلاد الشام سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م لتفقد قواته والإشراف على توزيعها توزيعاً استراتيجيا، فأسرع الصليبيون إلى بيبرس يطلبون الصلح فطلب منهم أموراً لم يرتضوها، فأهانهم، على أنه يبدو أن بيبرس لم يشأ أن يقوم بهجوم كبير على الصليبيين فى تلك المرحلة قبل أن يوطد مركزه فى الحكم من ناحية وبسبب اشتداد الغلاء ببلاد الشام من ناحية أخرى.

ولم يلبث أن فرغ السلطان بيبرس من المشكلات الداخلية التى اعترضت قيام سلطنته، كما فرغ من مشكلة الخلافة العباسية، ونجح فى

إحيائها بالقاهرة، وعندئذ شرع سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م فى التوجه إلى بلاد الشام، بسبب نقض الصليبيين العهود إذ امتنعوا عن تسليم بعض المعاقل للمسلمين، فوفدت رسلهم إليه بهداياهم راغبة فى تجديد الصلح والهدنة، فلم يقبل بيبرس منهم ذلك وأمر بإخراج رسل الفرنج ووجه الأمير علاء الدين طيبرس إلى كنيسة الناصرة، فسار إليها وهدمها ولم يلق من الصليبيين أى مقاومة. ولم يكتف بيبرس بما أحدثه بكنيسة الناصرة، بل جرد جيشاً إلى مدينة عكا، فاقتحم أبوابها، ثم سار بنفسه إليها وحاصرها من جهة البر. وكان الفرنجة قد حفروا خندقاً حول تل الفضول بالقرب من عكا واتخذوه قلعة يحاربون من فوقه. ولكن بيبرس ذهب بنفسه ونجح فى ردم الخندق وانقض المسلمون على الصليبيين، ففروا منهزمين إلى مدينة عكا، فتعقبهم الجيش الإسلامى بعد أن هدم الأبراج وأحرق الأشجار، وحين دخل الصليبيون عكا، أغلقوا أبوابها، كيلا يتمكن المسلمون من اقتحامها، غير أن الأمراء انقضوا على الأبواب الواحد بعد الواحد وتمكنوا من تشتيت الصليبيين وقتلوا عدداً كبيراً منهم وامتلأت أيدى الجيش الإسلامى بالأسرى والغنائم.

وفى سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م سار بيبرس إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير لمحاربة التتار، غير أنه لما أتت إليه الأخبار بارتدادهم عن البيرة ابتدأ فى مهاجمة المدن الصليبية، فسار إلى قيسارية ونصب عليها المجانيق ثم اقتحمها ففر أهلها إلى قلعتها واضطروا إلى تسليمها بعد أن استمر الهجوم عليها خمسة أيام ثم هدمت أسوارها رغم تحصينات لويس التاسع لها ولم يكن بيبرس يشجع الجند أثناء ذلك فحسب بل كان يشاركهم فى هدم الأسوار بنفسه. ثم سار إلى قلعة أرسوف البحرية وتقع جنوب قيسارية، ودافع فرسان الأسبتارية عنها دفاعاً مجيداً لمدة أربعين يوماً، ولم يستطع المماليك رغم

حماسة جندهم وعنفهم فى الهجوم على القلعة أن يستولوا عليها، ففاوض بيبرس فرسانها على أن يسلموها له مقابل تأمينهم على أرواحهم وأموالهم فقبلوا ذلك. ولكنه غدر بهم وأجبرهم على هدم حصونهم وحملهم أسرى إلى القاهرة، وكافأ بيبرس قواده وأمراءه على ما بذلوه من جهود بأن أقطعهم إقطاعات عديدة ومنحهم هدايا ثمينة.

وقد أقلقت انتصارات بيبرس الإمارات الصليبية، حتى رغب فرسان الداوية فى عقد صلح معه، ولكنه رفض وآثر الاستمرار فى قتال الصليبيين حتى يقضى عليهم، لذلك فإنه فى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م هاجم بيبرس قلعة صفد التى كانت قاعدة الفرسان الداوية، وبعد قتال عنيف سلمت له بعد أن منح أهلها الأمان ولكنه عاد فغدر بهم على نحو ما فعله فى أرسوف، وقتل من أهلها نحو ألفين. وبعد استيلاء بيبرس على صفد، استولى فى سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م على قلعة شقيف أرنون التى كان يمتلكها الفرسان الداوية وكانت محصنة تحصيناً قوياً. وتوجه فى نفس العام إلى طرابلس وضرب كل البلاد المحيطة بها وقتل كل من وقع فى يده من الأسرى. ثم ذهب إلى أنطاكية وكانت أقوى الإمارات الصليبية إذ كانت تأتيها الإمدادات من الدولة النورمندية وكانت فى الوقت نفسه متحالفة مع التتار أعدآء المماليك مما جعلها خطراً على سلطان الدولة المملوكية وهاجمها بيبرس وأسر حاكمها وحاول بواسطته أن يعقد صلحاً مع أهلها على أساس إخلاء المدينة ولكنهم رفضوا فهجم بيبرس وجنوده على المدينة وقتلوا الكثير من سكانها وأسروا من بقى حياً وقيل أن عددهم بلغ مائة ألف نسمة، وبعد ذلك سلمت حامية المدينة وكان عددها حوالى ثمانية آلاف، وأشعل بيبرس النيران فيها.

أضعف سقوط أنطاكية روح المقاومة ضد الصليبيين لأنها كانت بحكم موقعها الجغرافى سنداً قوياً للدولة الصليبية منذ أوائل الحروب الصليبية وتشير المراجع إلى الرسالة التى كتبها بيبرس إلى أميرها بوهمند السادس الذى كان مقيماً وقتئذ فى إمارته الثانية طرابلس فى جنوب أنطاكية وكانت هذه الرسالة مليئة بعبارات السخرية والتهكم.

ثم أخذ بيبرس بعد ذلك فى مهاجمة إمارة طرابلس سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م، عندما بلغه أن الأمير إدوارد الإنجليزى وصل إلى عكا على رأس بعض مئات من الفرسان بقصد الحج إلى بيت المقدس. ويبدو أن وصول ذلك الأمير أثار مخاوف بيبرس إذ خشى أن تكون تلك الحركة مقدمة لحملة صليبية كبيرة فى طريقها إلى الشام، لذلك قبل بيبرس العرض الذى تقدم به بوهمند السادس صاحب طرابلس وتم عقد الصلح بين الطرفين على أن تكون الهدنة لمدة عشر سنوات. ومن الطريف ما يحكى فى هذا الصدد من أنه فى أثناء المفاوضات التى دارت بين رسل بيبرس وبوهمند السادس، كان بيبرس نفسه مندساً بين أعضاء الوفد الذى يمثل بلاده ومتنكراً فى زى خادم كى تتاح له حرية التنقل بين حصون طرابلس ومعرفة مواضع القوة والضعف فيها تمهيداً لفتحها فيما بعد.

وإذا كان بيبرس قد قام بعد ذلك ببعض أعمال حربية ضد الصليبيين، فإن هذه الأعمال اتخذت صفة محلية محدودة الأثر والأهمية. على أن بيبرس لم يكد يفرغ من الاتفاقية السابقة حتى قام بإرسال حملة بحرية لتأديب صاحب جزيرة قبرص الملك هيو الثالث لوزنيان الذى اشتهر بأطماعه الصليبية فى الشام وبعداوته الشديدة لدولة المماليك. وقد سنحت الفرصة للظاهر بيبرس عندما علم أن هيو الثالث ملك قبرص حضر إلى عكا يتفقد شئون مملكة بيت

المقدس، فرأى بيبرس أن يهاجم الجزيرة في غيبته وكان أن أسرعت المراكب المصرية وعددها سبع عشرة إلى جزيرة قبرص تحت قيادة المقدم ابن حسون وقد أعد ابن حسون خدعة حربية إذ طلى ظاهر السفن بالقار مثلما كان يفعل الصليبيون في سفنهم، ورسم عليها الصلبان من الخارج حتى يظن القبارصة أنها سفن صليبية. غير أن ريحاً عاصفة هبت على السفن الإسلامية على مقربة من ليماسول، فانكسر منها إحدى عشرة مركباً، وعرف القبارصة من صياح بحارتها أنها سفن إسلامية فأسروا جميع من فيها من الرجال وعدتهم ألف وثمانمائة. أما المراكب الست الباقية فقد نجت وعادت سالمة وعليها ابن حسون ثم بعث بيبرس الأمير فخر الدين الحاجب إلى مدينة صور لابتياع الأسرى ولكن الصليبيين تغالوا في ثمن الرؤساء مغالاة أعجزت المماليك عن شرائهم، فظل هؤلاء الرؤساء وعددهم ستة عند الصليبيين محبوسين في قلعة عكا حتى تمكن المسلمون من رشوة الحراس المكلفين بهم وتهريبهم إلى القاهرة.

٤ ـ جهود بيبرس ضد المغول:

لم ينس المغول ما حل بهم في موقعة عين جالوت، فظلوا يتطلعون إلى الثأر لما حدث لهم. فرأى بيبرس أن يتحالف مع مغول القفجاق وتزوج ابنة زعيمهم بركة خان الذى اعتنق الإسلام وقد تبودلت الرسائل والسفارات بين بيبرس وبركة خان بل ظلت تتبادل هذه الرسائل والسفارات بين سلاطين المماليك البحرية وخانات مغول القفجاق (أو مغول القبيلة الذهبية) وقد بلغ عدد السفارات المتبادلة بينهما نحو أربعين سفارة منها تسعة في عصر الظاهر بيبرس، غير أن بيبرس لم يعتمد كل الاعتماد على هذا التحالف بل خرّب الطرق والوديان المؤدية إلى بلاد الشام حتى لا يجد المغول إذا تقدموا ما

يحتاجون إليه من الميرة. كما أن هولاكو تحالف مع الصليبيين فى الشرق وبخاصة مع ملك أرمينية لكى يقوى بذلك على صد هجمات بركة خان وسلطان المماليك بمصر.

ففى سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م وصل إلى الظاهر بيبرس أن التتار أغاروا على قلعة البيرة الحصينة الواقعة على نهر الفرات وحاصروها بغية الاستيلاء عليها، فجهز جيشاً لمحاربتهم، ثم سار هو بنفسه حتى وصل إلى غزة ومنها واصل سيره شمالا ولكن وافته الأنباء بأن المغول حينما علموا أن عساكره المصرية أشرفت على البيرة سارعوا بالفرار تاركين وراءهم عددهم وأثقالهم. وقد أمر بيبرس بعمارة ما خرب من البيرة وبحمل آلات القتال إليها من مصر والشام وبإعداد كل ما يحتاج إليه أهلها فى الحصار لمدة عشر سنين.

ظل المغول فى فارس يناضلون المماليك حتى مات هولاكو سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م وخلفه ابنه أباقا خان الذى سار على سياسة والده فى مناوأة المماليك ومصادقة الصليبيين، فقد تزوج من ابنة الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس، ومن ثم كان يعطف على المسيحيين. ويتبادل السفارات والهدايا مع البابوات وملوك أوروبا. وكان الهدف من وراء هذا التعاون المشترك هو تنظيم حملة مشتركة على الدولة المملوكية والاستيلاء على بيت المقدس. وقد ظهر أثر هذا التحالف واضحاً عندما انتهز أبا قاخان فرصة انشغال بيبرس بمحاربة الصليبيين للإغارة على الحدود الإسلامية مثال ذلك ما حدث سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م حينما أغارت الجيوش الصليبية على مدينة الرحبة على الحدود الفراتية فى الوقت الذى كانت فيه جيوش بيبرس تهاجم مدينة صفد الصليبية.

وعلى الرغم من أن العدآء كان مستحكماً بين المغول والمماليك فى ذلك الوقت، فقد فكر أباقا خان فى سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م فى عقد الصلح مع الملك الظاهر بيبرس، إذ أرسل لبيبرس عندما قدم إلى أرسوف كتاباً يعرض عليه الصلح ويطلب منه الخضوع والرضوخ وقد جاء فيه «إن الملك أبغا (أى أباقا) لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد ومن خالفه هلك وقتل. فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً». غير أن هذه اللهجة المغولية الآمرة فى طلب الصلح لم تعجب بيبرس، فقال لرسول أباقا خان «اعلم أنى وراءه بالمطالبة، ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض».

وهكذا يئس أباقاخان من مصالحة بيبرس، فلم يبق إلا مواصلة العدوان على بلاد الشام بمخالفة الصليبيين، وكان بيبرس بالإسكندرية سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م عندما بلغه أن المغول أغاروا على الساجور على مقربة من حلب، وأنهم اتفقوا مع الصليبيين على القيام بهجوم مشترك على بلاد الشام. وفى الحال سيَّر بيبرس الأمير علاء الدين البندقدارى إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير لمحاربتهم ثم سار بيبرس بنفسه إلى الشام، ولكنه لم يكد يصل إلى دمشق حتى سمع بانهزام المغول وارتدادهم عن بلاد الشام.

ولم يقنع أباقاخان بذلك الفشل الذى منى به فى هجماته على بلاد الشام، فعاود الهجوم فى سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م على عين تاب وعمق الحارم، وكان بيبرس عندئذ بدمشق، فكتب إلى القاهرة باستدعاء الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى ومعه ثلاثة آلاف فارس لطرد المغول، وعندئذ خرج بيبرس

على رأس جيشه إلى حلب وأرسل فرقاً من جنده تحت قيادة بعض الأمراء إلى أطراف الشام والعراق مثل مرعش وحران والرها. ولم تلبث أن حلت الهزيمة بالمغول عند حران، وعندئذ تدخل الصليبيون للتخفيف عن حلفائهم المغول، فأغاروا على قاقون ولكن المسلمين هزموهم وردوهم، وفى نفس الوقت عاقب بيبرس الصليبيين فأغار على عكا.

وفى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م توجه بيبرس لملاقاة التتار على أرضهم فحمل معه عدة مراكب مفصلة أجزاء على ظهور الجمال وأنزلها فى نهر الفرات لتعبر بها جيوشه، واستطاع بيبرس وجنوده عبور النهر والانتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها فى الأراضى العراقية سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م. ويبدو أن نجاح بيبرس فى هذه الحملة مكنه من جذب عدد من كبار رجال الدولة المغولية إلى جانبه إذ يروى مؤرخ المغول رشيد الدين أن أباقاخان نكل بأسرة الجونيين الذين كانوا يحكمون العراق فى عهده بتهمة الاتصال بملك مصر الظاهر بيبرس والاتفاق معه على تسليم العراق له. هذه الحادثة تذكرنا بنكبة البرامكة أيام هارون الرشيد كما تدل بوضوح على أن بيبرس استطاع أن ينتصر على أعدائه فى هذه الجبهة، وأن يؤمن بذلك حدوده الشرقية من الخطر المغولى.

على أن الصراع بين دولتى المغول والمماليك لم يقف عند هذا الحد. إذ سرعان ما انتقل إلى ميدان آخر وهو بلاد آسيا الصغرى فى الشمال. والسبب فى هذا التحول هو أن بيبرس بعد أن أمن حدوده الشرقية، أراد تأمين حدوده الشمالية المتاخمة لبلاد السلاجقة الروم فى أسيا الصغرى. وكانت هذه البلاد تابعة للمغول منذ أن انحاز ملوكها إلى هولاكو وكانت مقاليد الحكم فى يد الوزير معين الدين سليمان البرواناه والبرواناه لفظ فارسى معناه الحاجب.

وكان هذا البرواناه يعمل إلى جانب أصحاب السيادة فى البلاد وهم المغول، فلما تغلب بيبرس على المغول، مال البرواناه إلى جانب المنتصر وأخذ يراسل بيبرس معلناً انضمامه إليه، فتقدم بيبرس بجيوشه إلى آسيا الصغرى وانتصر على الجيوش المغولية انتصاراً ساحقاً عند بلدة أبلستين أو أبلستان سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٧م وقد فقد المغول فى تلك المعركة ما يقرب من سبعة آلاف رجل ثم دخل بيبرس مدينة قيصرية عاصمة سلاجقة الروم حيث نزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم وخطب له على المنابر واستقبله الأهالى استقبالا رائعاً، ثم عاد بيبرس إلى الشام، ولما علم أباقاخان بما حلّ بجيشه فى الأناضول سارع إلى ميدان المعركة فى أبلستين ويقال أنه بكى عندما شاهد أشلاء القتلى من جنوده، ثم صبّ جام غضبه على أهالى البلاد فقتل منهم عدداً كبيراً لترحيبهم بالظاهر بيبرس، كما أمر بقتل البرواناه أيضاً بعد أن قام نساء القتلى من المغول بثورة كبيرة مطالبين بدمه لأنه كان السبب فى هذه الكارثة.، ويأخذ بعض المؤرخين على بيبرس أنه لم يعد إلى بلاد سلاجقة الروم لحمايتها وطرد المغول منها بحكم أنها صارت تابعة لدولة المماليك رسمياً. ولكن ربما كان السبب فى ذلك أن بيبرس فى ذلك الوقت تولاه التعب أو المرض بدليل أنه مات فى تلك السنة بعد مقتل البرواناه بوقت قصير سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م.

دولة بنى قلاوون

١ ـ عصر المنصور قلاوون:

وهو الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى الألفى أحد المماليك البحرية الذين نبغوا فى أواخر العصر الأيوبى. وهو قفجاقى من قبيلة برج أغلى، فجلب إلى مصر وهو صغير، واشتراه الأمير علاء الدين أقسنقر الساقى العادلى أحد مماليك العادل أبى بكر بن أيوب بألف دينار، فعرف من أجل ذلك بالألفى، فلما مات أستاذه الأمير علاء الدين انتقل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب. وكان قلاوون أحد الأمرآء الذين خرجوا من مصر مع من غادرها من المماليك البحرية عقب مقتل الأمير فارس الدين أقطاى على يد الملك المعز أيبك، ولكنه ما لبث أن عاد إليها وعظم نفوذه فى عهد السلطان الظاهر بيبرس حتى أصبح من أمراء مصر البارزين.

وقد حرص بيبرس أثناء حياته على توريث السلطنة لابنه الملك السعيد بركة خان، وقد مهد لذلك بأن جعل الأمراء يقسمون لابنه بيمين الطاعة سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م، ثم ما لبث أن ولاه عهد السلطنة عندما وافته الأخبار بقدوم التتار إلى بلاد الشام سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م لينوب عنه فى مصر أثناء اشتغاله بمحاربتهم. ومع ذلك كان بيبرس يعتقد أن الملك لن يصفو لابنه بعد موته وأيقن أن كبار أمراء المماليك لم يبايعوا ولده بولاية العهد إلا رهبة وخوفاً منه، وتوقع أن يقوموا بتدبير المؤامرات بعد وفاته لاغتصاب الملك منه، لهذا لجأ قبيل وفاته إلى تزويج ابنه بركة خان من السيدة غازية خاتون ابنة سيف الدين قلاوون بدمشق فى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م، وقد رمى بيبرس بهذا الزواج إلى أن يصبح قلاوون عضداً لابنه فى إدارة شئون الدولة لأنه كان فى ذلك الوقت أكبر أمراء المماليك فى مصر.

ولما توفى الملك الظاهر بيبرس بدمشق يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم سنة ٦٢٦هـ/الأول من يوليو سنة ١٢٧٧م كتب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار إلى الملك السعيد بركة خان بالقاهرة يخبره بوفاة أبيه، فبايع القضاة والأمراء الملك السعيد بركة خان سلطاناً ودعى له على المنابر فى مصر والشام، وكان عمره وقتذاك تسعة عشر عاماً. وقد قرّب الملك السعيد إليه جماعة من المماليك الأحداث، وسرعان ما ازداد نفوذهم وصاروا يتدخلون فى تعيين نواب السلطنة وعزلهم وفى توزيع الإقطاعات مما أغضب كبار الأمراء الصالحية وفى مقدمتهم صهره سيف الدين قلاوون والأمير شمس الدين سنقر الأشقر والأمير بدر الدين بيسرى ومما زاد من صعوبة موقف بركة خان قيامه بالقبض على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر والأمير بدر الدين بيسرى وسجنهما بالقلعة، فزادت الوحشة بينه وبين الأمراء، فاجتمعوا مع أجنادهم وصعدوا إلى قلعة الجبل، وبعثوا إلى الملك السعيد بركة خان: «إنك قد أفسدت الخواطر، وتعرضت إلى أكابر الأمراء، فإما أن ترجع عما أنت فيه، وإلا كان لنا ولك شأن»، فاضطر إلى ملاطفتهم وعقد الصلح معهم.

تدخل مماليك الملك بركة خان لإفساد العلاقة بين بركة خان وأكابر الأمراء، فأشاروا عليه بأن يعهد إليهم بغزو سيس والقبض عليهم عند عودتهم من سيس. فلما علم الأمراء بما يدبر ضدهم، أشاروا على الملك بركة خان بإبعاد هؤلاء المماليك الخاصكية عنه على أن الملك رفض طلبهم، وعاد من دمشق إلى قلعة الجبل، فحاصروه وعزلوه، وعينوه نائباً على الكرك تنفيذاً لرغبته. ولما تم خلع الملك السعيد بركة خان وسافر إلى الكرك عرض الأمراء السلطنة على الأمير سيف الدين قلاوون، فرفض وقال: «أنا ما خلعت الملك السعيد طمعاً فى السلطنة، والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الأمير الظاهر».

فمال الجميع إلى قوله وصوبوا رأيه واستدعوا الأمير سلامش الابن الثانى لبيبرس وولوه العرش. وكان سلامش صغير السن لم يتجاوز السابعة من عمره وقد تم تعيين سيف الدين قلاوون أتابكًا له. على أن الأمير قلاوون لم يمتنع عن قبول السلطنة رغبة منه في الاحتفاظ بها لذرية بيبرس أو احترامًا لمبدأ وراثة العرش بل رأى أن أغلبية الجيش كان من الظاهرية (أتباع الظاهر بيبرس) أنصار الظاهر بيبرس فخشى قيامهم بالثورة ضده، كما أن أكثر البلاد كان يتول إدارتها أمراء موالون لأسرة بيبرس، لذلك عوّل على عدم قبول السلطنة إلا بعد إقصاء هؤلآء الأمراء عن مناصب الدولة، ومع ذلك أخذ قلاوون يمهد فى الباطن للوصول إلى السلطنة، واتخذ لذلك الخطوات التى كان يمنى نفسه بتنفيذها منذ عزل السلطان بركة خان وهى عزل نوابه. لذلك أمر بعزل هؤلاء النواب من البلاد الشامية وولى من يثق بهم من أتباعه وقبض على جماعة من الأمراء الظاهرية وسجنهم بثغر الإسكندرية ثم تخلص من منافسة البارزين الذين كانوا يطمعون فى السلطنة. وبعث بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق وفوض إليه نيابة السلطنة بالشام وأحضر بعض المماليك البحرية الصالحية وأحسن إليهم وأرسل البعض الآخر إلى نيابات الشام.

ولما تخلص الأمير قلاوون من مناوئيه، دعا أمراء المماليك وتحدث معهم فى صغر سن سلامش، واتفق معهم على خلعه وإرساله مع أخيه خضر إلى قلعة الكرك. وبذلك لم تطل مدته فى السلطنة أكثر من ثلاثة أشهر. وتولى قلاوون السلطنة فى مصر يوم الأحد العشرين من رجب سنة ٦٧٨هـ/السادس من ديسمبر سنة ١٢٧٩م وتلقب بالملك المنصور.

ولما اعتلى قلاوون عرش السلطنة فى مصر، خرج عليه بعض الأمراء الصالحية الذين اعتقدوا أن لهم أمجاداً حربية لا تقل عن أمجاد قلاوون، وأن لهم مثله الحق فى تولية السلطنة، كما غضب الأمراء الظاهرية لعزل بركة وسلامش ابنى أستاذهم ومن بين هؤلاء الثائرين الأمير سنقر الأشقر نائب السلطنة بالشام فقد رفض مبايعة قلاوون، وأعلن نفسه سلطاناً على الشام وتلقب بالملك الكامل، وخطب له على منبر الجامع الأموى. كما انضم إليه خضر وسلامش ابنى بيبرس وكان بركة خان قد توفى.

لما وصلت أنباء خروج سنقر على قلاوون إلى القاهرة، حرص على استعمال اللين والسياسة معه، فأرسل إليه يعاتبه ويستميله ولكن سنقر أصر على رأيه، فاضطر قلاوون إلى استعمال العنف فأرسل فى المحرم سنة ٦٧٩هـ/مايو سنة ١٢٨٠م جيشاً لمحاربته بقيادة الأمير عز الدين الأفرم، والتقى الأفرم بجيش سنقر الأشقر عند غزة، والحق به الأفرم هزيمة عنيفة.. ولما علم سنقر الأشقر بهزيمة عسكره، جمع وحشد، وبعث إلى الأمراء بغزة يعدهم ويستميلهم، كما أتته النجدات من حلب وحماة من جبال بعلبك. فسيّر سيف الدين قلاوون إمدادات جديدة إلى الجيش المصرى بغزة، واجتمعوا مع الأمير عز الدين الأفزم، وساروا جميعاً بقيادة الأمير علم الدين سنجر الحلبى إلى دمشق، والتقوا بجيش سنقر الأشقر فى التاسع عشر من صفر سنة ٦٧٩هـ/العشرين من يونيو سنة ١٢٨٠م. وثبت سنقر الأشقر وأبلى بلاءً عظيماً، غير أن طائفة كبيرة من عسكره انضمت إلى الجيش المصرى، كما رجع عنه عسكر حلب وحماة إلى بلادهم، وتخاذل عنه عسكر دمشق وحمل عليه الأمير سنجر الحلبى فانهزم وهرب إلى الرحبة بعد أن بعث حرمه وأمواله إلى قلعة صهيون.

كتب الأمير سنقر الأشقر إلى الملك أباقاخان بن هولاكو يحثه على الحضور لأخذ البلاد الشامية، ثم سار سنقر إلى قلعة صهيون وتحصن بها. فقرر سيف الدين قلاوون المسير إلى الشام بنفسه، فوصل إلى دمشق فى التاسع عشر من المحرم سنة ٦٨٠هـ/العاشر من مايو سنة ١٢٨١م، ومن هناك أرسل الأمير عز الدين أيبك الأفرم والأمير علاء الدين كشتغدى الشمسى لقتال سنقر الأشقر، فما كان من سنقر إلاَّ أن أرسل إلى سيف الدين قلاوون فى طلب الصلح على أن يسلم شيزر مقابل أن يعوض عنها بفامية وكفر طاب وأنطاكية وصهيون واللاذقية وغيرها، كما اشترط أن يكون أميراً على ستمائة فارس عدا من عنده من الأمراء فأجابه قلاوون إلى ذلك، وكتب له تقليداً بولاية هذه البلاد.

ولكن الصراع بين قلاوون وسنقر الأشقر لم يلبث أن تجدد فيروى المقريزى فى حوادث عام ٦٨٦هـ أن الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطانة قد توجه على رأس جيش كبير لقتال الأمير سنقر الأشقر بقلعة صهيون وكان السبب وراء ذلك أن سيف الدين قلاوون حين نازل حصن المرقب وهى على مقربة من صهيون لم يحضر إليه سنقر الأشقر وبعث إليه بابنه ناصر الدين صمغار، فغضب قلاوون وحمل معه صمغار إلى مصر فسار حسام الدين طرنطاى إلى مصر ومعه سنقر الأشقر، فخرج قلاوون وأولاده وأولاد الظاهر بيبرس فى عساكره للقاء سنقر الأشقر. وعاد به إلى القلعة وبعث إليه الخلع والثياب والتحف والخيول وأنعم عليه بإمرة مائة فارس وقدمه على ألف فارس.

٢ ـ عصر الأشرف خليل بن قلاوون:

وقع اختيار قلاوون على ابنه علاء الدين ليكون ولياً لعهد السلطنة، كما فعل من قبل بيبرس عندما منح ابنه بركة خان ولاية عهده. فجمع قلاوون لذلك الأمراء وعرض عليهم ما استقر عليه رأيه من تفويض ابنه الأكبر ولاية العهد، فأقروا قلاوون على رأيه. وكان الدافع لقلاوون على إقامة ابنه سلطاناً فى حياته أنه كان دائم السفر إلى بلاد الشام لمحاربة التتار فرأى أن يقيم ابنه مكانه فى إدارة شئون مصر أثناء غيبته مع منحه لقب السلطنة حتى تكون له الهيبة فى نفوس الأمراء والأهالى. وذلك فى شهر رجب سنة ٦٧٩هـ/نوفمبر سنة ١٢٨٠م ولكن علاء الدين توفى فى حياة أبيه فى شهر شعبان سنة ٦٨٧هـ/سبتمبر سنة ١٢٨٨م، فعهد قلاوون من بعده لابنه الثانى خليل ولقبه بالأشرف. إلا أن بعض المؤرخين ذكروا أن قلاوون امتنع عن توليه خليل العهد ويرجع السبب فى ذلك لأنه كان مبغضاً عند كثير من الأمراء لاستهانته بهم وتصغيره شأنهم ولما اتصف به من القسوة وعدم التدين ثم لاتهامه بدس السم لأخيه علاء الدين ولكن هذا لم يمنع أن يؤول الملك إلى خليل عند وفاة قلاوون فى السادس من ذى القعدة سنة ٦٨٩هـ/العاشر من نوفمبر سنة ١٢٩٠م.

افتتح الأشرف خليل بن قلاوون عهده بقتل الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة، فقد بلغه أن الأمير طرنطاى يريد الفتك به، فسارع بالقبض عليه وقتله وصادر أمواله وممتلكاته، ووقع اختياره على الأمير بدر الدين بيدرا فولاه نيابة السلطنة. ولكن سرعان ما انقلب الأشرف خليل على بيدرا، فقد تبين له أن أملاكه قد اتسعت وأن ثروته قد زادت، كما أخذ

الوزير شمس الدين بن السلعوس يوغر قلب السلطان على بيدرا حتى تغير عليه واستعاد بعض الأراضى التى كان قد استولى عليها وضمها إلى أملاكه. ومما زاد من غضب السلطان على بيدرا أن نواب بيدرا عبثوا بأموال الدولة واستولوا على متاجر الإسكندرية، فقرر الأشرف خليل التخلص منه.

رأى بيدرا أن يتعاون مع الأمراء المعارضين للأشرف خليل واتفق مع الأمير حسام الدين لاجين على قتله إذا أمكنتهما الفرصة وقد حانت لهم هذه الفرصة عندما نزل الأشرف خليل فى المحرم سنة ٦٩٣هـ/ديسمبر سنة ١٢٩٣م فى بلدة تروجة من أعمال البحيرة للصيد، انتهز بيدرا وأصحابه الفرصة وقاموا بقتله فى العاشر من المحرم سنة ٦٩٣هـ/الحادى عشر من ديسمبر سنة ١٢٩٣م. وتشاور الأمراء قبل أن يبرحوا مكان الجريمة فى أمر السلطنة فاتفقوا على تولية بيدرا. ولم يكد الأمير زين الدين كتبغا يعلم بمقتل الأشرف خليل حتى سار بمن معه من المماليك السلطانية، ولحقوا بالسلطان بيدرا عند بلدة الطرانة من قرى مركز كوم حمادة بالبحيرة، وأحاطوا ببيدرا وقتلوه وتتبعوا أثر الفارين من أتباعه.

٣ ـ الملك الناصر محمد بن قلاوون.

جلس الناصر محمد بن قلاوون على عرش السلطنة فى السادس عشر من المحرم سنة ٦٩٣هـ/السابع عشر من ديسمبر سنة ١٢٩٣م وكان له من العمر تسع سنوات، واستقر الرأي على تعيين الأمير زين الدين كتبغا نائباً للسلطنة. وأصبح الأمير كتبغا هو القائم بجميع أمور الدولة وليس للناصر من السلطنة إلا اسم الملك فقط. كذلك عين الناصر محمد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيراً له. وسرعان ما ظهر التنافس بين كتبغا والشجاعى

وانضم إلى كل فريق منهما كثير من الأتباع، وقام كتبغا وحاصر منافسه الشجاعي وأتباعه في القلعة واستمر الحصار سبعة أيام، تكرر فيها القتال بين الفريقين، فخرجت أم السلطان وقالت لكتبغا: «ايش قصدك حتى نفعله، إن كان قصدك أن تخلع ابني من السلطنة فافعل». فرد عليها كتبغا بقوله: «أعوذ بالله السميع العليم والله لو بقي من أولاد أستاذنا بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ولاسيما ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة، وإنما قصدنا الشجاعي وإخماد الفتنة». وانتهى هذا التنافس بقتل سنجر الشجاعي.

علم الأمير حسام الدين لاجين وهو أحد الأمراء الذين اشتركوا في قتل الأشرف خليل بن قلاوون، وتمكن من الهرب بعد مقتله واستتر، وقيل أن كتبغا حماه ورعاه طوال مدة اختفائه لأنه كان مؤاخياً له منذ الصغر، علم بما حدث في القاهرة فسعى إلى كتبغا والتمس منه الحصول على عفو من الناصر محمد عنه، فعفا عنه الناصر محمد بشفاعة كتبغا وأمراء المماليك. وكان هذا العفو قد أغضب مماليك الأشرف خليل الذين لم ينسوا أنه ساهم في قتل سيدهم، فقام المماليك الأشرفية في العاشر من المحرم سنة ٦٩٤هـ/الثلاثين من نوفمبر سنة ١٢٩٤م بثورة عنيفة استمرت طوال الليل بمصر والقاهرة ودخلوا أسواق السلاح واستولوا على ما فيها وأخذوا خيل السلطان ونهبوا الاصطبلات ولكن الحكومة استطاعت أن تقضي على هذه الثورة وقبضت على الثائرين، وضربت أعناق بعضهم، وقطعت أطراف بعضهم وكان عددهم يزيد على الثلاثمائة مملوك.

انتهز حسام الدين لاجين فرصة هذه الثورة، فأخذ يغري صديقه كتبغا على الاستئثار بالحكم وخلع الناصر محمد، وزين له ذلك بقوله أن المماليك الأشرفية مماليك الأشرف خليل لم ينسوا ما حدث لسيدهم وأنهم متحفزون

للانتقام، وأن شوكتهم رغم ما حدث لم تنكسر طالما الناصر محمد متربعاً على العرش، واستجاب كتبغا، وتحدث إلى الخليفة العباسى فى القاهرة فى عدم أهلية الناصر لصغر سنه، وتحدث إلى الأمراء والقضاة فى أن البلاد فى حاجة إلى رجل قوى يخافه الجند وتخشاه الرعية، فاقتنع الخليفة والأمراء والقضاة، وأقروا خلع الناصر محمد وتولية كتبغا مكانه وحلفوا له وأصبح سلطاناً على مصر والشام يوم الأربعاء الحادى عشر من المحرم سنة ٦٩٤هـ/ الأول من ديسمبر سنة ١٢٩٤م وتولى حسام الدين لاجين نيابة السلطنة كما أمر كتبغا بنقل الناصر محمد وأمه من القصر وأسكنهما فى بعض قاعات قلعة الجبل.

لم تدم سلطنة كتبغا غير سنتين، فقد كان سيء الحظ، فقد شهد عهده انخفاض مياة النيل فى سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م، فعم الجدب معظم الأراضى وقلت المحاصيل الزراعية ولم تف بحاجة البلاد، وشكا الناس شدة الجوع وفتكت بهم الأمراض وفشا فيهم الموت حتى كانوا يتساقطون صرعى فى الطرقات وقد بذل كتبغا كل ما يستطيع لعلاج هذه الكوارث، فأحضر من الشام ما استطاع جمعه من القمح، وأصدر إلى الأمراء أمره بأن يعملوا على تخفيف حدة المجاعة بإطعام من يرسله إليهم من الفقراء والمحتاجين، كما بذل الأطباء جهدهم فى مكافحة الوباء.

ومما أساء إلى كتبغا أيضاً ترحيبه بالأمراء والجند المغول الذين فروا إلى مصر على أثر اعتناق غازان محمود أيلخان المغول فى فارس الإسلام، وكان هؤلاء المغول من المغول العويراتية من بنى جنس كتبغا. وعندما وصلوا إلى مصر خرج الأمراء للقائم ورحب بهم كتبغا ومنحهم الإقطاعات وأجرى عليهم الأرزاق. وقد أثار هذا الموقف غضب أمراء الدولة على كتبغا وخاصة

حين رأوا أن كثيراً منهم احتفظ بدينه الوثنى وأن كتبغا منحهم الحرية الكاملة فى إقامة طقوسهم الدينية ولم يعترض على عدم صيامهم شهر رمضان، كما رفض أن يكرههم على اعتناق الإسلام ومنع الناس من التعرض لهم. ومن الأمور التى أخذت على كتبغا أيضاً أنه منح السلطة والنفوذ لأميرين من خاصة مماليكه هما بتخاص وبكتوت الأزرق فلم يحسنا استعمالها وتحكما فى أمور الدولة وغيّرا عليه قلوب الناس لسوء سيرتهما وأوغرا صدره على لجين.

انتهز حسام الدين لاجين الفرصة، وبدأ يأتمر به ويعمل على إبعاده وتولية السلطنة مكانه، ونفذت المؤامرة أثناء عودة كتبغا من الشام بصحبة لاجين، وفى طريق العودة انقض لاجين على كتبغا يريد قتله، ولكن كتبغا استطاع الفرار والعودة إلى الشام حيث لجأ إلى قلعتها واحتمى بها. ولم يملك لاجين بعد أن فشل فى قتل كتبغا إلا أن يستوى على خيمته وأسلحته وخزائنه وحراسه، ثم اجتمع بالأمراء الذين كانوا مع كتبغا فى خيمته، وشاورهم فى الأمر فوافقوا على اختياره سلطاناً بشرط ألا ينفرد برأى دونهم، ولا يترك مماليكه يعبثون بمصالح الغير، ولا يقدم أحداً من هؤلاء المماليك عليهم وقد قبل هذه الشروط وحلف لهم على تنفيذها، وتلقب بعد وصوله القلعة بالقاهرة بالسلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين. وفى الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٦٩٦هـ/الثامن من يناير سنة ١٢٩٧م وصل إلى دمشق الأمير سيف الدين قبجق نائب الشام من قبل حسام الدين لاجين وعقب وصوله أرسل إلى كتبغا وأبلغه أن السلطان لاجين يأمره بالتوجه إلى مدينة صرخد للإقامة فيها، فذهب إليها معززاً مكرماً ومعه أولاده ومماليكه وغلمانه وأقام بها.

قام حسام الدين لاجين بتولية الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورى نيابة السلطنة فى مصر. كما قرر إبعاد الملك الناصر محمد عن مصر، فاستدعاه مع قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى وأخبرهما برغبته فى إرساله إلى الكرك ليبقى بها إلى أن يبلغ سن الرشد وعندئذ يسلمه ملكه بحجة أنه سينوب عنه فى حكم مصر. وعلى أثر ذلك رحل الناصر محمد إلى الكرك.

كان من حسن حظ حسام الدين لاجين أن علا فيضان النيل، فكثرت المحاصيل، وانخفضت الأسعار، وانقطعت الأوبئة، فزاد حب الناس له، فكانوا يعلنون عن حبهم بالترحيب به والتهليل له كلما خرج بموكبه يشق شوارع القاهرة. ولكن لم يلبث أن وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه من سبقوه من السلاطين المماليك، فقد حنث بالوعد الذى قطعه على نفسه أمام الأمراء عندما اختاروه لتولى السلطنة، فبدأ يقرب مماليكه إليه ورقاهم إلى مرتبة الإمارة. وكان أقربهم إليه الأمير سيف الدين منكوتمر فعينه فى نيابة السلطنة بدلا من الأمير شمس الدين سنقر رغم معارضة الأمراء فى تعيينه ومنحه الإشراف على شئون الدولة مما زاد من سخط وكراهية الشعب والجند والأمراء لحسام الدين لاجين لأن منكوتمر كان فظاً عنيفاً، ثم زاد حنقهم عليه عندما أراد أن يعين منكوتمر ولياً لعهده، فلما شعر منكوتمر بكراهية الأمراء والناس له، أشار على لاجين بأن يبعد أمراء مصر إلى الشام، وأن ينقل أمراء الشام إلى مصر واقتنع لاجين بمشورته، وأخذ يعد العدة لتنفيذ هذا المشروع، فأحس الأمراء بالخطر فقرروا التخلص من لاجين ومنكوتمر معاً. وفى يوم الخميس العاشر من ربيع الآخر سنة ٦٩٨هـ/ الخامس عشر من يناير سنة ١٢٩٩م قام الأمير سيف الدين كرجى بقتل لاجين بينما كان جالساً فى قصره وهو يلعب الشطرنج. ثم قتل منكوتمر بعد ذلك.

وفي يوم السبت الثاني عشر من ربيع الآخر سنة ٦٩٨هـ/السابع عشر من يناير سنة ١٢٩٨م، اجتمع الأمراء للتشاور، فقام الأمير سيف الدين كرجي وقال: «يا أمراء أنا الذى قتلت السلطان وأخذت ثأر أستاذى (أى الأشرف خليل) والملك الناصر صغير ما يصلح ولا يكون السلطان إلا هذا (وأشار إلى الأمير سيف الدين طغجي) وأنا نائبه ومن خالفه فدونه». واستل سيفه، فسكت الجميع، وانفض المجلس دون أن يتخذ قراراً، وانتشرت الفتن والاضطرابات فى القاهرة، وانتهت بمقتل الأميرين كرجي وطغجي واستقر رأى الأمراء على استدعاء الناصر محمد من الكرك.

دخل الناصر محمد القاهرة يوم السبت الرابع من جمادى الأولى سنة ٦٩٨هـ/السابع من فبراير سنة ١٢٩٨م واستقبل استقبالا حماسياً من جميع أهالى مصر، وقام بتعيين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا غير أن هذين الأميرين عملا على التضييق على الناصر محمد، فلم يمكناه من الاتصال بشعبه أو التصرف فى أمواله، بل عمدا إلى الحجر عليه وتقرير راتب شهرى ضئيل له، فضاق بهما وبتصرفاتهما، وزهد فى الملك فاستدعى الأمير بكتمر الجوكندار وأعلمه بما عزم عليه من القبض على الأميرين سلار وبيبرس، وكانا لهما أرصاد وعيون عند السلطان يبلغونهما كل ما يقال عنهما، فأخذا حذرهما، فتظاهر الناصر محمد بأنه خارج للحج، فلما وصل إلى الكرك أعلن أنه عدل عن الحج، ورغب فى المقام بالكرك، وفوجىء سلار وبيبرس بهذا القرار، فأرسلا إلى الناصر يتهددانه ويطلبان منه العودة إلى القاهرة، ولكنه أصرَّ على موقفه

وقع اختيار الأمراء على بيبرس الجاشنكير وتلقب بالملك المظفر فى الثالث والعشرين من شوال سنة ٧٠٨هـ/الخامس من أبريل سنة ١٣٠٩م،

وعين الأمير سلار نائباً للسلطنة. ولم تطل سلطنة بيبرس غير سنة واحدة، ولم تستقر له الأمور خلالها، فقد نقص فيضان النيل وارتفعت الأسعار، فنسب الشعب هذا كله لبيبرس فكرهوه وكرهوا عهده، وخاصة أنه اتبع سياسة العنف في معاملته للناس والأمراء، فقد كان يخشى أن يتصل المماليك بالناصر أو أن يتآمروا على خلعه. أما الناصر، فإنه لم يقصد بلجوئه إلى الكرك التنازل عن العرش، وإنما أراد أن يمهد للاتصال بأمراء الشام ونوابه لجمعهم حوله، ثم مهاجمة مصر لإبعاد بيبرس وسلار واستخلاص العرش ثانية لنفسه. وقد نجحت خطة الناصر، واستجاب أمراء الشام لدعوته وأعلنوا ولاءهم له، والتفوا حوله، بل لقد خرج بعض الأمراء الساخطين من مصر، وانضموا إلى الناصر، عند ذلك خرج الناصر بجنده إلى دمشق، وبدأ يعد العدة للرحيل إلى مصر، فاشتد الحال على بيبرس حين علم بذلك، ونصحه سلار بأن يرسل إلى الناصر محمد بتنازله عن عرش السلطنة وأن يعينه الناصر محمد نائباً له على إحدى المدن، وبالفعل أعلن بيبرس خلع نفسه من السلطنة بحضور الخليفة وقضاة مصر الأربعة بعد أن استولى على ما في خزائن مصر من الأموال وفرّ هارباً ومعه مماليكه إلى الصعيد.

لما رأى الناصر محمد أن الأمور أصبحت ممهدة له في مصر، قرر الرحيل إليها فخرج من دمشق في السادس والعشرين من رمضان سنة ٧٠٩هـ/السابع والعشرين من فبراير سنة ١٣١٠م مع بعض أتباعه وتجمعت لديه الجيوش المصرية والشامية عند وصوله غزة، ثم سار آمنا على نفسه حتى دخل مصر، فاستقبله الأمير سلار نائب السلطنة وبقية الأمراء، وقدموا له فروض الطاعة والولاء، وكان أول ما فعله الناصر عقب تسلمه زمام الملك أن أمر بالقبض على بيبرس الجاشنكير، فقبض عليه بالقرب من غزة حيث كان يحاول الهرب

ومعه عدد من مماليكه، ثم أمر به فقتل، ثم قضى على سلار على الرغم من أنه كان قد منحه قلعة الشوبك، ولم ينس تأييده لبيبرس الجاشنكير فى الحجر عليه.

٤ ـ نهاية دولة بنى قلاوون:

توفى الناصر محمد بن قلاوون يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة ٧٤١هـ/السابع من يونيو سنة ١٣٤١م، بعد أن عهد بالملك من بعده إلى ابنه سيف الدين أبى بكر، وقد أوصى الأمراء بتنفيذ ذلك بعد وفاته. وعلى أثر ذلك تولى سيف الدين أبو بكر عرش مصر ولقب بالمنصور وله من العمر نحو عشرين عاماً وهو أول من تولى السلطنة من أولاد الناصر، فقد ولى السلطنة اثنا عشر سلطاناً من أولاده وأحفاده، ثمانية منهم من أولاده، وأربعة من أحفاده. وقد ولى هؤلآء الأبناء والأحفاد العرش أطفالا صغاراً، فلم يكن لهم من الأمر شيء، بل كانت أمور الدولة كلها فى أيدى كبار الأمراء، فشغلوا بالمؤامرات والمنافسات عن النظر فى صالح البلاد والرعية، فساءت الأحوال الاقتصادية، وعمّت الفوضى، وانتهى الأمر بسقوط دولة بنى قلاوون فى عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م.

١ ـ لم تستمر فترة سلطنة سيف الدين أبى بكر طويلا، فسرعان ما ساءت العلاقات بينه وبين أتابكة قوصون، وحرض الأمراء عليه، وعلى إثر ذلك صعد قوصون إلى القلعة، وقبض على السلطان، وبعث به إلى قوص، ثم قتل بعد قليل ولم يكن قد مضى عليه فى السلطنة غير ثلاثة شهور.

٢ ـ بقتل أبى بكر، اعتلى أخوه علاء الدين كجك عرش السلطنة ولقب بالأشرف وكان عمره وقتذاك يتراوح بين الخامسة والسابعة وذلك يوم

الاثنين الحادى والعشرين من صفر سنة ٧٤٢هـ/السادس من يوليو سنة ١٣٤١م، وقد أمضى فى السلطنة خمسة أشهر وعشر أيام لم يكن له فيها أمر ولا نهى وتدبير أمور الدولة كلها إلى قوصون نائب السلطنة.

٣ ـ بعزل كجك، تولى السلطنة أخوه أحمد بن الناصر محمد، وكان مقيماً بقلعة الكرك عند عزل أخيه، فاستدعاه الأمراء وولوه السلطنة ولقب بالسلطان الناصر، ولكنه لم يلبث فى مصر طويلا فقد عاد إلى الكرك وآثر المقام بها تاركاً أمور الدولة فى مصر والشام فى أيدى الأمراء، ولكن أمراء مصر لم يقبلوا هذا الوضع، وخلعوه يوم الأربعاء الحادى والعشرين من المحرم سنة ٧٤٣هـ/السادس والعشرين من يونيو سنة ١٣٤٢م.

وقع اختيار أمراء الدولة على عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد، فتولى السلطنة يوم الخميس الثانى والعشرين من المحرم سنة ٧٤٣هـ/السابع والعشرين من يونيو سنة ١٣٤٢م وتلقب بالملك الصالح. وقد استمرت فترة سلطنته ما يقرب من ثلاث سنوات، إذ توفى يوم الخميس الرابع من ربيع الآخر سنة ٧٤٦هـ/الرابع من أغسطس سنة ١٣٤٥م.

٥ ـ تولى السلطنة من بعد الملك الصالح إسماعيل أخوه شعبان وتلقب بالملك الكامل، وقد أقبل على حياة اللهو والمجون وأهمل شئون الدولة والحكم، كما أمر بالقبض على أخويه الأمير حاجى والأمير حسين وسجنهما تمهيداً لقتلهما، فأثار غضب الأمراء ، فقبضوا عليه وقتلوه يوم الأربعاء الثالث من جمادى الأخرة سنة ٧٤٢هـ/الحادى والعشرين من سبتمبر سنة ١٣٤٦م. فكانت مدة سلطنته سنة وثمانية وخمسين يوماً.

٦ ـ تولى السلطنة ابن سادس للناصر هو حاجى الذى لقب بالملك المظفر،

وكان فى الحادى عشر من عمره، فانغمس فى اللهو واللعب وخاصة اللعب بالحمام فضلا عن اختلاطه بالأوباش وعامة الناس واستغراقه فى الغناء والموسيقى حتى قيل إنه كان يضرب العود بنفسه، فعظم ذلك على الأمراء، ونصحوه بالابتعاد عن هذه الأفعال، فغضب، وعزم على قتلهم، غير أنهم نجحوا فى قتله يوم الأحد الثانى والعشرين من رمضان سنة ٧٤٨هـ/السادس والعشرين من ديسمبر سنة ١٣٤٧م.

٧ ـ تولى السلطنة من بعده أخوه حسن بن الناصر محمد، ولقب بالملك الناصر، وكان عمره يومئذ إحدى عشرة سنة وذلك يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من رمضان سنة ٧٤٨هـ/الثامن والعشرين من ديسمبر سنة ١٣٤٧م، وقد طالت مدة حكمه قليلا، فظل سلطاناً إلى سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م، ثم اشتد الصراع بينه وبين الأمراء، فقاموا بالقبض عليه وسجنه وولوا مكانه أخيه صالح.

٨ ـ تولى السلطنة من بعد السلطان حسن أخيه صالح يوم الاثنين الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٧٥٢هـ/الثانى والعشرين من أغسطس سنة ١٣٥١م ولقب بالملك الصالح. ولم تكن حاله فى السلطنة ومع الأمراء خيراً من حال أخوته، وقد انتهى أمره بالعزل والقبض عليه وحبسه بالقلعة، وأعيد الناصر حسن للسلطنة مرة ثانية سنة ٧٥٥هـ/١٣٦٤م.

ظل السلطان حسن على عرش السلطنة ست سنوات ونصف حكم فيها نفسه إذ كان قد بلغ سن الرشد، فأتت كفاءة وجدارة جعلت المؤرخين يشيدون بمقدرته وشخصيته. ولكن حدث فى نهاية عهده أن أختلفت مع

الأمير يلبغا الذى قبض عليه ولم يعرف للناصر حسن إثر بعد ذلك، قيل أنه خنق ورمى فى البحر وقيل أن يلبغا اشتد فى عقوبته حتى مات ودفنه فى مصطبة قرب داره، وقيل دفنه وأخفى قبره، وبوفاته ينتهى عهد تولية السلاطين من أولاد الناصر، ويأتى عهد السلاطين من أحفاده.

٩ ـ تولى السلطان المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى بن الناصر سنة ٧٦٢هـ/١٦٣١م، وكان فى الرابعة عشر من عمره، ولم يعمر فى الحكم غير سنتين، إذ كان ميالا إلى الطرب مدمناً شرب الخمر حتى كان لا يفيق ساعة واحدة. لذلك قبض عليه أتابكه يلبغا فى الرابع من شعبان سنة ٧٦٤هـ/التاسع عشر من مايو سنة ١٣٦٣م، وخلعه من السلطنة وحبسه فى القلعة.

١٠ ـ تولى السلطنة الأشرف شعبان السلطان حسن وكان فى العاشرة من عمره، واستمرت مدة سلطنته ثلاثة عشر عاماً (٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٦م)، وقد انتهى أمره بالقبض عليه وقتله فى الثانى من ذى القعدة سنة ٧٧٨هـ/السابع عشر من مارس سنة ١٣٧٧م./

١١ ـ تولى السلطنة السلطان المنصور علاء الدين على وكان فى السادسة من عمره، وقد ظل سلطاناً حتى وفاته فى الثالث عشر من صفر سنة ٧٨٣هـ/التاسع من مايو سنة ١٣٨١م وله من العمر اثنتا عشرة سنة.

١٢ ـ تولى السلطنة بعده السلطان زين الدين أمير حاج وكان فى نحو الحادية عشر من عمره، ولقب بالملك الصالح، وعين الأمير برقوق أتابكاً له. وقد أخذ برقوق يعمل للوصول إلى منصب السلطنة، حتى كان يوم التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤هـ/ السادس والعشرين من

نوفمبر سنة ١٣٨٢م. حيث دعا برقوق الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء إلى اجتماع قام فيه القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتب السر الشريف قائلا : «يا أمير المؤمنين ويا سادات القضاة أن أحوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان فى البلاد وخرج غالب النواب فى الشام عن الطاعة وأن الوقت قد ضاق ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب». فاستقر الرأى على خلع السلطان الملك الصالح أمير حاج وتوليه الأمير برقوق عرش السلطنة.

وهكذا انتهى حكم أسرة قلاوون، بعد أن حكموا مصر مائة وثلاث سنين، وتولى حكم مصر من بعدهم دولة جديدة وهى دولة المماليك الثانية وأطلق عليها اسم «البرجية»، لأن أفرادها سكنوا فى أبراج القلعة، وذلك لتمييزها عن دولة المماليك البحرية الذين سكن أفرادها جزيرة الروضة.

علاقات مصر الخارجية
في عصر دولة بني قلاوون

أولا ـ العلاقات مع الصليبيين:

توفى الظاهر بيبرس قبل أن يتمكن من طرد الصليبيين من بلاد الشام، فظلوا مقيمين فى بعض جهات الساحل وخاصة فى طرابلس وعكا. فلما تولى قلاوون سلطنة مصر، عمل على مهادنة الصليبيين فى أوائل عهده كى يتفرغ لقتال المغول، فجدد الهدنة التى عقدها بيبرس مع الفرسان الاسبتارية بحصن المرقب، كما عقد معاهدة مع الفرسان الاسبتارية بعكا، تقررت بمقتضاها الهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات. كما عقد معاهدة أخرى مع بوهمند السابع أمير طرابلس، ومعاهدة ثالثة مع صاحب عكا. فلما تخلص قلاوون من الخطر المغولى بانتصاره فى معركة حمص، انقلب إلى حرب الصليبيين، ولم يلتفت إلى المعاهدات والمهادنات التى عقدها معهم، بل شن هجوماً فجائياً على مركز الفرسان الاسبتارية فى حصن المرقب جنوبى اللاذقية وذلك سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م، ولم يستطع الفرسان الاسبتارية مقاومة هذا الهجوم فسلموا حصنهم بعد حصار دام شهراً وانتقلت فلولهم إلى عكا وطرابلس. وقد خافت الإمارات الصليبية الأخرى أن يكون مصيرها مماثلا فهرع بوهمند السابع صاحب طرابلس إلى مهادنة قلاوون مقدماً له بعض الحصون والأموال لترضيته، وفعلت مثله إمارة صور إذ تنازل صاحبها عن نصف دخل صور السنوى وتعهده بعدم تجديد تحصيناتها مقابل عقد الصلح مع قلاوون لمدة عشر سنوات.

وفى عام ٧٨٦هـ/١٢٨٧م، استولى قلاوون على مدينة اللاذقية، وقد برر قلاوون هجومه بوفاة بوهمند السابع، ولم يكتف قلاوون بذلك، بل أعد العدة سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م للاستيلاء على مدينة طرابلس، وسار إلى طرابلس، وبعد أن دار قتال عنيف بين الفريقين، تمكن المسلمون من إحداث ثغرة فى الأسوار، وما لبثت طرابلس أن سقطت فى السادس من ربيع الآخر سنة ٦٨٨هـ/التاسع والعشرين من أبريل سنة ١٢٨٩م.

كان سقوط طرابلس يحمل نذير الخطر لإمارة عكا الصليبية خصوصاً بعد أن فقدت الأمل فى مجيء حملة صليبية تساعدها على البقاء. ولهذا رأت أن تلجأ إلى خطة دفاعية يائسة وجريئة فى نفس الوقت وهى أن تبدأ هى بالهجوم وتنقض ما بينها وبين قلاوون من هدنة معتمدة فى ذلك على مناعة حصونها ووفرة ما لديها من مال وسلاح وقد بدأت فعلا فى تنفيذ خطتها بالاعتداء على تجار المسلمين وقوافلهم المارة من هناك، فاتخذ قلاوون من ذلك ذريعة لإعلان الحرب على عكا، وشرع فى إعداد العدة للزحف عليها، ولكنه توفى قبل أن يتحقق حلمه بطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام.

وقد سار الأشرف خليل بن قلاوون على نفس سياسة والده نحو الصليبيين، فقد اتجه بعساكره فى الثالث من ربيع الأول سنة ٦٩٠هـ/ السادس من مارس سنة ١٢٩١م لفتح عكا، فنزل على عكا يوم الخميس الثالث من ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ/الخامس من أبريل سنة ١٢٩١م ونصب عليها اثنين وتسعين منجنيقاً، وفرض حصاره عليها، وقد بذلت حامية عكا جهداً كبيراً فى سبيل الدفاع عنها غير أن المسلمين نجحوا فى اقتحام أسوارها يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ/الثامن عشر من مايو سنة ١٢٩١م بعد حصار دام أربعة وأربعين يوماً. فأمر الأشرف خليل

بهدم الأسوار والكنائس ثم أحرقت المدينة ودمرت. كما نجح الأشرف خليل في فتح صور وحيفا وصيدا وبيروت وعتليت وانطرسوس، وباستيلاء السلطان الأشرف خليل على عكا ومدن الساحل الشامي، انتهت دولة الصليبيين في بلاد الشام، فاتخذوا جزيرة أرواد مقراً لهم وبنوا لأنفسهم سوراً يتحصنون به من الغزاة.

وفي أيام الناصر محمد بن قلاوون، أخذ الصليبيون الموجودين في جزيرة أرواد الواقعة على بعد ثلاثة أميال في البحر أمام بلدة انطرطوس شمالي طرابلس، يشنون الغارات على الموانى الشامية ولاسيما مدينة طرابلس القريبة منها. ومن ثم قرر الناصر محمد احتلال تلك الجزيرة فأعد الأسطول وشحنه بالمقاتلة والسلاح والنفط، وأسند قيادته إلى أمير البحر سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري. ثم أبحر الأسطول سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م متجهاً إلى طرابلس، حيث انضم إليه الأمير سيف الدين استدمر الكرجي نائب السلطنة بطرابلس. وما لبث المماليك أن تمكنوا من الاستيلاء على تلك الجزيرة، وقتل من أهلها ما يقرب من ألف، ووقع في الأسر نحوٌ من خمسمائة. وهكذا خلت سواحل الشام من الصليبيين.

لم تتوقف محاولات الصليبيين في مهاجمة دولة المماليك بمصر فقد أصبحت جزيرة قبرص بعد سقوط عكا قلعة البقايا الصليبية ولذا لم يكن عجباً أن يكون الملك هنرى الثاني ملك قبرص صاحب أحد المشاريع التي تقدم بها المتحمسون في عودة أوروبا إلى الحروب الصليبية. وتقدم هنرى بمشروعه إلى البابا كليمنت الخامس، ونصّ فيه على أن أول خطوة يجب اتباعها لضمان نجاح الصليبيين هي العمل على إضعاف مصر اقتصادياً بضرب حصار بحرى على مصر والشام مدة سنتين أو ثلاثة سنين. ورأى

هنرى الثانى أن ذلك الحصار كفيل بإضعاف دولة المماليك إلى درجة تجعلها عاجزة عن مقاومة حملة صليبية تنزل بأراضى مصر نفسها، ويظهر أن ذلك المشروع وغيره من المشروعات الصليبية المتعددة كانت تصل إلى مصر كأنها حوادث توشك أن تقع فعلا، فيأخذ السلاطين فى إعداد العدة للقتال، ومن أمثلة ذلك الخبر الذى وصل السلطان الناصر محمد سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م بأن ملك قبرص يستعد لغزو دمياط مما جعل المماليك يقومون بإجراءات واسعة لمواجهة الغزو المنتظر.

غير أن هنرى الثانى لم يعش طويلا ليرى ثمرة مشروعه الصليبى، فقد تكفل بتنفيذه بطرس الأول ملك قبرص سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م. ذلك الرجل الذى كان من حيث الأخلاق والثقافة أصلح الملوك المعاصرين لقيادة الحرب المقدسة. وقد أخذ بطرس الأول يفكر فى اختيار المكان الذى يتوجه إليه لطعن المسلمين فى مقتل. فنصحه أحد خاصته واسمه بارسفل الكولونى بالتوجه إلى الإسكندرية وأن يهاجمها فى يوم جمعة والمسلمون فى المساجد. وتردد الملك فى قبول هذه النصيحة وخشى مهاجمة مدينة عظيمة مثل الإسكندرية، ثم اقتنع أخيراً بوجهة نظر بارسفل، وعقد النية على أن تكون الإسكندرية هدفه.

ويذكر المؤرخ محمد بن قاسم النويرى المعاصر لحملة بطرس الأول على الإسكندرية الأسباب التى دفعت بطرس إلى اختيار الإسكندرية هدفاً لحملته ويحدد لذلك سبعة أسباب وهى:

- أن السلطان الصالح صالح بن الناصر محمد، أنزل بالمسيحيين وأهل الذمة أنواع من الظلم سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤-١٣٥٥م. فرأى بطرس الأول أن

ينتقم لأبناء دينه من المماليك.

٢ ـ أن بطرس الأول أرسل غداة ارتقائه العرش إلى السلطان حسن يستأذنه في التوجه إلى صور ليتوج بها من باب الذكرى، فرفض السلطان ذلك واحتقره ومنعه من دخول صور.

٣ ـ ضعف القوة البحرية الإسلامية فى الإسكندرية، إذ علم بطرس أن قراصنة من الفرنج قدموا إلى ميناء الإسكندرية فى شوال سنة ٧٥٥هـ وأغاروا على مينائها ونهبوا ما استطاعوا نهبه، كما أغاروا على سفينة تجارية قادمة من تركيا.

٤ ـ قدم إلى أبى قير ليلا ست سفن من البنادقة ضلوا الميناء، فأرسوا فى رشيد، ففطن المسلمون إليهم، وقتلوا منهم ثمانين رجلا، فلما علم البنادقة بما فعله أهل رشيد بأصحابهم ساعدوا بطرس الأول على غزو الإسكندرية.

أما بقية الأسباب الأخرى فخلاصتها أن بطرس الأول علم من بعض القبارصة أن الموانى المصرية تكاد تكون خالية من وسائل الدفاع والمقاومة مما جعل بطرس يستخف بأمر المماليك ومقدرتهم على الدفاع عن موانيهم.

لم يواجه الصليبيون فى هجومهم على الإسكندرية مقاومة جدية، بل كان سبيل فتحها ممهداً لهم للأسباب الآتية:

١ ـ غياب والى الإسكندرية صلاح الدين خليل بن عرام ببلاد الحجاز لأداء فريضة الحج وقيام الأمير جنفرا بالعمل مكانه، وقد عرف هذا الأمير بالضعف والتردد، كما أنه لم يكن بالحاكم المجرب الذى يستطيع أن ينظم وسائل الدفاع عن المدينة.

٢ ـ ضعف حامية الإسكندرية وعدم اهتمام السلطة المركزية فى القاهرة بتقويتها.

٣ ـ اضطراب الأحوال الداخلية بمصر، فلم يكن على رأس الحكومة سلطان قوى، بل استأثر بالنفوذ الأمير يلبغا الخاصكى دون السلطان الملك الأشرف شعبان الذى كان لا يتجاوز الثانية عشر من عمره.

٤ ـ أن مصر قاست كثيراً من وباء الطاعون الذى تفشى فى ديارها فى سنوات ٧٤٩، ٧٥٤، ٧٦١، ٧٦٣، ٧٦٤هـ، واستنفد هذا الوباء قوى مصر ومات بسببه أعداد هائلة من السكان.

٥ ـ كان الدفاع عن الإسكندرية قاصراً، إذ أن الأسوار الواقعة من جهة الميناء الشرقية لم يكن عليها مدافعون لحمياتها، ولم يكن يتقدمها خندق يمنع العدو من الصعود إلى السور. وكان الخندق الوحيد الذى يدور بالسور يمتد من الباب الأخضر حتى قلعة ضرغام فى مسافة قصيرة. وهكذا كان الدفاع السكندرى فى غاية السوء عندما ظهرت فى البحر مراكب القبارصة.

وفى يوم الأربعاء العشرين من المحرم سنة ٧٦٧هـ/٨ أكتوبر سنة ١٣٦٥هـ بعض السفن فى البحر أمام الإسكندرية، فاعتقد أهالى الإسكندرية أنها سفن التجار البنادقة الذين يأتون بمتاجرهم فى مثل هذا الوقت من العام للمبادلة بما يستورده المسلمون من بهار اليمن ويتعوضون عنها من متاجرهم. ولما لم تدخل السفن الميناء، انتاب القلق أهالى الإسكندرية، ثم تحولت السفن أخيراً إلى الميناء الغربى وألقت مراسيها فى منطقة الباب الأخضر. وعندئذ أدرك أهل الإسكندرية أن هذه السفن إنما قدمت من قبرص بقصد مهاجمة ثغر الإسكندرية، فتأهب أهل المدينة للقتال والنزال فتعمرت القلاع التى من

جهة البحر والجزيرة بالرماة الكثيرة، وأرسل الفرنج قارباً من سفنهم ليجس استطلاع منطقة الميناء ، فبادر المسلمون بقذفه بالسهام، فولى هارباً. وظل الوضع على هذا النحو طوال يوم الخميس حتى المساء، وفي صباح يوم الجمعة، انتشر على الساحل عدد كبير من المسلمين، قد تسلحوا بكل ما استطاعوا حمله، فمنهم من تسلح بالسيف والترس، ومنهم من حمل النبل والقوس، وفريق تسلح بالرمح والخنجر أو لبس الزرد، كما أقبلت إلى الإسكندرية حشود من فرسان العربان للمشاركة في الدفاع عن المدينة.

استخف أهل الإسكندرية بالقبارصة، وقد خدعهم ما ردده المسؤولون من التأكيد بإحكام الدفاع وقوة الجيش، وتوافر السلاح، وصمود الأسوار، فاستمرت الحياة طبيعية في المدينة، ويبدو أن بطرس دى لوزنيان أرسل جماعة من عيونه، وقد تنكروا في زى المسلمين، أثناء الليل إلى البر، فاختلطوا بالمسلمين، واطلعوا على ضعف الدفاع واستخاف الأهالي بسفن القبارصة.

وقد نصح أحد التجار المغاربة واسمه عبد الله البنا الأمير جنغرا بأن يكون القتال من وراء الأسوار إلى أن تصل النجدات من القاهرة، فاعترض عليه أصحاب الأربطة والمقابر خوفاً عليها أن تترك بدون حراسة فتتعرض للتخريب والتدمير. وكان القبارصة يترقبون عملاً حاسماً من جانب المسلمين، فلما أدركوا عدم اهتمامهم بالأمر، قدموا غراباً إلى الساحل، فتصدى له جماعة من المغاربة المجاهدين، ولكن هذا الغراب تمكن أخيراً من الإفلات وتابع سيره وخلفه أخر من خلفه يحميه برمى السهام على المسلمين فلما وصل الغرابان إلى البر تتابعت الغربان من مناطق مختلفة ،سرعان ما نزل الفرنج إلى البر. مما أحدث موجة من الذعر والهلع في نفوس المسلمين، فانهزموا إلى ناحية السور، وتدفقوا على أبواب المدينة فدخلوها، ولما رأى أهل الإسكندرية ما

أصاب طلائع المسلمين وخاصة العربان من القتل، فروا بأنفسهم إلى الأبواب، وتزاحموا فى الدخول، فهلك منهم كثيرون، بينما استشهد منهم كثيرون دفاعاً عن مدينتهم.

وقد شهد الأمير جنغرا ـ وقد جرح أثناء القتال ـ عملية هروب الأهالى فندم على ما اقترفه من خطأ، وحاول أن يدخل المدينة، فدخلها من باب الخوخة، وهو باب صغير يقع ما بين باب البحر والباب الأخضر، فأتى إلى بيت المال، وحمل ما كان فيه من الذهب خشية وقوعها فى أيدى القبارصة، ثم خرج من باب سدرة، وأمر باعتقال تجار الفرنج وقناصلهم بالإسكندرية. وأخرجهم إلى دمنهور.

اقترب القبارصة من سور الإسكندرية، ونزلوا على السور الشمالى، وحاولا إشعال النار فى باب البحر، إلا أن المدافعين عن السور تمكنوا من صدهم، فما كان من الفرنج إلا أن تراجعوا متجهين إلى الميناء الشرقى، حيث وجدوا مكاناً من السور قد خلا من المدافعين ومن خندق يعوقهم عن تسلق هذا الموضع منه، فما كان منهم إلا أن تقدموا فى اتجاه باب الديوان، فأحرقوه، ثم اقتحموه فى الوقت الذى صعدوا فيه على السور بعد أن نصبوا السلالم الخشبية وصعدوا إلى أعلى السور، فلما رأى المسلمون العدو على السور، اعتقدوا أن المدينة قد سقطت، فرحلوا يتلمسون الخلاص من أبواب المدينة الثلاثة باب السدرة وباب الزهرى وباب رشيد.

تدفق الفرنج فى شوارع المدينة ينهبون متاجرها وفنادقها وحوانيتها بعد أن كسروا أقفالها وأحرقوا أبوابها، وحملوا ما فيها على ظهور الجمال والحمير، وقتلوا من وجدوه مختبئاً فيها صغيراً كان أو كبيراً. واعتدوا على النساء والبنات وأحرقوا القيساريات والخانات، وكسروا قناديل الجوامع

والمساجد، وقتلوا الشيوخ والعجزة فى داخل المساجد وأسروا الرجال والنساء والصبيان واستمروا على ذلك يومى الجمعة والسبت. ولم يفرق الفرنج بين مسلم ومسيحى ويهودى.

كان القبارصة يعيثون فى المدينة فساداً أثناء النهار خلال الأيام الثمانية التى قضوها فى الإسكندرية، وعندما يقبل الليل يرحلون إلى سفنهم، لخوفهم من المبيت فى داخل المدينة لتوقعهم وصول النجدات المملوكية من القاهرة، وخوفاً من الإصابة بالطاعون بسبب انتشار الجثث فى الطرقات والشوارع.

وصلت إلى القاهرة أنباء قدوم الفرنج بأسطولهم إلى الإسكندرية، فظن الأمير بلبغا الخاصكى أن وراء أخبار هذه الحملة مؤامرة يراد بها القضاء على نفوذه، فأسرع إلى داره، ولم يجب طلب الأمير جنغرا حتى ثبت لديه من تدفق اللاجئين من الإسكندرية بأن الفرنج اقتحموا المدينة،. ونودى فى القاهرة بالتأهب لقتال الفرنج، فخرج الناس أفواجاً، وسار السلطان الأشرف شعبان برفقة الأتابك بلبغا والعساكر الإسلامية، فلما وصلوا إلى الطرانة، أرسل السلطان جيشاً لإنجاد الإسكندرية، وبينما كان هذا الجيش فى طريقه إلى الإسكندرية جاءت الأخبار بأن الفرنج جلوا عن الإسكندرية حين سمعوا بقدوم السلطان، وأرسل السلطان مرسوماً إلى الأمراء الذين تقدموه فى السير إلى الإسكندرية بأن يقيموا بتلك المدينة للإشراف على إصلاح ما تهدم منها وإقرار الطمأنينة فى نفوس الأهالى. وقد صب الأمير بلبغا الخاصكى غضبه على المسيحيين، انتقاماً لما أحدثه الصليبيون بالإسكندرية، ففرض عليهم مبالغ فادحة ليفدى بما يجمعه منهم الأسرى ولا سيما أن الفرنج أخذوا معهم نحواً من خمسة آلاف أسير مسلم ومسيحى ويهودى.

وقد كان للعدوان الصليبى على الإسكندرية أصداء واسعة فى العالم

الإسلامى ففى الأندلس، انتهز عبد الله الغنى بالله محمد بن إسماعيل بن فرج بن نصر سلطان مملكة غرناطة انشغال الملك بدرو الأول ملك قشتالة بمحاربة أخيه غير الشرعى هنرى دى تراستمارا الذى ينافسه على العرش وقام بهجوم واسع النطاق على بعض مدن الأندلس سنة ١٣٦٧م. وقد ورد فى رسالة كتبها الوزير لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانة إلى سلطان تونس المستنصر بالله بن أبى زكريا الحفصى أن مسلمى غرناطة عندما هاجموا مدينة جيان انطلقوا يهتفون بعبارة «يا لثارات أهل الإسكندرية» وهى صيحة تعبر عن موجة الغضب التى أثارتها غزوة القبارصة للإسكندرية فى نفوس الأندلسيين.

وفى بغداد أبدى الخان المغولى أويس بن الشيخ حسن ألمه عندما علم بدخول القبارصة الإسكندرية، وصادر المنسوجات التى أتت بها طائفة من الفرنج إلى مدينة تورين فى سنة ٧٦٧هـ من جملتها أقمشة كثيرة مخيطة وغير مخيطة كانت من بين ما نهبه القبارصة من الإسكندرية وباعوها لتجار الفرنج، ثم أمر أويس بالحوطة على أموالهم وقتلهم عن آخرهم، وكانوا نحو ثمانمائة شخص.

ولما بلغت أنباء ما فعله القبارصة فى الإسكندرية إلى أهل دمشق شق عليهم ذلك للغاية، وذكر الخطيب فى الجامع يوم الجمعة على المنبر ما اقترفوه فى الثغر السكندرى من الجرائم، فبكى الناس كثيراً، وصدر المرسوم من مصر إلى نائب السلطنة بدمشق بالقبض على النصارى والفرنج دفعة واحدة وإيداعهم فى الحبوس بالقلعة. وأن يصادر ربع أموالهم لعمارة ما خرب من عمران الإسكندرية ولعمارة مراكب لغزو الفرنج. ونودى فى البلاد بأن لا يعامل الفرنج البنادقة والجنوية والقطالونيين.

أما فى الغرب الأوروبى المسيحى، فقد أحدث استيلاء الفرنج على الإسكندرية دوياً شديداً، فلم يكد البابا يسمع الخبر حتى أرسل إلى بطرس مهنئاً كما أرسل إلى ملوك أوروبا وأمرائها يناشدهم أن يسرعوا فى تقديم المساعدة إلى ملك قبرص الأسد، الشجاع على حد تعبيره، ودبت الحماسة فى نفس شارل الخامس ملك فرنسا، فأرسل إلى بطرس يخبره بأنه سوف يبعث إليه بجيش كبير يحطم به قوة المسلمين، كما سمع كثير من المغامرين من فرسان أوروبا بكثرة الغنائم التى غنمها الصليبيون من الإسكندرية فنزحوا إلى قبرص للدخول فى خدمة ملكها، وقالوا غداة وصولهم أنهم لا يستطيعون صبراً أو انتظاراً لوصول إمدادات جديدة من الغرب وأنهم يريدون العمل فوراً لخدمة الدين. ومع ذلك فإن أحداً من ملوك أوروبا لم يلب دعوة البابا لمساعدة بطرس تلبية جدية، بل إن كثيراً منهم وجهوا إليه اللوم على الفرار من الإسكندرية عند قدوم جيش المماليك. أما البندقية وغيرها من الجمهوريات الإيطالية التى كانت ترتبط بعلاقات تجارية كبيرة مع مصر، فقد وقع عليها نبأ ما فعله بطرس بالإسكندرية وقع الصاعقة، وخشيت ما سوف يقع على تجارها وغيرهم من التجار الأوروبيين فى أعظم موارد ثروتهم. ولذا أرسلت البندقية فى أبريل سنة ١٣٦٦م رسلا إلى السلطان الأشرف شعبان تؤكد له أن السفن التى أغارت على الإسكندرية لا تمت إلى البندقية بصلة وأن البنادقة لم يساعدوا بطرس ولم يشتركوا معه، ولابد أن الرسل طلبوا إلى السلطان إطلاق سراح التجار البنادقة على الأقل. فرد السلطان بأنه لن يسمح للبنادقة أو غيرهم بالمتاجرة فى بلاده إلا إذا صفى حسابه أولا مع ملك قبرص. ولذا غادر الرسل مصر إلى قبرص حيث طلبوا من الملك بطرس إيقاف الأعمال العدائية ضد الأشرف شعبان، كما طلبوا إليه مفاوضته فى الصلح.

وكان الملك بطرس وقتذاك يعد العدة للقيام بحملة ضد بيروت فألح عليه البنادقة إلحاحاً شديداً بالكف عن كل عمل عدائي ضد السلطان وتعهدوا بدفع الأموال التى أنفقها الملك فى الاستعداد لحملة بيروت، فأمر بالعدول عن مهاجمة بيروت والتحول إلى شواطئ أسيا الصغرى للإغارة على الأتراك والسلاجقة.

ثانياً ـ العلاقات مع المغول:

لم يقف تيار العداء بين المغول فى فارس والمماليك فى مصر بعد وفاة الملك الظاهر بيبرس، بل ظل مستحكماً حتى استقر الأمر للسلطان الملك المنصور قلاوون، فأخذت جيوشهم تجتاح الحدود السورية ثانية، وكان مما شجعهم على ذلك ما سمعوه من اختلاف كلمة المماليك فضلا عن ثورة سنقر الأشقر الذى خرج عن طاعة الملك المنصور قلاوون ونادى بنفسه سلطاناً على دمشق، فاعتقدوا بأن سنقر الأشقر سيعمل على مساعدتهم ويتفق معهم على قتال المماليك. وكان سنقر قد أرسل إلى المغول فعلا ووعدهم بالمساعدة ضد المماليك ولكنه عاد أخيراً وعدل عن موقفه حينما راسله إخوانه مماليك مصر قائلين: «وهذا العدو قد دهمنا وما سببه إلا الخلف بيننا وما ينبغى هلاك الإسلام». وكانت النتيجة أن انضم سنقر إلى قلاوون وعادت وحدة المماليك من جديد وهذه شيمتهم دائماً إبان الأخطار والأزمات.

عبرت الجيوش المغولية نهر الفرات بقيادة منكوتمر بن هولاكو (أخو أباقاخان) ، واتجهت إلى حلب، فقام أهلها بإخلاءها ومن كان معسكراً فيها من الجنود ونزحوا إلى حماة وحمص ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى هجمت طوائف المغول على حلب واستولوا عليها، وأحرقوا ما بها من

الجوامع والمدارس ودور الأمراء ثم رحلوا عنها عائدين إلى بلادهم بما أخذوه من الأسلاب والغنائم على أن المغول سرعان ما عاودوا الكرة على بلاد الشام سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، وتقدم منكوتمر حتى وصل إلى حماة، وتقدم المنصور قلاوون بجيوشه من مصر حتى التقى بالمغول بالقرب من مدينة حمص عند قبر خالد بن الوليد، وهناك دارت موقعة كبيرة انتهت بهزيمة التتار وانسحابهم. وأراد قلاوون أن يقضى عليهم قضاء مبرماً فأرسل بطريق الحمام الزاجل إلى عماله وقواده عند الحدود الفراتية للوقوف فى وجه التتار الفارين، كما أمر بأن تضرم النار بالحشائش التى على الفرات فاحترق من المغول خلق كبير. وعاد منكوتمر حزيناً جريحاً إلى بغداد، حيث وبخه أخوه أباقاخان، وقال له : «لم لا مت أنت والجيش وإلا انهزمت».

والواقع أن واقعة حمص هذه كان لها أثر كبير فى تاريخ العلاقات بين المغول والمماليك إذ نجم عنها هدنة طويلة الأمد وأيقن المغول أنه لا قبل لهم بالمماليك ولو إلى حين. هذا وقد جاء هذا النصر فى وقت كانت فيه حركة الاتصال بين المغول والصليبيين لتكوين جبهة متحدة ضد مصر، تسير سيراً حسناً فلما قضى قلاوون على الخطر المغولى فى وقعة حمص زالت معه قيمة ذلك الحلف الصليبى المغولى.

ثم حدث أن توفى أباقاخان سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م وخلفه على السلطنة المغولية أخوه تكودار الذى كان قد اعتنق الإسلام قبل سلطنته وسمى نفسه تكودار أحمد سلطان واستهل عهده بإظهار إخلاصه وتمسكه بالدين الإسلامى، فأرسل كتباً إلى فقهاء بغداد وإلى قلاوون فى مصر، أعلن فيها رغبته فى حماية الإسلام والذود عنه والعمل على إعلاء شأنه، كما أظهر رغبته فى أن يظل فى سلام ومودة مع جيرانه المسلمين غير أن هذه السياسة

السلمية التى سلكها السلطان تكودار أحمد مع المسلمين جعلت أمراء المغول يتهمونه بالتعاون مع المسلمين، فثاروا عليه، وانتهى الأمر بقتله وتولية ابن أخيه المسمى أرغون بن أباقا فى أغسطس سنة ١٢٨٤م/٦٨٣هـ. وقد اضطهد أرغون المسلمين فى بلاده وصرفهم عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية، كما حرم عليهم الظهور فى بلاطه. وكان لهذه السياسة أسوأ الأثر فى مصر، فعادت العلاقات بين دولتى المماليك والمغول سيرتها الأولى وأخذ المماليك يتطلعون فى عهد السلطان الأشرف خليل إلى إجلاء المغول عن العراق. على أن المماليك وإن لم يقدموا على تنفيذ هذا المشروع فى عهد الأشرف خليل، فإنهم أخذوا يتربصون الدوائر بالمغول، فلما أغاروا على الرحبة خرجت إليهم طائفة من جند دمشق لصدهم، وتمكنت من ردهم على أعقابهم سنة ٦٩١هـ. كذلك عول السلطان الملك الأشرف خليل على ضم قلعة الروم إلى حوزته حين علم أن أهلها يوادعون التتار ويمالئونهم على المسلمين. وقد رحل السلطان الملك الأشرف خليل من القاهرة قاصداً بلاد الشام فى ربيع الآخر سنة ٦٩١هـ، على رأس جيش كبير وبصحبته وزيره الصاحب شمس الدين بن السلعوس، ثم زحف من دمشق إلى حلب قاصداً قلعة الروم. ولما اقترب منها، أخذ فى محاصرتها حتى تمكن من فتحها عنوة بعد حصارة دام ثلاثة وثلاثين يوماً وسماها قلعة المسلمين.

توفى أرغون بن أباقا سنة ٦٩٤٠هـ/١٢٩١م وخلفه أخاه جيخاتوا، وكان جيخاتوا مكروهاً من المغول لسوء سلوكه فرفعوا شكواهم من تصرفاته إلى ابن أخيه بيدو. ولما أحس بالخطر الذى يتهدده فرّ هارباً، غير أنه ما لبث أن قبض عليه وقتل فى سنة ٦٩٤هـ/٢٣أبريل سنة ١٢٩٥هـ وخلفه ابن أخيه بيدو الذى توج فى همذان (أبريل ـ أكتوبر ١٢٩٥م) فآثر الدين

المسيحى، وبذل كثيراً من الجهد لوضع العقبات فى سبيل نشر الإسلام بين المغول، كما استهل عهده بالقضاء على مناوأة ابن أخيه غازان الذى كان يلى بلاد خراسان، لكن غازان ما لبث أن خرج على بيدو ودارت بينهما معركة بالقرب من همذان انتهى الأمر فيها بفرار بيدو وقتله، وبذلك آل عرش المغول إلى غازن بن أرغون فى ذى الحجة سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م، الذى سرعان ما اعتنق الإسلام.

وقد ولد غازان سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م، وكان يصحب جده أباقاخان منذ نعومة أظفاره فى رحلاته للصيد، ولما بلغ العاشرة من عمره ولاه أبوه أرغون إمارة خراسان تحت وصاية الأمير نوروز أرغون أغا الذى تولى كثيراً من الأقاليم الفارسية فى عهد چنكيز خان وخلفائه من بعده مدة تسع وثلاثين سنة والى نوروز يرجع الفضل فى إسلام غازان، وكان غازان قد وعده بالدخول فى هذا الدين إذا وهب الله له النصر على خصمه بيدو، ولما تم له النصر وفى بوعده، فأسلم فى ٤ شعبان سنة ٦٩٤هـ/١٩ يوليو سنة ١٢٩٤م وأسلم معه عشرة آلاف من المغول.

وقد أظهر غازان تحمساً لدينه الجديد، فأمر بهدم الكنائس والبيع ومعابد الأوثان فى تبريز، وقد سبقه إلى هذا الفعل وزيره توروز الذى حطم جميع المعابد الدينية التى لا تمت للإسلام بصفة وقتل القساوسة البوذيين، وجبى الضرائب من رجال الكنيسة كما تغالى فى اضطهاد المسيحيين حتى أصبح من المتعذر عليهم السير فى شوارع بغداد. كذلك اتخذ غازان هو ورجال بلاطه العمامة لباساً للرأس، وسك عملة جديدة نقشت عليها بعض العبارات الإسلامية. كما أصدر فى مايو سنة ١٢٢٩م قراراً بتحريم الربا لمنافاته للشريعة الإسلامية.

ولم يكن لاعتناق غازان الإسلام أثر في توطيد علاقته بالمماليك في مصر، بل سار على سياسة من سبقه من المغول في بسط نفوذه على ما جاوره من البلاد وخاصة بلاد الشام التي كانت خاضعة لدولة المماليك، ومن ثم قضى فترة طويلة من حكمه في محاربتهم. وكانت حالة الضعف التي سادت مصر في أثناء اغتصاب عرش الناصر على يد كل من كتبغا ولاجين عقب سلطنته الأولى ووصاية الأميرين بيبرس وسلار في أثناء سلطنته الثانية، مما شجع غازان على التفكير في الإغارة على بلاد الشام وفتح دمشق وعزمه على فتح مصر وضمها إلى أملاكه، ومن أهم العوامل التي ساعدت على إغارة المغول إكرام السلطان كتبغا عصاة المغول الذين فروا من وجه غازان، ذلك أن انتصار غازان على بيدو واعتناقه الدين الإسلامي أدى إلى هجرة عدد كبير من جند بيدو إلى مصر ويعرف هؤلاء الفارين من وجه غازن باسم المغول الأويراتية أو العوايرتية وكان عددهم يزيد على عشرة آلاف. ومن العوامل الجوهرية التي شجعت على إغارة المغول هرب سيف الدين قبجق نائب دمشق مع جماعة من الأمراء في خمسمائة من الجند إلى غازان وإخباره بما آلت إليه حالة سورية في نهاية حكم حسام الدين لاجين مما دفعه إلى العمل على امتلاك هذه البلاد ومواصلة السير إلى مصر.

أرسل غازان جيشاً يبلغ خمسة وعشرين ألف مقاتل بقيادة سلامش وأمره بالتوجه إلى بلاد الروم السلاجقة باسيا الصغرى رداً على غدر الجيش الذي أرسله سيف الدين بلبان الطباخي نائب حلب بأهل ماردين ونهبه أرضها. واتفق مع سلامش على الالتقاء عند حلب ليقوما بالإغارة من هناك على بلاد الشام ولكن سرعان ما شق سلامش عصا الطاعة على غازان واستولى على بلاد الروم السلاجقة. وكتب إلى حسام الدين لاجين سلطان

مصر يطلب نجدة لقتاله، فأجابه إلى طلبه وأرسل إلى نائب دمشق يأمره بإنفاذ العساكر لمساعدته ولما علم غازان بخروج سلامش عليه، أعرض عن المسير إلى الشام وجهز العساكر إلى بلاد الروم تحت قيادة بولاى، وعاد إلى تبريز بصحبة الأمير قبجق ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى انحاز إلى جانب بولاى من كان مع سلامش من التتار فاضطر سلامش إلى المسير إلى مصر حيث رحب به الملك الناصر محمد بن قلاوون، غير أنه ما لبث أن طلب العودة إلى بلاده ليحضر أولاده، وبينما كان ماراً بحلب فى طريقه إليها، قبض عليه بعض المغول وأرسلوه إلى غازان حيث أمر بقتله.

أعد غازان جيشاً آخر بلغ عدده مائة ألف مقاتل لغزو سورية، ولما اتصل بالسلطان الناصر خبر عبور غازان نهر الفرات جهز جيشاً لمقابلة المغول، ولم يكد الجيش المصرى يصل غزة حتى قامت فرقة العوايراتية بتدبير مؤامرة لاغتيال السلطان الناصر محمد وإعادة الملك العادل كتبغا إلى العرش والأخذ بثأر إخوانهم الذين قتلوا فى عهد سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين، فدبروا مؤامرة لقتل الناصر والأميرين بيبرس وسلار، وكان من أثر هذه المؤامرة أن تأخر زحف الجيش المصرى، وعمت الفوضى صفوف المماليك وفقدوا كثير من الآت الحرب على أن الأمراء سرعان ما أظهروا نشاطاً عظيماً فى القضاء على هذه الفتنة فقبضوا على العوايراتية وقتلوا منهم نحو الخمسين. واستأنف الجيش سيره حتى وصل إلى دمشق. وما كادت تصل إليه الأخبار بكثرة عدد العدو حتى وقع الرعب فى قلوب الجند. والتقى الفريقان فى مجمع المروج فى وادى الخزاندر بين حماة وحمص. وكان النصر حليف المغول على الرغم من انتصار المماليك أول المعركة. وقد رأى غازان أن يكف عن مطاردة جيوش المماليك المنهزمة خشية أن يكونوا قد وضعوا له كميناً كعادتهم فى الحروب.

زحف المغول بعد ذلك إلى حمص فنهبوا ما فيها من خزائن السلطان والمؤن والذخائر ثم رحلوا إلى دمشق، فوقع الرعب فى قلوب الأهالى، وخرجت النساء سافرات الوجوه وترك الناس حوانيتهم وأموالهم وازدحموا جميعاً على أبواب المدينة للخروج منها بل توجه كثير من الأهالى إلى مصر وتركوا دمشق خالية ليس بها غير جماعة اتفقوا على اختيار وفد منهم لطلب الأمان من غازان، فلما التقى هذا الوفد بغازان أخبرهم أنه أرسل أماناً لأهالى دمشق مع بعض رسله، فعادوا إلى دمشق واجتمعوا بالمسجد الأموى وتلا عليهم رجلٌ من المغول صورة الأمان فى ٥ ربيع الثانى سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م. على أن المغول لم يحافظوا على العهود التى تضمنها الأمان، فسرعان ما نزل غازان بظاهر دمشق وعاث جنده فساداً فى بلاد الشام وفلسطين، واشتطوا فى أعمال النهب والتخريب وبخاصة فى بيت المقدس والكرك ولم ينج من أيديهم إلا قلعة دمشق المنيعة.

واصل المغول زحفهم إلى الشمال ونزلوا فى ١٥ ربيع الثانى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٧م بالصلاحية، ونهبوا ما فى مدارسها وجامعها من البسط والقناديل، وقتلوا من أهلها نحو تسعة آلاف. وفى نفس الوقت بالغ المغول فى أعمال النهب والسلب والإحراق فى دمشق وغيرها من بلاد الشام، وأهدرت الدماء البريئة بغير ما شفقة ولا رحمة حتى أن المقريزى يقول أنه قتل فى دمشق من الجند والفلاحين والعامة مائة ألف.

قرر غازان العودة إلى بلاده، فخرج من دمشق فى التاسع من جمادى الأولى سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م بعد أن أقر فى نيابة الشام الأمير قبجق وأقام قطلوشاه قائداً لحامية المغول ببلاد الشام ثم انفرد قبجق بحكومة دمشق، إذ لم تمض عشرة أيام على خروج غازان حتى لحق به قطلوشاه، وغدر قبجق

بالتتار وقتلهم وتتبع المفدسين وبطش بهم، فاستبشر أهل دمشق بذلك وعادت الطمأنينة إلى نفوسهم وأبلغ قبجق السلطان الناصر محمد نبأ خروج غازان وقطلوشاه من دمشق وعودة سورية إلى حوزة المماليك. ثم خرج قبجق من الشام إلى مصر للقاء الملك الناصر محمد بن قلاوون.

أخذ الناصر محمد يعد العدة لمحو العار الذى لحق به من جراء الهزيمة التى أوقعها المغول بجنده. ولما أتم إعداد الحملة، خرج السلطان من القاهرة إلى بلاد الشام، ثم تبعه الجيش بقيادة الأميرين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير، فتقابلا مع الأمير قبجق وأتباعه، وطلبا إليهم التوجه إلى السلطان بالصالحية، فلبوا الدعوة. فأكرمهم السلطان، وعاد بهم إلى مصر، حيث عفا عنهم، وخلع عليهم، وعهد إلى قبجق بولاية الشوبك إجابة لطلبه.

زحف غازان مرة ثانية إلى بلاد الشام عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، فلما علم الناصر محمد، أخذ يستعد للخروج إلى بلاد الشام، إلا أن البرد القارس أرغم غازان على العودة إلى بلاده، وكذلك الناصر محمد الذى عاد إلى مصر بعد أن كان قد وصل إلى غزة، وكان غازان يتطلع إلى أن تساعده الدول الأوربية فى انتزاع سورية من قبضة المماليك، فأرسل إلى ملكى إنجلترا وفرنسا عدة سفارات تطلب العون ضد المماليك فلم يلق طلبه قبولا. ولما يئس غازان من مناصرة ملوك أوروبا له، عول على مهادنة المماليك، فأرسل فى رمضان سنة ٧٠٠هـ/مايو سنة ١٣٠٠م رسالة إلى الملك الناصر محمد مع وفد مكون من الفقيه كمال الدين موسى بن يونس قاضى الموصل، والأمير ناصر الدين علي خواجا، وفى هذه الرسالة يعيب فيها الناصر محمد لهجومه على أطراف بلاده من غير سبب، ثم يتوعده بالانتقام إذا لم يكف عن عدوانه إذ اتصل بمسامعه أن المماليك قد عولوا على الأخذ بثأرهم ومقاتلتهم بنواحى حلب والفرات.

وناشده الله والدين أن يعمل على تلافى ما قد يقع ببلاده من الخراب وطلب منه أن يعد له الهدايا والتحف. وقد رد الناصر على هذه الرسالة بكتاب طويل فند فيه أقوال غازان، وأثبت أن المغول هم الذين بدأوا بالعدوان، كما ذكر له أنه لن يهاديه حتى يبدأ هو بإرسال الهدايا إليه. وعاب على غازان إذلاله المسلمين في دمشق وما جاورها من البلاد وتخريبه المساجد والاثار مما لا يتفق مع تعاليم الإسلام، وختم الناصر كتابه لغازان مؤكداً له استعداده لمصادقته إذا جنح للسلم، وأبعد الكفار الذين لا يحل لهم أن يتخذهم بطانة له.

لم تأت هذه المراسلات بثمرتها المرجوة، فاستؤنفت الحرب بين الناصر محمد وغازان فى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م. فقد تحرك المغول بجيوشهم وعبروا نهر الفرات فى طريقهم إلى الشام. أما الناصر محمد فقد خرج من مصر على رأس جيش كبير بصحبة الخليفة العباسي. وفى شهر رمضان سنة ٧٠٢هـ/مارس ١٣٠٣م تقابل المغول والمماليك عند مرج الصفر على مقربة من حمص. فهزم جيش الناصر المغول هزيمة شنيعة وهلك معظم جيش المغول، وفر قائده قطلوشاه مع فلول جيشه، فغرق بعضهم ومات البعض الآخر فى الصحراء من شدة الجوع والعطش.

توفى غازان عقب هذه الهزيمة، وخلفه على العرش أولجاتيو بن أرغون وقد حرص أولجاتيو على تخفيف ذلك العداء بين المماليك والمغول، فأوفد إلى الناصر محمد السفراء تؤكد له حرصه على توثيق عرا الصداقة به، وخاطب سلطان المماليك فى خطابه بالأخوة وسأل إخماد الفتن وطلب الصلح. كما بعث إليه هدية، فلبى السلطان طلبه وأرسل إليه هدية مع بعض الرسل على أن أولجاتيو ما لبث أن أظهر عداءه للمماليك السنيين بعد أن اعتنق مذهب الشيعة، وعمل على نشرّه فى الجهات الغربية من دولته، كما

أرسل السفراء إلى الباب كلمنت الخامس وإدوارد الثانى ملك إنجلترا وفيليب الجميل ملك فرنسا يطلب منهم أن يساعدوه فى الاستيلاء على سورية ومصر لكنهم لم يعنوا بتحقيق رغبته.

وفى عهد أوجلاتيو قام المغول فى سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م بحملة على سورية وحاصروا مدينة الرحبة، غير أنهم لم يلبثوا أن انسحبوا عندما علموا أن جيش المماليك يسرع إليهم. وفى عام ٧١٥هـ/١٣١٥م حدث اشتباك بين جيش المغول وجيش المماليك عند ماردين استطاع فيه المماليك أن يهزموا الجيش المغولى.

توفى أولجاتيو عام ٧١٦هـ/١٣١٦م وخلفه ابنه بوسعيد الذى رأى أنه من الحكمة أن يخطب ود المماليك، فأوفد إلى سلطانهم الناصر محمد بن قلاوون وفداً عقد معه معاهدة صداقة وحسن جوار. وكان من أثر هذا الصلح أن حل الوئام بين المغول والمماليك محل الخصام، وقد ظل الصفاء سائداً بين دولتى المغول والمماليك حتى توفى بوسعيد سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م وظلت مصر بمأمن من غارات المغول إلى عهد تيمورلنك.

ثالثاً ـ العلاقات مع بلاد الحجاز واليمن:

علاقات مصر بالحجاز ترجع إلى أيام الفتح العربى لمصر، فمصر بدأت تثير الحجاز عقب الفتح مباشرة، وذكر البلاذرى أن الطعام ظل يرسل من مصر إلى الحجاز حتى خلافة أبى جعفر المنصور. وإلى جانب الإمداد بالمؤن اختصت مصر منذ الخلفاء الراشدين بإرسال كسوة الكعبة سنوياً إلى مكة، فيذكر الأزرقى صاحب كتاب أخبار مكة أن عمر بن الخطاب كسا الكعبة القباطى (نسبة إلى أقباط مصر) وكان يكتب إلى مصر لتصنع له فيها.

كذلك فعل كل من عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان واستمرت مصر في إرسال الكسوة إلى الكعبة في عهد العباسيين. واستمرت علاقة مصر بالحجاز في العصر الطولوني وذكر بعض المؤرخين أن أحمد بن طولون ولى مكة ولم تثبت ولايته أنه لم يباشرها. وإن كانت بعض المصادر تشير إلى محاولة أحمد بن طولون لمد نفوذه على الحجاز ولكن هذا المحاولة لم تكلل بالنجاح وفي عهد الأخشيديين حرصت مصر على إخضاع الحجاز لنفوذها فيذكر ابن سعيد المغربي أن محمد بن طغج الإخشيد إلى رومانوس إمبراطور الروم رداً على كتابة أوضح فيه تقلده أمره مكة والمدينة مازالت همته تعلو وسعادته تعينه إلى أن ملك مصر والشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن، وفي رسالة بعث بها محمد بن طفج الأخشيد إلى رومانوس. بالإضافة إلى مصر والشام وبين ما يضيفه هذا التقليد على متوليها من مكانة سياسية ودينية في العالم الإسلامي.

وفي العصر الفاطمي، حرص الخلفاء الفاطميين على بسط نفوذهم على الأراضي المقدسة بالحجاز واجتذاب العلويين هناك إلى جانبهم ليكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامي ويضعفوا من شأن الخلافة العباسية.

وفي العصر الأيوبي، كان يدعى للسلاطين الأيوبيين على منابر مكة وكان صلاح الدين باراً بأهل الحجاز إذ منحهم مقداراً من المال من أجل تعمير مكة والمدينة ومساعدة أهل الحجاز الفقراء. وأبطل صلاح الدين المكس الذي كان يحصل من الحجاج.

وفي العصر المملوكي، شهد العالم الإسلامي سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م على أيدي المغول. مما ساعد على ظهور مصر

على مسرح الأحداث السياسية كقوة كبيرة تمكنت من إلحاق الهزيمة بالمغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م ونقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة بفضل ما قام به الظاهر بيبرس، الذى تطلع إلى تدعيم نفوذ دولة المماليك فى الحجا ز بأن يقوم بحماية بيت الله الحرام فى مكة ومقام الرسول ﷺ فى المدينة.

والواقع أن عناية بيبرس بالأماكن الدينية بدأت منذ أوائل حكمه، ومن ذلك ما يرويه المقريزى صاحب السلوك من أنه فى العام التالى لتوليه السلطنة «جهز الأموال والأصناف لعمارة الحرم النبوىّ بالمدينة» وأرسلها بصحبة الأمير علم الدين اليغمورى. ثم يعود المقريزى فيشير فى حوادث سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م إلى أن العمل انتهى فى شهر رمضان فى صناعة كسوة قبر النبىّ ﷺ، فعهد الظاهر بيبرس إلى أحد رجاله ليسافر بها ومعه الشمع والبخور والزيت والطيب. على أن علاقة بيبرس بالحجاز لم تقف عند حدِ إرسال الأموال والكساوى، وإنما امتدت إلى بسط نفوذه السياسى على تلك البلاد. وقد أتاحت الخلافات بين أشراف الحجاز الفرصة للظاهر بيبرس لتحقيق أغراضه من ذلك أن الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة قدم من المدينة المنورة سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م ليشكو إلى السلطان الظاهر بيبرس من الشريف جماز أمير المدينة المنورة حرمه من المشاركة فى الإمارة التى كانت مناصفة بين أبيه ووالد جماز. وهنا لبى بيبرس طلب الشريف بدر الدين، فكتبَ إلى جماز أن يسلمه نصف الإمارة وكتب له تقليد بذلك وبنصف أوقاف المدينة المنورة التى بالشام ومصر وسلمت إليه، «فامتثل جماز ما رسم به».

وفى عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م وقع خلاف فى مكة بين الشريف نجم الدين أبى نمى وبين عمه الشريف بهاء الدين إدريس أميرى مكة، فاتفق

الظاهر بيبرس معهما على أن يعطيهما كل عام عشرين ألف درهم، بشرط ألا يجمعا من أحد فى مكة مكوساً وألا يمنعا أحد من زيارة البيت ولا يتعرضا لتاجر، وأن يخطب باسم الظاهر بيبرس فى الحرم والمشاعر، وتضرب السكة باسمه. وكتب لهما تقليد بالإمارة وسلمت أوقاف الحرم التى بمصر والشام لنوابهما. كما يروى المقريزى فى حوادث سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م أن الظاهر بيبرس لم للشريف شمس الدين قاضى المدينة النبوية وخطيبه ووزيرها الجمال التى نهبها أحمد بن جحى لأشراف المدينة، وهى نحو الثلاثة آلاف جمل وأمره أن يوصلها لأربابها. ويستمر المقريزى فيروى أن السلطان أكرم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى «شيخ خدام الحجرة النبوية» وضرب له خيمة على باب الدهليز، وناله زيادة على مائتى ألف درهم، وسافر صحبة القاضى والجمال مع الركب الشامى، وجهز من الكسوة لمكة والمدينة.

وفى شهر شوال سنة ٦٦٧هـ/مايو سنة ١٢٦٩م عزم الظاهر بيبرس على الرحيل إلى الحجاز لأداء شعار الحج، فتوجه إلى الحج ومعه الأمير بدر الدين الخازندار وقاضى القضاة صدر الدين سليمان الحنفى، وفخر الدين بن لقمان، وتاج الدين بن الأثير ونحو ثلاثمائة مملوك وأجناد من الحلقة، وسار السلطان بهم إلى حصن الكرك كأنه خارج فى رحلة صيد، ولم يجسر أحد بأن يتحدث بأنه متوجه إلى الحجاز، ووصل السلطان إلى المدينة المنورة فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٦٧هـ/السادس والعشرين من يوليو سنة ١٢٦٩م، ففر عنه أمير المدينة بدر الدين مالك وجماز، فرحل منها فى اليوم التالى ووصل مكة فى الخامس من ذى الحجة سنة ٦٦٧هـ/الخامس من أغسطس سنة ١٢٦٩م، ففرق الأموال والكساوى على أهل الحرمين، و«صار كواحد من الناس لا يحجبه أحد ولا يحرسه إلا الله، وهو منفرد يصلى ويطوف ويسعى. وغسل البيت، وصار فى وسط الخلائق، وكلما رمى إليه

احرامه غسله وناوله إياه. وجلس على باب البيت وأخذ بأيدى الناس ليطلعهم إلى البيت، فتعلق بعض العامة بإحرامه ليطلع فقطعه، وكاد يرمى السلطان إلى الأرض، وهو مستبشر بجميع دلك. وعلق كسوة البيت بيده وخواصه، وتردد إلى من بالحرمين من الصالحين»، وقد أحسن الظاهر بيبرس إلى أميرى مكة، وهما الأمير نجم الدين بن أبى نمى والأمير إدريس بن قتادة، وإلى أمير ينبع وأمير خليص (وخليص حصن بين مكة والمدينة)وأكابر رجالات الحجاز، كما كتب منشورين لأميرى مكة، فطلبا منه نائباً تقوى به أنفسهما فرتب لهما الأمير شمس الدين مروان نائب أمير جاندار بمكة، يرجع أمرهما إليه ويكون الحل والعقد على يديه، وزاد أميرى مكة مالا وغلالا فى كل سنة، وزاد أمراء الحجاز إلا جماز وبدر الدين مالك أمير المدينة المنورة. وبذلك استعاد بيبرس ما كان لمصر من نفوذ فى الحجاز.

ظلت العلاقات وطيدة بين مصر والحجاز فى عصر المنصور قلاوون، فيشير المقريزى فى حوادث عام ٦٨٠هـ/١٢٨٢م «وفى شوال بسار المحمل إلى الحجاز على العادة» وهو ما يؤكد على أن مصر ظلت ترسل كسوة الكعبة سنوياً. كما يشير فى حوادث شهر شعبان سنة ٦٨١هـ/نوفمبر ١٢٨٢م أن الشريف أبو نمى أمير مكة حلف للسلطان المنصور قلاوون وولده بالطاعة لهما، وأنه التزم تعليق الكسوة الواصلة من مصر على الكعبة فى كل موسم، وأنه لا يعلق عليها كسوة عيرها، وأن يقدم علم المنصور على كل علم فى كل موسم، وألا يتقدمه علم غيره، وأن يسهل زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين والأمين، وأن يحرس الحاج ويؤمنهم فى سربهم وأن يستمر بإفراد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصورى» وأن يفعل فى الخدمة فعل المخلص الولى للسلطان ويمتثل مراسمه امتثال النائب للمستنيب».

وفى عام ٧٠١هـ/١٣٠٢م قام الأمير بيبرس الجاشنكير ومعه ثلاثون أميراً لأداء فريضة الحج، فحضر إليه فى مكة الشريفان عطيفة وأبو الغيث من أولاد أبى نمى محمد بن قتادة أمير مكة وشكيا من أخيهما أسد الدين رميثة وأخيه عز الدين حميضة أنهما وثبا بعد وفاة أبيهم عليهما، واعتقلاهما ففرًا من الاعتقال، فقبض على رميثة وحميضة وحملا إلى مصر واستقر فى إمارة مكة عطيفة وأبو المغيث، وعاد بيبرس إلى القاهرة ومعه الشريفان حميضة ورميثة فسجنا. وفى أوائل عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م حضر إلى مصر الأمير برلغى الأشرفى من الحجاز، واشتكى من قلة هيبة الشريفين أبى الغيث وعطيفة وكثرة طمع العبيد فى المجاورين بمكة. فأفرج الناصر محد بن قلاوون عن الشريفين حميضة ورميثة من سجنهما، وأحضرا إلى المجلس السلطانى وخلع عليهما، وأجلسا فوق جميع الأمراء، ونزلا إلى منازلهما، وحمل إليهما سائر ما يحتاجان إليه، وهاداهما الأمراء، وأجريت لهم الرواتب والجوايات والكسوات، وركبا مع السلطان فى الميدان ولعب حميضة مع السلطان بالكرة.

وفى سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م، سار الأمير سلار نائب السلطنة إلى الحجاز ومعه نحو الثلاثين أسيراً. وبعث إلى الحجاز فى البحر عشرة آلاف أردب غلة.. وبعث الأمير سنقر الأعسر ألف أردب، وبعث سائر الأمراء القمح للتفرقة فى أهل الحرمين. وقد عاد الأمير سلار إلى القاهرة فى منتصف صفر سنة ٧٠٤هـ/منتصف سبتمبر سنة ١٣٠٤م وقد قام فى الحجاز بأفعال جليلة منها أنه كتب أسماء المجاورين بمكة وأوفى عنهم جميع ما كان عليهم من الديون لأربابها، وأعطى لكل منهم بعد وفاء دينه مؤونة سنة، ووصلت مراكبه إلى جدة سالمة، ففرق ما فيها على سائر أهل مكة جليلهم، وحقيرهم، وكتب إلى سائر الفقراء وجميع الأشراف وحمل إليهم الدنانير والدراهم، والغلة بقدر

كفاية كل منهم سنة، فلم تبق بمكة امرأة ولا رجل ولا صغير ولا كبير ولا غني ولا فقير عبد أو حر شريف أو غير شريف إلا وعمه ذلك، ثم استدعى الزيلع (وهم أهل بلد معروف في الصومال) . وغرق فيهم الذهب والفضة والغلال والسكر والحلوى حتى عم سائرهم وبعث مباشرية إلى جدة، ففعلوا فيها كما فعل هو بمكة، وحمل ما بقي إلى المدينة النبوية، فلما بلغ وادى بنى سالم وجد العرب قد أخذوا عدة جمال من الحجاج فتتبعهم وأخذ منهم خمسين رجلا، فأفتاه الفقهاء بأنهم محاربون، فقطع أيديهم، وأرجلهم من خلاف، وعم أهل المدينة بالعطايا، كما عم أهل مكة فكان الناس بالحرمين يقولون «يا سلار كفاك الله هم النار».

وفي عام ٧٠٤هـ/١٣٠٥م، توجه الأمير بيبرس الجاشنكير إلى الحجاز مرة ثانية في أول ذى القعدة، ومعه علاء الدين أيد غدى الشهر زورى رسول ملك المغرب، والأمير بيبرس المنصورى الدوادار، والأمير بهاء الدين يعقوبا في جماعة من الأمراء وكان الركب قد خرج مع الأمير عز الدين أيبك الخازندار في جمع كبير من الناس، فكثر الحجاج وقسموا إلى ثلاثة ركوب: ركب مع الأمير بيبرس المنصورى، وركب مع الأمير يعقوبا، وركب مع عز الدين أيبك، وفي نفس الوقت سار الشريفان حميضة ورميثة من القاهرة مع الأمير عز الدين أيدمر الكوكندى إلى مكة، فقبض الأمير بيبرس الجاشنكير على الشريفين أبي الغيث وعطيفة وولى مكانهما حميضة ورميثة، وعاد بيبرس ومعه الشريف أبو الغيث وعطيفة إلى القاهرة، فرتب لهما ما يكفيهما وصارا يركبان مع الأمراء.

وفي عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، تنافس الشريف مقبل بن جماز بن شيحة أمير المدينة مع أخيه المنصور، فجاء المنصور إلى القاهرة، فولاه الملك المظفر

ركن الدين بيبرس الجاشنكير نصف الإمارة بنجد، فاستخلف المنصور ابنه كبيشة، غير أنه فرّ عنها وملكها مقبل، فعاد كبيشة بجمع كبير وحاربه وقتله واستقر المنصور بمفرده على المدينة.

وفى عام ٧١٣هـ/١٣١٣م أرسل الناصر محمد بن قلاوون إلى مكة تجريدة، بصحبة الأمير سيف الدين طقصبا الناصرى والى قوص، وسيف الدين بيدرا، وعلاء الدين أيد غدى الخوارزمى، وصاروجا الحسامى، وتوجه من دمشق سيف الدين بلبان البدرى مع الركب إزاء الشكايات التى وصلت من أهل مكة ضد حميضة بن أبى نمى. ففر حميضة إلى اليمن، وتولى إمارة مكة الأمير أبى الغيث، ولكن أبو الغيث لم يتمتع طويلا بالإمارة إذ أن أخاه حميضة سرعان ما عاد إلى مكة وتملكها،وبعث إلى الناصر محمد رسالة مع اثنى عشر فارساً، يبذل فيها الطاعة ويعتذر، فلم يقبل الناصر عذره، وحبس رسله.

وفى الثالث من جمادى الأخرة سنة ٧١٥هـ/الرابع من سبتمبر ١٣١٥م وصل إلى القاهرة الشريف أسد الدين أبو غرارة رميثة ابن أبى نمى من مكة فاراً من أخيه حميضة، وأخبر السلطان بأن حميضة قطع اسمه من الخطبة بمكة وخطب لصاحب اليمن. فأرسل معه الناصر فرقة من الجند ومعهم الأمير سيف الدين ذيدمر، والأمير نجم الدين دمرخان بن قرمان. وفى مكة دار القتال بين الأخوين، غير أن حميضة لم يصمد أمام العسكر المصرى وفرّ إلى العراق، يطلب النجدة من أولجاتيو أيلخان المغول فى فارس، فاستقبله أولجاتيو وأكرمه، وأقام عنده شهراً، وطلب من أولجاتيو أن يرسل معه جيشاً إلى الحجاز ليملكها ويخطب له على منابرها. فجرد أولجاتيو مع حميضة أربعة آلاف فارس، وسار بهم حميضة إلى مكة. كما أخذ أولجاتيو يستعد

للمسير إلى الشام وبلغ محمد بن عيسى أخا مهنا بن عيسى الذى سار إلى المغول أيضاً بمسير جميضة إلى مكة، فشق عليه استيلاء المغول على الحجاز، وفى نفس الوقت وصلت الأخبار تحمل أنباء وفاة أولجاتيو، فسار محمد بن عيسى وهاجم حميضة وجيشه ليلا وهو يصيح باسم الملك الناصر فقتل أكثرهم. ونجا حميضة ووقع فى الأسر حوالى أربعمائة من المغول، وغنم محمد بن عيسى منهم مالا كثيراً وخيولا وجمالا، وكتب بذلك إلى السلطان الناصر محمد، فسر به، وأعاد الإمارة إلى مهنا، واستدعى محمد بن عيسى إلى القاهرة، وشمله بكرمه وعطفه.

وفى عام ٧١٧هـ/١٣١٧م، سار حمضية من العراق إلى مكة ومعه نحو الخمسين من المغول، فمنعه أخوه رميثة من الدخول إلا بإذن السلطان الناصر محمد، فكتب الناصر إليه يمنعه من الدخول ما لم يقدم إلى مصر. فهجم حميصة على رميثة وتمكن من دخول مكة وتملكها وخطب فيها لابن سعيد بن أولجاتيو. فلما وصل رميثة إلى القاهرة وأخبر الملك الناصر محمد، سارع بإرسال فريقاً من جنده بقيادة الأمير صارم الدين أزبك الجرمكى، والأمير سيف الدين بهادر الإبراهيمى إلى مكة. ونجح العسكر المصرى فى تنصيب الأمير عطيفة أخى حميضة على إمارة مكة، وقبضوا على رميثة بعد أن تبين لهم تواطؤه مع أخيه حميضة ضد السلطان وفى عام ٧١٩هـ/ ١٣١٩م، توجه المحمل إلى مكة،. وركب السلطان إلى الحجاز، وقدم مكة، ومنع الحجاب من منع الناس أن يطوفوا معه، وصاروا يزاحمونه وهو يزاحمهم كواحد من الناس، فى مدة طوافه وفى تقبيله الحجر، وبلغه أن جماعة من المعول ممن قاموا بأداء فريضة الحج قد اختفى خوفاً منه، فأحضرهم وأنعم عليهم وبالغ فى إكرامهم وغسل الكعبة بيده، وأخذ أزر

إحرام الحجاج وغسلها، لهم بنفسه. وأبطل سائر المكوس من الحرمين، وعوض أميرى مكة والمدينة عنها إقطاعات بمصر والشام وأحسن إلى أهل الحرمين وأكثر من الصدقات.

وفى العام التالى ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، قتل الشريف حميضة بن أبى نمى، وأخلى السلطان الناصر محمد سبيل رميثة وأرسله إلى مكة ليشترك مع أخيه عطيفة فى إمارتها. وقد ظلت السلطة فى مكة موزعة بين هذين الأميرين إلى عام ٧٣١هـ/١٣٣٠م، فقد كثرت الفتن بمكة بينهما، وتمكن رميثة من التغلب على عطيفة ونهبه مكة وخروجه عن الطاعة، فأرسل الناصر محمد يطلب منهما الحضور إلى مصر فرفضا واتفقا على الخروج عن الطاعة، فغضب الناصر محمد وعزم على إخراج بنى حسن من مكة. وأمر الناصر محمد الأمير سيف الدين ايتمش أن يخرج بعسكر إلى مكة، وعين معه من الأمراء طيدمر الساقى، والأمير أقبغا آص والأمير أقسنقر، والأمير طرقش والأمير طقتم الأحمدى، والأمير طقتمر الصلاحى، وأربعة عشر من مقدمى الحلقة، وعدة من أعيان أجناد الحلقة. ثم استدعى الناصر محمد بدار العدل بالقلعة الأمير سيف الدين ايتمشى وقال له بحضرة القضاة: «لا تدع فى مكة أحداً من الأشراف ولا من القواد ولا من عبيدهم، وناد بها من أقام منهم حل دمه. ثم أحرق جميع وادى نخلة، والق فى نخلها النار حتى لا تدع شجرة مثمرة ولا دمنة عامرة، وخرِّبَ ما حول مكة من المساكن، وأخرج حرم الإشراف منها وأقم بها بمن معك حتى يأتيك عسكر أخر». فقام قاضى القضاة جلال الدين محمد القزوينى، ووعظ السلطان، وذكره بوجوب تعظيم الحرم إلى أن استقر الأمر على أن كتب لرميثة أمان وتقليد بأمره مكة وسار العسكر السلطانى من القاهرة فى منتصف صفر سنة ٧٣١هـ/الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ١٣٣٠م وعدتهم سبعمائة فارس.

وصل العسكر السلطانى إلى مكة، وكانت أخبار مسيرهم إلى مكة قد وصلت إلى الشريف رميثة، فسارع بحشد حشود كبيرة من العرب لمحاربتهم، فكتب إليه الأمير ايتمشى يخبره بأنه يحمل أماناً من السلطان له وتقليداً بإمارة مكة، ويحثه على الحضور إليه ويرغبه فى الطاعة، ويحذره عاقبة الخلاف ويهدده، ويعرفه بما أمر السلطان به من إجلاء بنى حسن وأتباعهم عن مكة. فلما علم رميثة بذلك اطمأن إلى الأمير ايتمشى وأجابه بأنه كان على أتم الاستعداد للحرب والقتال إذا ما فكر سلطان مصر فى يضع أحد مكانه فى إمارة مكة، وطلب من إيتمشى ومن معه أن يحلف له بالا يغدره وأن يقرضه مبلغ خمسين ألف دينار يتعوضها من إقطاعه، فأرسل إليه ايتمشى عشرة أحمال من الدقيق والشعير والبقسماط وغيره، ومبلغ خمسة آلاف درهم. فوافق رميثة على الحضور لمقابلة ايتمشى. فلما اقترب رميثة من مكة ركب ايتمشى بمن معه إلى لقائه، فإذا عدة من قواده مع وزيره قد تقدموا ليحلفوا له العسكر، فعادوا بهم إلى الحرم وحلفوا له أيماناً مؤكدة، ثم ركبوا للقائه وقابلوه بما يليق به من الإكرام. فلبس رميثة تشريف السلطان، وتقلد إمارة مكة، وعزم على تقدمه شيء للأمراء، فامتنعوا أن يقبلوا منه هدية، وكتبوا إلى السلطان بعودة الشريف رميثة إلى الطاعة، وخرجوا من مكة ووصلوا إلى القاهرة فى السابع من جمادى الآخرة سنة ٧٣١هـ/الثامن عشر من مارس سنة ١٣٣١م. فلما وصلوا، اجتمع الناصر محمد مع الأمير ايتمشى وقدم له الشكر على ما قام به وكان قاضى القضاة جلال الدين القزوينى حاضراً، فأكثر من الثناء على ايتمشى، وقال : «هذا الذى فعله هو الإسلام».

وفى يوم الأربعاء الخامس من رمضان سنة ٧٣١هـ/الثانى عشر من يونيو سنة ١٣٣١م أفرج عن الشريف ودى أمير المدينة المنورة وعن خرص ابن

أخيه، وكانا قد اعتقلا بقلعة الجبل فى أول شوال سنة ٧٢٩هـ/التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٣٢٩م، فرتب لهما راتب حسن مدة، ثم أنعم عليهما بإقطاع فى الشام، وسار إليها فمات خرص، ثم ولى ودى إمرة المدينة.

وفى شهر شوال عام ٧٣١هـ/يوليو ١٣٣١م خرج محمل الحاج إلى مكة. ثم خرج السلطان الملك الناصر محمد إلى الحجاز فتلقاه الأشراف من أهل المدينة بحريمهم عندما وصل إلى ينبع وقدم عليه الشريف أسد الدين رميثة من مكة ومعه قواده وحريمه، فأكرمهم السلطان وأنعم عليهم، وساروا معه إلى أن نزل خليص فى ثلاثين مملوكاً. فلما وصل إلى المدينة المنورة هبت بها فى الليل ريح شديدة جداً ألقت الخيم كلها، وتزايد اضطراب الناس، وفر منهم عدة من المماليك، واشتدت ظلمة الجو، فكان أمراً مهولا فلما كان النهار سكن الريح. فظفر أمير المدينة بمن فر من المماليك، فخلع السلطان عليه، وأنعم عليه بجميع ما كان مع المماليك من مال وغيره. وبعث السلطان بالمماليك إلى الكرك.

وكانت حجة السلطان هذه يضرب بها الأمثال. بيع فيها بمكة الأردب من الشعير من عشرة دراهم إلى عشرين درهما وبيع البقسماط بالعدل (أى نصف الحمل) فكان يقف كل رطل منه بفلس واحد، وبيع السكر كل رطل بدرهمين، وعلبه الحلوى بثلاثة دراهم. وأنعم السلطان على جميع أهل مكة، وكان إنعامه على الشريف رميثة بخمسة آلاف دينار، وعلى زوجته بخمسمائة دينار، وذلك سوى ما أنعم به على البنات وغيرها فقدم له رمية مائة فرس، وألف رأس من الغنم، فرد الجميع وأخذ منها فرسين لا غير.

وفى عام ٧٣٣هـ/١٣٣٣م عمل السلطان محمد باباً من خشب السنط الأحمر وصفحه بفضة زنتها خمسة وثلاثون ألف درهم وثلاثمائة درهم، ومضى به الأمير سيف الدين برسبغا الساقى إلى مكة، فقلع باب الكعبة العتيق وركب هذا الباب. وأخذ بنو شيبة الباب القديم، وكان من خشب الساسم (وهو شجر ذو خشب أسود وهو الأبنوس) المصفح بالفضة)، فوجدوا عليه ستين رطلا من فضة تقاسموها. وترك خشب ذلك الباب داخل الكعبة وعليه اسم صاحب اليمن فى الفردتين، واحدة عليها «اللهم يا ولى يا على!! اغفر ليوسف بن عمر بن علي».

وفى الثالث من رمضان سنة ٧٣٦هـ/الخامس عشر من أبريل سنة ١٣٣٥م دخل الأمير الشريف بدر الدين ودى بن جماز بن شيحة الحسينى أمير المدينة النبوية، شاكياً من ابن أخيه طفيل بن منصور بن جماز أنه لم يوافق على ما رسم به من شركتهما فى الإدارة. وكان قد رسم فى السادس عشر من المحرم سنة ٧٣٦هـ/الخامس من سبتمبر ١٣٣٥م لودى بنصف إمارة المدينة المنورة شركة بينه وبين ابن أخيه طفيل، وخلع عليه وكتب له توقيع بواسطة الأمير شرف الدين موسى بن مهنا عند قدومه، فقدم طفيل من المدينة فى جمادى الأولى سنة ٧٣٦هـ/ديسمبر سنة ١٣٣٥م ليكون بمفرده فى الإمارة، فلم يجب إلى ذلك ثم آل الأمر إلى أن استقر ودى بمفرده فى الإمارة بغير شريك، وخلع عليه فى العاشر من شوال سنة ٧٣٦هـ/الثانى والعشرين من مايو سنة ١٣٣٦م، وتوجه مع الركب، ورسم لطفيل بإقطاع فى بلاد جوران بالشام فسكنها بأسرته.

وفى عام ٧٣٧هـ/١٣٣٧م عاد ركب الحاج إلى القاهرة، وأخبروا

الناصر محمد بأن الشريف رميثة كان قد أقام ببطن مرّ، وأقام أخوه الشريف عطيفة بمكة، فتسلط ولده مبارك على المجاورين وأخذ أموال التجار، فركب إليه رميثة وحاربه، فقتل منهم جماعة، وفرّ رميثة، وذلك فى الثامن والعشرين من رمضان سنة ٧٣٦هـ/العاشر من مايو سنة ١٣٣٦م. ويروى المقريزى فى حوادث عام ٧٣٩هـ/١٣٣٨م أن الشريف مبارك بن عطيفة قدم إلى مصر بخيله، فسجن مع أبيه، لكثرة إفساده بالحجاز، مما يشير إلى أن رميثة تمكن من استعادة إمارة مكة مرة أخرى بتدخل من الناصر محمد، ولا سيما أن المقريزى يروى فى حوادث عام ٧٤٣هـ-/١٣٤٣م حدوث فتنة بمكة يوم عرفة بين العرب والحجاج وسببها أن الشريف رميثة بن أبى نمى أمير مكة شكا من بنى حسن إلى أمير الحاج المصرى فركب أمير الحاج فى يوم عرفة لحربهم، وقاتلهم وقتل من الترك ستة عشر فارساً، وقتل من جماعة بنى حسن عدة، وانهزم بقيتهم، فنفر الناس من عرفة على تخوف، ولم ينهب لأحد شيء ولاتزال بنو حسن بمنى. ومن المرجح أن رميثة تنازل عن إمارة مكة لابنه عجلان إذ تروى حوادث عام ٧٤٣هـ/١٣٤٣م، إلى تنافر أشراف مكة مع الجند المصريين يوم عرفة، ووقفوا للحرب صفين فحاول عجلان الصلح بينهما، فلم يطعه الأشراف، وحملوا على الأجناد وقاتلوهم، فقتل منهم ومن العامة جماعة ثم تراجع عنهم الأشراف. ومما يؤكد انفراد الشريف عجلان بن رميثة بإمارة مكة ما يرويه المقريزى فى حوادث عام ٧٤٤هـ/١٣٤٤م من أن الحجاج قاسوا فى سفرهم هذا العام مشقات كبيرة من قلة الماء وغلو الأسعار، بحيث بيعت الويبة من الشعير بأربعين درهماً والويبة الدقيق بخمسين درهماً، والرطل البقسماط بثلاثة دراهم وأردب القمح بمائتى درهم، والجمل بأربعمائة وخمسين درهماً وكان من أسباب

ذلك أن الشريف عجلان بن رميثة خرج إلى جدة ومنع تجارة اليمن من عبور مكة، فقلت السلع وهلك كثير من الحجاج.

وفي شهر رمضان سنة ٧٤٦هـ/يناير ١٣٤٦م قدم الشريف ثقبة بن رميثة من مكة، يريد أن يستقر شريكاً لأخيه عجلان في إمارة مكة. فوعده السلطان الملك الأشرف شعبان بن الناصر خيراً. وفي الثامن من ذي القعدة سنة ٧٤٦هـ/الثاني من مارس سنة ١٣٤٦م توفي الشريف رميثة بن أبي نمي بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة. وفي ربيع الأول سنة ٧٤٧هـ/يوليو ١٣٤٦م، قدم الشريف عجلان بن رميثة من مكة، فمنع من الإنعام عليه بعادته عند قدومه وهي أربعة آلاف درهم. وكتب إلى أخيه ثقبة ألا يعارض وأن يحضر إلى القاهرة. كما يشير المقريزي أن الحجاج عادوا بعد أداء شعائر الحج سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م وأخبروا برخاء مكة، وحسن سيرة الشريف عجلان مما يؤكد على انفراده بالإمارة.

وفي حوادث عام ٧٥٠هـ/١٣٥٠م، يروي المقريزي أن الحجاج حصل لهم خوف من زيارة المدينة المنورة هذا العام وذلك أن الشريف ودي لما عزل بالشريف سعد، جمع العربان، وهاجم المدينة قبل قدوم سعد إليها، وأخذ أموال الخدام وودائع الشاميين وقناديل الحجرة الشريفة وأموال الأغنياء وغيرهم وخرج. وهي إشارة إلى عزل ودي وتولية الشريف سعد بدلا منه.

وفي عام ٧٥١هـ/١٣٥٠م، لقي الحجاج الشريف عجلان بالعقبة، وقد أخرجه أخوه ثقبة من مكة. فقدم عجلان إلى القاهرة ودخل على السلطان الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاوون وطلب منه إرسال عسكر معه، فلم يجب إلى ذلك، ورسم له بشراء مماليك فشرع في ذلك وفي نفس الوقت ورد

خطاب من أخيه يشكوه إلى الناصر. فكتب لعجلان توقيع بإمرة مكة بمفرده، واشترى أربعين مملوكاً واستخدم عشرين جندياً وأنفق فيهم خمسمائة درهم على كل واحد ثم وصل عدد عسكره إلى مائة فارس وحمل معه حملين نشاباً وقسياً وغيرها، وسافر إلى مكة في مستهل رمضان سنة ٧٥١هـ/نوفمبر ١٣٥٠م. وفي نفس الشهر ورد كتاب من الشريف ثقبة وبصحبته محضر يتضمن الشكر من سيرته وتكذيب عجلان فيما نقل عنه، فكتب إليه السلطان باستقراره شريكاً لأخيه عجلان. ويبدو أن ثقبة لم يقبل أن يشاركه أخيه عجلان في إمارة مكة، فتوجه إلى اليمن، واتصل بالملك المجاهد علي بن المؤيد داود بن المظفر أبو سعيد المنصور عمر بن رسول صاحب اليمن، وأغراه بالاستيلاء على مكة وكسوة الكعبة، فتجهز الملك المجاهد وسار إلى مكة مع أسرته. فلما علم عجلان، استعد للقتال، وأرسل إلى أمرآء مصر بما ينتويه صاحب اليمن فبعثوا إليه : «من يريد الحج إنما يدخل مكة بذلة ومسكنة، وقد ابتدعت من ركوبك والسلاح حولك بدعة لا يمكنك أن تدخل بها، وابعث إلينا ثقبة ليكون عندنا حتى تنقضى أيام الحج ثم نرسله إليك، فأجاب المجاهد إلى ذلك، وبعث ثقبة رهينة، فأكرمه الأمراء ، وأركبوا الأمير طقطاى في جماعة إلى لقاء المجاهد، فتوجهوا إليه ومنعوا سلاحداريته من المشى معه بالسلاح ولم يمكنوهم من حمل الغاشية، ودخلوا به مكة، فطاف وسعى واعتذر للأمراء، ومضى إلى منزلة، وصار كل منهم على حذر حتى وقفوا بعرفة. فاتفق الملك المجاهد مع الشريف ثقبة على أن الأمير طاز إذا سار من مكة، أوقعاهما بأمير الحاج المصرى، وقبضا على عجلان وتسلم ثقبة مكة، فاتفق أن الأمير بزلار رأى وقد عاد من مكة إلى منى خادم الملك المجاهد سائراً، فبعث يستدعيه فلم يأته، وضرب مملوكه ـ بعد مفاوضات جرت بينهما

ـ بحربه فى كتفه، فماج الحجاج وركب بزلار إلى طاز فلم يصل إيه حتى أقبلت جموع الناس تخبره بركوب الملك المجاهد بعسكره للحرب. فركب طاز وبزلار لقتال الملك المجاهد. ودارت الدائرة على الملك المجاهد وتمزقت عساكره، ونهبت أموالهم وخيولهم حتى لم يبق لهم شيء فلما قرر الأمير طاز الرحيل من منى سلم أم الملك المجاهد وحريمه للشريف عجلان وأوصاه بهن ثم ركب الأمير طاز ومعه الملك المجاهد وبالغ فى إكرامه، وسارا معاً إلى المدينة المنورة حيث قبض الأمير طاز على الشريف طفيل. وفى يوم السبت العشرين من المحرم سنة ٧٥٢هـ/مارس سنة ١٣٥١م، قدم الأمير طاز من الحجاز وبصحبته الملك المجاهد والشريف ادى أمير المدينة المنورة، بعد ما فر ولحق باليمن وقدم مع المجاهد إلى مكة. وفى يوم الاثنين الثانى والعشرين من المحرم سنة ٧٥٢هـ، صعد الأمير طاز بالملك المجاهد إلى القلعة، فقيد عند باب القلعة، ومشى بقيده. وخلع السلطان على الأمير طاز، ثم أخذ المجاهد، وأمر به فقبل الأرض ثلاث مرات، فتشفع الأمير طاز فى المجاهد إلى أن أمر السلطان بفك قيده، وأكرمه، وأجريت له الرواتب وأقيم له من يخدمه، وأنعم على الأمير طاز بمائتى ألف درهم، وألزم الملك المجاهد بدفع أربعمائة ألف دينار يقترضها من تجار الكارم وبعدها يسمح له بالسفر إلى بلاده. وفى يوم الاثنين التاسع والعشرين من المحرم سنة ٧٥٢هـ، خلع السلطان على الأمراء اليمنيين المقيدين وعلى الملك المجاهد، وقبل المجاهد الأرض عدة مرات، وكان الأمير طاز والأمير مغلطاى تلطفا فى أمره حتى أعفاه السلطان من دفع المال، وقربه إليه ووعده بإعادته إلى بلاده مكرماً، وأفرج عن وزيره وخادمه وحواشيه، وأنعم عليه بمال. فبعث له الأمراء مالا جزيلا، وشرع فى الاقتراض من تجار الكارم من مصر واليمن فبعثوا له عدة هدايا. وفى يوم السبت الثامن عشر من صفر

سنة ٧٥٢هـ/السابع عشر من أبريل سنة ١٣٥١م برز الملك المجاهد صاحب اليمن بأثقاله إلى الريدانية ليسافر إلى بلاده وبصحبته الأمير قشتمر شاد الدواوين. وكتب السلطان إلى الشريف عجلان أمير مكة لتجهيزه إلى بلاده، وكتب إلى بنى شعبة وغيرهم من العربان بالقيام بخدمته وخلع عليه أطلس، فوعد المجاهد بإرسال الهدية والمال، وقرر على نفسه حملا كل عام وأسر السلطان إلى قشتمر أنه إن رأى منه ما يريبه يمنعه من السفر. ورحل المجاهد من الريدانية فى يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر سنة ٧٥٢هـ/الثانى والعشرين من أبريل سنة ١٣٥١م ومعه عدة مماليك اشتراها، وكثير من الخيل والجمال.

وفى شهر ربيع الأول سنة ٧٥٢هـ/مايو ١٣٥١م وصلت الأخبار بقتل الشريف سعد بن ثابت أمير المدينة المنورة وسببه أن الشريف أدى لما نهب المدينة، وفرّ إلى اليمن عند صاحبها الملك المجاهد ثم جاء معه إلى مكة، طلب من الأمير طازان يأخذ له أمانًا من السلطان، وقدم معه، ومثل بين يدى السلطان وفى عنقه منديل الأمان. فقيل له «إنما أمناك على نفسك، وأما الأموال التى أخذتها من أهل المدينة ومن الحجاج فلابد من ردها إلى أربابها». فجمع أدى أولاده، وهاجم سعد بن ثابت ليلا، وحاربه، فقتل سعد، وكتب باستقرار فضل بن قاسم عوضاً عنه.

ويروى المقريزى فى حوادث عام ٧٥٢هـ/١٣٥٢م، أن الشريف أدى صاحب المدينة المنورة قد توفى فى سجنه.

ولما وصل الشريف ثقبة إلى مكة ونزل بطن مر، وتقدم إلى مكة متسفرة الأمير حسام الدين لاجين، وعرف الشريف عجلان بانفراد أخيه ثقبة بالإمارة،

امتنع الشريف عجلان عن تسليمه مكة. فعاد حسام الدين لاجين إلى ثقبة، فأقاما معاً حتى قدم الحجاج بصحبة الأمير طيبغا المجدى، فتلقاه ثقبة، وطلب منه أن يحارب عجلان معه، فلم يوافقه طيبغا فأسمعه ثقبة مالا يليق وهدده بمنع الحجاج من دخول مكة، وقام غاضباً وألبس من معه من العربان وغيرهم السلاح فاجتمع طيبغا المجدى وقاضى القضاة عز الدين بن جماعة وكان قد توجه بصحبة ركب الحج، واتفقا على إرسال الحسام إلى عجلان ومعه القاضى ابن جماعة، وجرت مفاوضات بين الطرفين، انتهت بالموافقة على أن تكون إمارة مكة مشاركة بينه وبين أخيه ثقبة، وعاد إلى بطن مر، وعرضا الأمر على ثقبة فوافق وساروا جميعاً إلى مكة، فتلقاهم عجلان بالترحاب، وأنصف ثقبة، وأنعم عليهم بسبعين ألف درهم.

وفى عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م قدم الشريف طفيل بن أدى من المدينة النبوية يطلب تركة سعد فى الإمارة.

وفى نفس العام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م يروى المقريزى أن الشريف عجلان مضى قبل قدوم الحاج إليه من مكة إلى جدة، لأخذ مكس التجار الواردين فى البحر، فبعث إليه أخوه ثقبة يطلب نصيبه من ذلك، فأبى عجلان أن يدفع له شيئاً، فركب إليه، فلما نزلا غدر ثقبة بعجلان وقبض عليه وقيده، وأسلمه لمن يحفظه، وركب ليأخذ أموال عجلان من وادى نخلة. فلما أبعد ثقبة فى السير أفرج الموكلون بعجلان عنه، وأطلقوه، فطلب حماية بعض القبائل العربية فى هذه المنطقة، فأنزلوه عندهم وأركبوه ليلا، وصاروا به إلى بنى حسن وبنى شعبة، وأقام عجلان خارج مكة حتى قدم الحجاج، فلما علم ثقبة بما حدث سارع بالعودة إلى مكة لقتل عجلان ولكنه فلت من يده.

وفي عام ٧٥٤هـ/١٢٣٥م توجه ركب الحجاج صحبة الأمير ركن الدين عمر شاه الحاجب، وطلب السلطان من أمير الحاج ومن بصحبته من الأمراء أن يقبضوا على الشريف ثقبة ويقروا الشريف عجلان بمفرده على إمارة مكة، فلما قدم الحجاج إلى بطن مر، ومضى عجلان إلى لقائهم شكا إلى الأمراء من أخيه ثقبة، وذكر ما فعله في قواده وعبيده، فألبسوه خلعة على العادة، ومضوا معه إلى مكة، وهم يحادثونه في الصلح مع أخيه عجلان، ويحسنون له ذلك، وهو يأبى موافقتهم حتى يئسوا منه، فمد الأمير سيف الدين كشلي، يده إلى سيفه فقبض عليه وأشار إلى من معه فألقوا ثقبة عن فرسه، وأخذوه ومعه ابن لعطيفة وآخر من بني حسن، وكبلوهم بالحديد، ففر القواد والعبيد. وأحضروا الشريف عجلان، وألبسوه التشريف، وعبروا به إلى مكة وسلم ثقبة للأمير أحمد بن الملك، فسر الناس بذلك. ولما انقضى موسم الحج حمل الشريف ثقبة مقيداً إلى مصر، فسجن بها.

وفي عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م وردت الأخبار من المدينة المنورة بأن الشريف مانع بن علي بن مسعود بن جماز وأولاد طفيل جمعوا ونازلوا المدينة، يريدون قتل الشريف فضل بن قاسم بن قاسم بن جمار، فامتنع بها، وهم يحاصرونه اثنى عشر يوماً مرت بينهم فيها حروب، فانهزموا ومضوا من حيث أتوا.

أما عن علاقات مصر ببلاد اليمن في العصر المملوكي فيمكن أن نشير إلى الحملة التي قام بها تورانشاه أخي صلاح الدين الأيوبي على بلاد اليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، وأقام فيها الخطبة للخليفة العباسي. وقد ظل أمراء بني أيوب قابضين على زمام الأمور في بلاد اليمن حتى خرج على طاعتهم عمر بن علي بن رسول سنة ٦٢٩هـ/١٢٣٢م، واستقل بملك اليمن وتلقب بالملك المنصور، كما ضرب السكة باسمه وصار الخطباء يدعون له على المنابر.

على أن مصر ما لبثت أن علا شأنها واتسعت رقعتها فى أوائل العصر المملوكى وخاصة على أيام السلطان الظاهر بيبرس إذ أصبحت بلاد اليمن بمقتضى التقليد الذى منحه الخليفة المستنصر بالله العباسى للظاهر بيبرس تحت سيادة مصر. ولذلك حرص بيبرس على تدعيم علاقاته مع بنى رسول فى اليمن. فارتبط مع الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول بعلاقات الود، وتبادلا الهدايا والسفارات. وقد استمر شمس الدين يوسف فى علاقاته الطيبة مع بني قلاوون في مصر، إذ أرسل فى سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م إلى السلطان المنصور قلاوون وفدا يحمل هدية إلى قلاوون، وطلب هذا الوفد الحصول على أمان لملكهم يكون مكتوباً على قميص وأن يوقع على هذا القميص قلاوون وابنه المنصور.

ولما آلت سلطنة اليمن إلى الملك المؤيد هزبر الدين داود بن المظفر يوسف سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، سار على سياسة أسلافه فى التقرب من مصر فى أوائل عهده، ولكنه ما لبث أن بدأت تظهر منه بوادر للانفصال عن مصر، فقد امتنع عن إرسال المال الذى اعتاد ملوك اليمن إرساله كل عام إلى مصر، كما أساء معاملة التجار المصريين وأخذ أموالهم بغير حق، فاضطر الخليفة المستكفى العباسى أن يرسل إلى هزبر رسالة يهدده فيها بإرسال جيش مصرى للقضاء على ملكه. كما أن السلطان الناصر محمد أعد جيشاً وأسطولا لإرسالهما إلى بلاد اليمن لولا النزاع الداخلى الذى حدث فى مصر بين أمراء المماليك.

أمام هذا التهديد اضطر ملك اليمن إلى الرضوخ والعودة لطاعة مصر، فوفدت رسله إلى مصر يحملون الهدايا إلى السلطان الناصر محمد من وقت لآخر، ثم تطورت العلاقات بين مصر واليمن بحيث تدخلت مصر عسكرياً

لمساعدة ملك اليمن ضد منافسيه. فقد طلب الملك المجاهد سيف الدين سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م تدخل السلطان الناصر محمد ضد ابن عمه عبد الله بن المنصور الذى سيطر على معظم بلاد اليمن وتلقب بالملك الظاهر. فاستجاب الناصر محمد بعد تردد وأرسل حملة عسكرية بقيادة بيبرس الحاجب والأمير طينال. ولكن هذه الحملة فشلت فى تحقيق أهدافها، فقد التف أهل اليمن حول الملك المجاهد ضد الملك الظاهر ابن عمه خوفاً من معرة الاستعانة بالجند المصرى، فعاد الجيش المصرى إلى مصر مرة أخرى. وقد أثار هذا الموقف غضب الناصر محمد ولا سيما أن الأمير طينال أغرى السلطان بالأمير بيبرس ونسب إليه اتهاماً بأنه أخذ مالا من الملك المجاهد وأنه قصر فى امتلاك اليمن. وقد رأى الناصر محمد معاقبة بيبرس بتوليته نائباً على غزة، إلا أن بيبرس رفض المسير إلى غزة، فأمر الناصر محمد باعتقاله هو وحاشيته وصادر أموالهم ثم عفا عنهم. ولم يحاول الناصر محمد فتح بلاد اليمن.

ولاشك أن ملوك اليمن لم يحاولوا التخلص من السيطرة المصرية، بسبب التنافس بين أمراء اليمن حول العرش ووقوع بعضهم فى نزاع مع الأئمة الزيدية الذين اتخذوا صنعاء دارا لإقامتهم. وكان سلاطين مصر يتدخلون فى تلك المنازعات بين أمراء اليمن وبعضهم البعض من ناحية، وبينهم وبين الأئمة الزيدية من ناحية أخرى. فحافظت مصر بذلك على وجودها الاسمى فى بلاد اليمن.

الصراع الحربى مع رودس

فى عصر المماليك

تمتاز رودس بموقعها الاستراتيجى الممتاز فهى تتوسط قارات العالم الثلاث وتبعد إثنى عشر ميلاً تقريباً من الشاطئ الجنوبى بأسيا الصغرى، وكان لقربها من الامبراطوريات العربية ثم المصرية ما جعلها هدفا للحملات الإسلامية فى مناسبات كثيرة.

وقد أصبحت منذ أن وفد إليها الاستبارية سنة ١٣٠٨م-٧٠٨هـ حصنا مع الحصون الباقية لحكم الصليبيين فى شرق البحر الأبيض المتوسط حيث أنهم أتخذوا منها قاعدة لنشاطهم وأعمالهم.

وعموما فان الاسبتارية بجزيرة رودس كانت نظرتهم إلى المسلمين تتسم بروح العداء باعتبارهم أعداء المسيحية. وأنه من الواجب قتلهم أو استعبادهم حيثما كانوا. وأن هذه الفكرة دان بها كل من تولى الأمر فيهم. وكان هناك تعاون كبير بين كل من جزيرة قبرص ورودس.

وحينما نجح السلطان برسباى فى إخضاع جزيرة قبرص، أعلن عن اعتزامه إعداد حملة للاستيلاء على رودس. الأمر الذى اضطر معه فلوفيان رئيس الاسبتارية أن يرسل رسولا من قبله ويعرض على السلطان برسباى عقد معاهدة وأن يأخذ وعداً منه بعدم الاعتداء على رودس. وقد قدم هذا الرسول هدية إلى السلطان برسباى قيمتها ٦٠٠ دينار كما تعهد بدفع جزية سنوية لسلطان مصر المملوكى.

وبالرغم من ذلك كله فإن الاسبتارية كانوا على حذر من المماليك

وأخذوا فى تحصين الجزيرة. غير أن السلطان برسباى لم يحاول غزوها بسبب إنشغاله بالحرب مع المغول ثم إن الأحوال الداخلية وقتذاك كانت غير مستقرة. وتوفى برسباى سنة ١٤٣٨م-٨٤١هـ وتوفى أيضا فلوفيان قبل وفاة برسباى بعام.

وبالرغم من أن السلطان جقمق كان محبا للسلام فإن ذلك لم يكن يجعله يغض الطرف عن متجرمة الفرنج وإن يقف مكتوف اليدين إزاء غاراتهم المتكررة على السواحل المصرية وعلى السفن الإسلامية بشرق البحر الأبيض المتوسط. بل أنه على قول السخاوى المؤرخ المعاصر لهذه الفترة «ذكر ما أنزله السلطان برسباى لجزيرة قبرص وارتغا الأفرنج كافة بذلك... واجب تجديد العهد بما فيه ذلهم» وبعبارة أخرى أحب أن يقتفى أثر برسباى بفتح رودس واتخذ جقمق من حوادث القرصنة ذريعة لذلك، لاسيما حين دخلت أربع سفن صليبية فرع رشيد سنة ١٤٣٩م-٨٤٣هـ، وبعد أن أنجزت مهمتها من نهب وهدم وتدمير وقفلت راجعة، الأمر الذى أثار السلطان جقمق، أضف إلى ذلك أن السلطان العثمانى مراد الثانى حرض جقمق على غزو رودس رغبة منه فى إجبار فرسان الاسبتارية فى اتخاذ موقف الدفاع عن رودس عوضا عن الإنضمام إلى الحلف المسيحى الذى كان يستعد لشن حرب كبرى ضد العثمانيين بالبلقان. ولما علم الرئيس لاستيك رئيس الاسبتارية الجديد بتحريض السلطان العثمانى لجقمق أراد أن يتأكد من صحة هذه الانباء فبعث رسولا من قبله إلى السلطان مراد الثانى، وضح له رغبته فى تجديد المعاهدة القديمة التى أبرمت بين العثمانيين والاسبتارية. غير أن السلطان العثمانى أعتذر عن ذلك بلباقة. متعللا بعدم جدوى هذا العمل إذ أن المعاهدة القديمة تكفل السلام للطرفين. وبذا لم يبق أمام لاستيك إلا أن يتعرف على

استعدادات المماليك ومن ثم أرسل وكيله فى سفينتين بغية الوقوف على مايجرى على السواحل المصرية، وقد نجح هذا الوكيل فى معرفة كل مايجرى من استعداد لغزو رودس عن طريق مسيحيين من أهل دمياط.

وفى أثناء عودة هذا الوكيل إلى رودس هاجم سفينة مملوكية إزاء سواحل الشام فى يوليه سنة ١٤٣٩م/ صفر ٨٤٣هـ ثم أحاط بعد ذلك رئيسه علماً بالاستعدادات المملوكية وعليه لم يبق هناك أى شك فى نوايا المماليك ضد جزيرة رودس. فأخذ لاستيك فى تحصين الجزيرة واستعد بالقوة البرية والبحرية بعد أن شحنها بالمقاتلة. وأصبحت الجزيرة على أهبة الاستعداد للدفاع وصد المعتدين.

وعلى كل فانه ما أن استقرت الأمور الداخلية للسلطان جقمق حتى بدأ فى إعداد العدة لغزو رودس فأرسل ثلاث حملات إليها.

حملة جقمق الأولى على رودس

غادر الأسطول المملوكى أرض مصر فى أغسطس سنة ١٤٤٠م/ ربيع الأول سنة ٨٤٤هـ وكان يتكون من خمسة عشر غرابا. وكان بها مائتان من الجند تحت قيادة الأمير تغرى برمش السلاحدار. ويونس المحمودى أمير أخور وأنضم إلى هؤلاء عدد من أهل دمياط والقاهرة حتى صار عددهم مايقرب من ألف مقاتل. وتحرك الأسطول المملوكى من دمياط وأمده الملك حنا الثانى بالمؤن اللازمة. ثم توجه بعد ذلك إلى العلايا على الساحل الجنوبى لأسيا الصغرى. وقد أمد أميرها الحملة بغرابين وعدد من المقاتلين وعموما فان جزيرة رودس كانت على استعداد تام لمقاتلة المماليك. وحين تيقن المماليك من استحالة الهجوم على رودس يمم الأسطول المصرى وجهه نحو سواحل

رودس الشمالية. فما كان من الأسطول الرودسي إلا أن هاجمه وأنزل به عدة خسائر. واضطر المماليك إلى الأرتداد نحو سواحل آسيا الصغرى. غير أن الروادسة كانوا في أثر المصريين. ووقعت هناك معركة بين الروادسة والمصريين. ولم تكن معركة فاصلة. وأخيراً عاد الأسطول المملوكي إلى مصر، بعد أن خسر ١٢ مقاتلاً من المماليك وجرح عدد كبير منهم.

وكانت قد وصلت أخبار إلى السلطان جقمق تفيد بانتصار الحملة. ولكن سرعان ما أن علم جقمق الحقيقة فقد أخبره الجند بأنهم لم يكونوا انداداً للروادسة.

الحملة الثانية ٨٤٨هـ (١٤٤٣م) :

والحقيقة أن الهزيمة التي ألحقت بالمماليك جعلت أهل رودس يزهون بأنفهسم ويزدرون قوة السلطان جقمق علانية. مما جعله يبادر في تجهيز حملة ثانية تكون أكبر وأقوى من الحملة الأولى. فأصدر أمره باصلاح جميع السفن القديمة. بل وأمر بإنشاء سفن جديدة. وقد أخفى جقمق نيته وفي الوقت نفسه أقدم على خطوة سياسية تهدف إلى تحييد جيران رودس. فعقد معاهدة مع كل من ملك قبرص حنا الثاني وفانتين كوريني صاحب جزيرة كوس.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان لاستيك رئيس الاسبتارية أخذ بدوره في تحصين الحصون والقلاع برودس وإعداد الحرب لأن عيونه وجواسيسه أخبرته بما تم في مصر من الاستعدادات للحملة الثانية. كما وأن لاستيك بدوره أرسل رسلا من قبله إلى ملوك أوروبا يطلب منهم العون والمدد. ووصلته ردود تحوي العطف الذي لافائدة منه. ولم يحالفه سوى

امبراطور بيزنطية حنا الثانى باليولوجوس. ولم يكن لهذا الخلف أى أثر. إذ أن الدولة البيزنطية فى ذلك الوقت كانت على درجة كبيرة من الضعف، مما أضطر معه لاستيك رئيس الاسبتارية المحاولة فى الدخول فى مفاوضات لعقد صلح من السلطان جقمق. ومن ثم بعث رسله إلى القاهرة وفى صحبتهم هدايا وعدد من الأسرى المسلمين، غير أن هؤلاء الرسل لم يرحب بمقدمهم بل أنه ألقى القبض عليهم وزج بهم فى السجن. وجهز بعد ذلك السلطان جقمق حملته التى أبحرت بقيادة الأمير إينال العلائى من دمياط قاصدة رودس. وكان عدد قواتها يزيد عن الألف من المماليك السلطانية.

وقصدت السفن السواحل الشامية. وقد تصادف أن هبت رياح وأنواء على هذه السفن ما أضطرها إلى التفرق فوصل بعضها إلى بيروت والبعض الأخرى وصل طرابلس. وهناك علم الأمير إينال العلائى أن الإمدادات السورية سبقته إلى المياه القبرصية بعد طول انتظار. واجتمعت القوات المملوكية فى قبرص للتموين. وكان عدد السفن المشتركة فى هذه الحملة تزيد عن الثمانين وإن مقدم هذه الحملة فجأة جعل الفزع يدب فى ليماسول إذ أن ملك قبرص حنا الثانى كان قد أخفى أخبار هذه الحملة. ولذا فان أهل ليماسول وحاكمها هربوا عند نزول بعض القوات المملوكية إلى الساحل. وهنا لاحت الفرصة للمماليك للقيام بأعمال تخريب وتدمير بالجزيرة، وبينما الفوضى ضاربة أطنابها فى الجزيرة. قدمت رسل ملك قبرص وأفادت بأن المؤن اللازمة تنتظرهم. وقدم رسل حنا الثانى ملك قبرص إلى الأمير إينال العلائى قائد الحملة اعتذارهم لهروب أهل ليماسول وأكد هؤلاء الرسل باستمرار قبرص على العهد والسمع والطاعة. وفى الوقت ذاته اشتكوا إليه مما فعله المماليك فى بلادهم. غير أن إينال أبدى استياءه لعدم حضور ملكهم

إليه. وفى الوقت نفسه اعتذر لهم عما فعله المماليك ببلادهم معللا ذلك أنه حدث بدون علمه. وإن الأسباب التى دفعتهم إلى ذلك هو عدم المبادرة لاستقبالهم وأحضار الضيافة والأخبار بالطاعة.

وغادرت الحملة بافوس إلى إضاليا بالساحل الجنوبى لاسيا الصغرى ثم إلى فينكيا ومنها إلى قشتيل الروج أى الحصن الأشهب وكانت هذه الجزيرة تابعة لفرسان الاسبتارية حيث أرست السفن المملوكية على مرأى من الحامية الاسبتارية هناك.

وفى ٧ أكتوبر ١٤٤٣م (١٢ جمادى الآخر ٨٤٧هـ) نزل المماليك إلى البر وسخرت منهم الحامية الموجودة فى أبراج الحصن وذلك باطلاق طلقة واحدة من مدفع أعقبتها طلقات صغيرة متباعدة وذلك أمعانا ومبالغة فى السخرية. هذا بالإضافة إلى عبارات بذيئة أنهالت على الجند المماليك من مختلف الأبراج. الأمر الذى أثار المماليك وأصروا على معاقبة هؤلاء الكفرة بذيئى اللسان. وذلك بالرغم من نصح إينال لهم بتجاهل هذه الأمور. وأن ييمموا وجههم شطر رودس التى هى هدفهم. غير أن أن إينال أضطر أخيراً للرضوخ لرغبتهم ومن ثم حاصروا حصن قشتيل الروح.

ونجحوا بعد ذلك فى أحداث ثغرة بالسور المحيط بالجزيرة واقتحموا الجزيرة وبذا تم لهم النصر وسلمت الحامية. وهرع المماليك إلى أبراج الحصن ورفعوا فوقها رايات الإسلام، ثم هدموا بعد ذلك الحصن وأبراجه. ولحلول فصل الشتاء أضطر الأمير إينال العلائى أن يوقف القتال وبذا لم تستطع الحملة مواصلة عملها بالهجوم على رودس. ومن ثم قرر تمضيه فصل الشتاء بثغر ماكوى بشاطئ آسيا الصغرى. مما يرجح تبعيه هذا الميناء

للعثمانيين أو لغيرهم من أصدقاء الدولة المملوكية. غير أن العواصف والأعاصير جعلت الحملة المملوكية تعدل عن رأيها، وتقرر الذهاب إلى قبرص. ولكن الرياح الغربية جعلتهم يقررون العودة إلى مصر.

وعلى كل فان الأسطول وصل متفرقا فبعض السفن وصل إلى دمياط. وبعضها إلى الإسكندرية، والبعض الأخر إلى رشيد وكان يصحبه مائتان من الأسرى أكثرهم من الشيوخ والعجائز.

وقام السلطان جقمق باستعراض جنود الحملة بالقلعة وخلع على الأمراء بالخلع الشريفة.

وعلى العموم فان السلطان جقمق تحسر وحزن على هذه الحملة لانها لم تحقق ماكان يرجوه منها. غير أن هذه الحملة فى رأى بعض المؤرخين مثل السخاوى كانت أحسن من الحملة الأولى، ومع ذلك فان جقمق فكر فى حملة ثالثة.

الحملة الثالثة : ٨٤٨ هـ (١٤٤٤م) :

هذا وأن فكرة القيام بحملة ثالثة ضد رودس أخذت تختمر فى رأس جقمق إذ أن النجاح الذى صادفه برسباى فى فتح قبرص فى حملته الثالثة هو الذى شجعه على المضى فى إعادة الكرة لفتح رودس. والواقع أن السلطان جقمق أخذ من أعمال السلطان برسباى فى حملته الثالثة على قبرص نموذجا له. فعمل على فصل القيادة البحرية عن القيادة البرية.

وعموما خرجت الحملة فى سنة ٨٤٨هـ (١٤٤٤م) بعد أن عين الأمير إينال العلائى قائداً للقوات البرية والأمير تغربناى مقدم الحلقة قائدا

للقوات البحرية. ثم أمر جقمق أن تنضم إلى هذه الحملة قوات أخرى مملوكية من النيابات الشامية، وبذا أصبح عدد هذه القوات مايزيد عن ألف وخمسمائه مقاتل. كما أنضم إلى هذه الحملة عدد من المطوعة وهم الوعاظ نذكر منهم السيد نور الدى على بن محمود الكردى والمحدث برهان الدين البقاعى. والجدير بالذكر أن كلا منهما أشترك فى الحملتين السابقتين واعظا ومثيراً لحماسة الجند أثناء القتال.

وبعد أن تمت الاستعدادات بالقاهرة، رحلت الحملة عن بولاق ثم سارت الحملة من الاسكندرية ودمياط إلى طرابلس وهناك انضم إليها القوات الشامية ومن طرابلس أبحرت الحملة متجهة نحو مدينة رودس. وحين وصلت الحملةإليها، نزل المماليك إلى بر الجزيرة. ووجد المماليك أن أهل رودس استعدوا للقتال وحصنوا أبراجها بالآلات والسلاح. وعندئذ حاصر المماليك المدينة ونصبوا عليها المجانيق.

وتوغلت فرقة من كبار المماليك إلى داخل المدينة قليلاً واتخذت لها مكانا حول كنيسة القديس أنطون وذلك لترقب الموقف عن كثب وتساعد فى الوقت نفسه القوات العسكرية المحاصرة لمرفأ رودس. فى حين أنه تفرقت فى قرى رودس وبساتينها قوات مملوكية لاعمل لها سوى النهب والسلب.

وعلى كل فان القوات المملوكية بدأت أعمال الحصار برمى حصن القديس نيقولا بالمجانيق وكان هذا الحصن هو أهم الاستحكامات الخارجية المقامة حول مدينة رودس. وقد قتل فى هذه المعركة عدد كبير من الطرفين. والتزم الاسبتارية خطة الدفاع فى بادئ الأمر.

وأنضمت إلى القوات الاسبتارية برودس قوات برجندية وقطلانية. ومن

ثم قوى الأسطول الاسبتارى بهذه الإمدادات وأخذ فى مهاجمة السفن المملوكية على حين غرة لولا أن يلخجا كان لهم بالمرصاد، فبرز إليهم ودار قتال عنيف واستطاع أن يردهم وخسرت البحرية المملوكية ثلاث سفن.

وبعد ذلك خرجت قوات اسبتارية من حصن القديس نيقولا وهاجمت فرقة من المماليك كانت تعسكر حول كنيسة القديس أنطون. وأعمل فيهم السيف قبل أن تتاح لهم الفرصة فى استخدام سلاحهم. ولذا لم تكتب الحياة إلا القليل الذى تكمن من الفرار وانضم إلى القوات المحاصرة للحصن.

وقد وصل إلى السلطان جقمق كتاب فيه وصف لبعض الحوادث التى مرت بها المملوكية وحرج مركزها.

والجدير بالملاحظة أنه لم يذكر فى هذا الكتاب أن الأمر انتهى بالنسبة للقوات المملوكية برودس، وأنها نزحت عن الجزيرة غير أننا نجد السلطان جقمق يبادر بارسال الأمدادات والنجدة. على أن هذه النجدات التى أرسلها ما لبثت أن عادت بدورها فى أثر رجوع الحملة إلى الاسكندرية ودمياط.ثم القاهرة.

وعموماً فان الأخبار التى وقف عليها السلطان جقمق فى آخر الأمر كان أعظم بكثير من هذه الأخبار التى وصلته سابقا. فقد استشهد حوالى ثلاثمائه جندى فى المعركة كان من بينهم تغرى برمش السلاحدار الذى كان قائداً للحملة الأولى على رودس. هذا بالإضافة إلى خمسمائة جريح، وثلاث سفن عرفت فى البحر. والأكثر من هذا كله أن الكثير من الجند المماليك التجأ إلى العدو واعتنق المسيحية.

وعلى العموم فان نتيجة الحملة الثالثة على رودس كما قال المؤرخ السخاوى «أنه لم يتم للعسكر قصد ولا رجعوا بطايل. ولهذا فترت همتهم عن الجهاد فى تلك المدة لهذه الجهة ولله عاقبة الأمور.

ومهما يكن من شئ فان المحاولات الثلاث التى قام بها جقمق ضد رودس لم تحقق النتائج المرجوة منها، ومع ذلك فقد كان فرسان الاسبتارية يتوقعون عدم توقف حملات جقمق ضدهم وأنه لابد من أن يوجه إليهم حملة رابعة فأخذوا فى الاحتياط لذلك. واستنجدوا بالبابا أيوجين الرابع وملوك أوربا. ولكن إنشغال هؤلاء الملوك بمشاكلهم الخاصة ورغبة البابا فى وضع حد لحروب الاسبتارية مع سلطان المماليك جعلهم يسعون إلى عقد الصلح مع جقمق. مما دعا لاستيك إلى البحث عن وسيط يعمل على إيجاد حل يقبله الطرفان وكان هذا الوسيط هو جاك كير التاجر الفرنسى الذى كان على صلة طيبة بالسلطان المملوكى جقمق وقام بمهمة الوساطة بين الطرفين بعد أن أستأذن ملك فرنسا شارل السابع.

وقد أرسل جاك كير مبعوثا من قبله إلى السلطان جقمق وفى صحبته قاصد اسبتارى إلى الإسكندرية حيث تم عقد الصلح وتعهدوا بعدم العدوان على السفن والمتاجر الإسلامية أو التعرض لها. وعاد الرسول الاسبتارى إلى رودس ومعه عدد من الأسر المسيحيين.

علاقة مصر بالحبشة فى عصر المماليك

حكمت العلاقة بين مصر والحبشة عدة عوامل دينية وثقافية وتجارية. وعلى كل فان هذه العلاقة ترجع إلى عصور سابقة لميلاد السيد المسيح عليه السلام فقد ارتبطت الحبشة بالكنيسة المصرية، وظلت مصر ترسل المطارنة إلى الحبشة كلما خلا منصب المطران بها. وبذلك يقول المقريزى «ولابد للحبشة من مطران يوليه بطريق النصارى اليعاقبة فى مصر بعد سؤال ملك الحبشة لسلطان مصر».

وهكذا جرت العادة على أن يبعث ملك الحبشة إلى كل من سلطان مصر وبطريرك الاسكندرية بطلب منها تعيين من يشغل منصب المطرانية فى الحبشة كما جرت العادة أن يبعث ملك الحبشة بهدية صحبة حامل الرسالة إلى مصر. وكان المتبع هو أن يحتفى بمقدم المطران المصرى إلى الحبشة وكانت أوامر البطريرك موضع الاحترام والقداسة.

ولكثرة عدد المسلمين بالحبشة فان ا لكنيسة المصرية كانت تعهد بالإشراف على رعاية مصالح هؤلاء إلى مبعوثيها الدينيين. فقد حدث فى عهد المستنصر الفاطمى أن تدخل بدر الجمالى فى تعيين أسقف للحبشة هو الأب ساويروس فى عام ٤٧٣هـ (١٠٨٠م) واشترط عليه رعاية جانب المسلمين والاهتمام بأمورهم والسهر على شئونهم وكذا العناية ببناء المساجد والإكثار منها.

وقد عملت مملكة الحبشة بدورها على الاستفاد بخدمات بعض المماليك الجراكسة ولاسيما فى الشئون الحربية فقد رحب أسحق نجاشى الحبشة (١٤١٤-١٤٢٩م) بأحد المماليك الزردكاشية الفارين من مصر وعهد إليه

بأعداد الأسلحة المختلفة. وأنجز الأمير المملوكى عمله على الوجه الأكمل.

وفى هذا يقول المقريزى وعمل له زرد خانات عظيمة تشتمل على الآلات والسلاح من السيوف والرماح والزرديات وغيرها، وكانوا من قديم إنما سلاحهم الحراب يرمون بها». وقدم أيضا على الحبشة أمير أخر مملوكى يعرف باسم الطنبغا مفرق ولى بعض بلاد الصعيد. ثم فر من مصر فرحب به اسحق نجاشى الحبشة. وكان هذا الأمير على دراية كبيرة بفنون الحرب والقتال. وقد علم هذا الأمير الأحباش كيفية القتال بالنشاب واللعب بالرماح والضرب بالسيف بالإضافة إلى تعليمهم استخدام النار الأغريقية. واستفادت أيضا الحبشة من خبرة المصريين فى الشئون الإدارية من حيث إنشاء الدواوين وتنظيمها وجباية الأموال. فقد وفد إلى الحبشة شخص يدعى فخر الدولة وهو أحد الأقباط المصريين. وعمل فخر الدولة على ترتيب حكومة الحبشة حتى أصبح ملك الحبشة على قول المقريزى « ملكا له سلطان وديوان بعد ما كانت مملكه آبائه همجا لاديوان لها ولا ترتيب ولاقانون فانضبطت الأمور...».

وبفضل فخر الدولة صار زى النجاشى أسحق يميز عن رعيته بالملابس الفاخرة بعدما كان سلفه يخرج عريانا وقد عصب رأسه بعصابة خضراء.

ومما هو جدير بالذكر أن العلاقة بين مصر والحبشة كانت متوترة فى عهد كل من السلطان برسباى والسلطان جقمق. وانتهز هذه الفرصة كل من البابوية والأفرنج ومن ثم أخذوا فى التقرب إلى الحبشة. وبذلت السلطات المملوكية قصارى جهدها فى الحيلولة دون هذا الاتصال. غير أن الأفرنج كانوا على علم تام بتطور العلاقات بين الدولتين وذلك عن طريق الرهبان

الأحباش، والرهبان الفرنسسكان المقيمين بالقدس أو عن طريق حجاجهم إلى فلسطين وتجارهم الذين يفدون على أسواق الشام ومصر.

وعمل الأفرنج جاهدين على القضاء على أى محاولة تبذل للتقارب بين مصر والحبشة.

ففى ١٩ جمادى الأولى سنة ٨٤١هـ (١٨ نوفمبر سنة ١٤٣٧م) وفد إلى القاهرة رسول من قبل نجاشى الحبشة زرع يعقوب يطلب من السلطان برسباى إعادة العلاقات الطيبة بين كل من الحبشة ومصر. وفى الوقت نفسه، يوصى بالنصارى وكنائسهم ويخبر بوفاة مطران الحبشة. ويرجوا السلطان أن يصدر أمره إلى البطريرك القبطى بمصر بماختيار خلف للمطران الراحل. وقد حقق السلطان طلبه. وعاد الرسول الحبشى ومعه مطران جديد. وبصحبتهم رسول من قبل البطريرك إلا أن العلاقات بين كل من مصر والحبشة عادت إلى القبطية فى عهد السلطان جقمق وانتهزت البابوية هذه الفرصة لدعوة الحبشة للاشتراك فى مجمع فلورنسة الذى تقرر عهد فى عام ٨٤٣هـ (١٤٣٩م). وكان الغرض من وراءه هو توحيد الكنيسة المسيحية ولتحقيق هذا الأمر اتصلت البابوية بنقوديموس رئيس الرهبان الأحباش بالقدس الذى بارك هذه الخطوة وبلغت من قبله براهيين من الأحباش للاشتراك فى هذا المجتمع.

وقد أبدى الرهبان الموافقة على مبدأ توحيد الكنيسة. وعمل البابا أيوجين الرابع على إتخاذ الخطوات العملية لتحقيق هذه الوحدة. فبعث إلى زرع يعقوب نجاشى الحبشة البرتوداسارتانو أحد الرهبان الفرنسسكان، وحين وصول هذا الرسول إلى القاهرة تشرق بمقابلة السلطان جقمق. غير أن

جقمق رفض هذا الطلب إذ أن السلطنة المملوكية كانت قد اتخذت قرارا يقضى بالحيلولة دون الاتصال بين الفرنج والأحباش بعد اكتشاف التآمر على سلامته بين إسحاق والفونسو الخامس يستوى فى ذلك التجار أورجال الدين أو المبعوثين السياسيين. وهى فى ذلك تحيى ذلك المبدأ الذى ينص على تحريم ارتياد الفرنج لمنطقة البحر الأحمر وهذا المبدأ كان قد حين قام البرنس أرناط صاحب الكرك الصليبية بحملته فى عام ١٥٧٧ (١٤٨م) على بلاد الحجاز ثم بحملته الثانية على الساحل الغربى للبحر الأحمر.

مماجعل الراهب البرتو يعدل عن رأيه فى الوصول إلى الحبشة عن طريق مصر. ومن ثم غادرها قاصدا شبه جزيرة القرم. ومن هنالك اتبع طريق طريزون والخليج العربى والبحر الأحمر غير أنه توفى وترك لزميله وهو راهب من الفرنسسكان يدعى توماسوا تمام هذه المهمة. ومالبث أن وقع هذا الراهب ومن معه أسرى فى أيدى السلطات المملوكية أثناء محاولتهم عبور البحر الأحمر. ونقلوا بعد ذلك إلى القاهرة، حيث صدر أمر بسجنهم، ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن دفعوا فدية.

وقد نجم عن هذا الحادث أن احكمت السلطات المملوكية الرقابة على الطريق بين مصر والجبشة. وبالرغم من ذلك فقد وصلت سفارة حبشية إلى روما فى عام ٨٤٥ هـ (اكتوبر ١٤٤١م). وقد قوبلت هذه السفارة استقبالا حافلا ثم صدر بعد ذلك مرسوم الاتحاد بين الكنيسة الحبشية والكنيسة الكاثوليكية. وعاد الرسل الأحباش من روما وبرفقتهم رسولين من قبل البابا أيوجين الرابع وعلى العموم فان مشروع الوحدة بين الكنيسة الحبشية، والكنيسة الكاثوليكية كان نصيبه الفشل وذلك عقب مناظرة قامت فى حضرة ملك الحبشة بين أحد القسس الأحباش وأحد هذين الرسولين. الأمر الذى

جعل الجهود البابوية فى القيام بحملة صليبية مع الحبشة وتوحيد الكنيستين تتوقف.

وعمد زرع يعقوب بعد ذلك إلى إعادة العلاقات الطيبة بين كل من الحبشة ومصر. فأرسل من قبله قاصدا يحمل معه هدايا.و هى ٧٠ جارية بالإضافة إلى طشت وأبريق من ذهب وسيف مسقط مذهب وغير ذلك.

وكان هذا القاصد فى الوقت ذاته يحمل معه خطابا للسلطان جقمق واستفتحه نجاشى الحبشة بالإشادة إلى عهود المودة بين كل من البلدين فى العهود السابقة وأوضح أن الغرض من وراء هذه السفارة هو تجديد هذه العهود. وفى الوقت نفسه يطلب من السلطان معاملة المسيحيين بمثل ما يعامل به المسلمون فى بلاد الحبشة. وذكره بأن عدد هؤلاء المسلمين كثير. إذا ما قورن بعدد المسيحيين فى مصر. غير أنه تبع ذلك بتهديد جرت عليه ملوك الحبشة. كلما تأزمت العلاقات بينهم وبين سلاطين المماليك فى مصر ألا وهو منع مياه النيل عن أرض مصر ولكن الذى يمنعه عن تنفيذ ذلك هو تقوى الله. ويختتم هذا الخطاب بأنه بلغه أن نائب السلطنة بالقدس يمنع الأحباش الموجودين بها من بناء عمارة لهم. وأنه يطلب من السلطان إصدار أمره بالسماح لهم ببناء هذه العمارة أسوة بما اتفق مع الفرنج بالقدس.

وعموما فان هذا الخطاب أمتاز بالاعتدال فى الأسلوب واللهجة. وهو فى الواقع يعتبر محاولة من قبل نجاشى الحبشة لاصلاح العلاقات نبين كل من الدولتين. إلا أنه من الملاحظ أن نجاشى الحبشة يلجأ إلى الطرق التقليدية فى الضغط على مصر وهو التهديد بمنع مياه النيل عنها وكذا اضطهاد المسلمين بالحبشة وقتالهم.

غير أن جقمق رفض ما جاء بهذه الرسالة من مطالب وتهديدات ورأى أنه من حسن السياسة وبعد النظر هو عدم الأنسياق وراء عاطفة الغضب. فأرسل إلى نجاشى الحبشة زرع يعقوب رسالة حملها معه قاصد مصرى يعرف باسم يحيى بن أحمد ومعه هدية جميلة منها سرجان من ذهب وشقق مذهبة وطائر مجوف من البللور ومحلى بالذهب وقطع من الجوخ والصوف الملون وكمية من الزيت الطيب.

غير أن نجاشى الحبشة لم يقبل ما جاء بكتاب السلطان جقمق. ورفض السماح للقاصد المصرى بالعودة. وعول زرع يعقوب على الانتقام من مسلمى الحبشة. فأرسل جيشا لقتال ملكهم شهاب الدين الذى مات فى ميدان القتال وأرغم نجاشى الحبشة مندوب جقمق على مشاهدة السلطان القتيل.

وكان رد جقمق على هذه التصرفات من قبل ملك الحبشة أن أمر باحضار بطريرك النصارى وأمره بعد أن هدده بالكتابة إلى نجاشى الحبشة يشرح له فيه ماحل بالبطريرك من ذل ومهانة وتهديد. ويطلب منه الأفراج عن القاصد المصرى وأن يكف عن قتال المسلمين. وعند وصول هذا الكتاب خلع نجاشى الحبشة على قاصد السلطان واستجاب لرسالة البطريرك فى الأفراج عن رسول السلطان جقمق وأعلن أنه لايمانع فى سفره ومع ذلك عوقه. وخلع عليه واستمر على ذلك مدة مما جعله يقلق. ومن ثم قال لنجاشى الحبشية «أن كل المقصود القتل فها نذا وإلا فأطلقنى». وأخيراً اضطر النجاشى إلى الإفراج عنه بعد أن أمضى أربع سنوات فى الحبشة. وقد أعاق جقمق بدوره القاصد الحبشى مدة.

وعلى العموم فان هذه السفارة لم تحقق الغرض المرجو من ورائها. بل على العكس من ذلك أدت إلى زيادة الجفاء والفتور بين الدولتين.

وفى عام ٨٥٢هـ (١٤٤٨م) عقد السلطان جقمق مجلسا حضره القضاة الأربعة ومنهم بدر الدين العينى. واستدعى السلطان البطريرك وأمره بكتابة أشهاد عليه بألا يكتب ألف نجاشى الحبشة بنفسه ولابوكيله لاظاهرا ولاباطنا ولايولى أحد فى بلاد الحبشة لاقسيسا ولا أعلى منه ولادونه إلا باذن من السلطان ووقوله على كتابته وأنه متى خالف ذلك انتقض صهده».

وبعث جقمق مثقال الحبشى إلى ابن سعد الدين سلطان عدل وطلب منه اتباع سياسة تتسم بالاعتدا وذلك حفاظا على مملكته من غارات الأحباش غير أن سلطان عدل طلب من جقمق اتباع سياسة حازمة ضد ملوك الحبشة ويبدو أن سلطان عدل كل مصيبا فى رأيه من إثارة سلطان مصر نظرا لما كان يلقاه هو وجيرانه المسلمين من اضطهاد وإغارات وحرب من نجاشى الحبشة.

ففى عام ٨٥٤هـ (١٤٤٩م) وصل إلى مصر قاضى سواكن وأخبر السلطان جقمق أن زرع يعقوب أعد أسطولا يتكون من مائتى سفينة لغزو سواحل بلاد الحجار هذا بالإضافة إلى ما اعتزم من قطع النيل ووقف جريانه إلى مصر وإن هذا الخبر تكرر مرة أخرى خلال هذا العام.

وهكذا يتضح لنامما سبق عدم استقرار العلاقات بين مصر والحبشة فى عهد الجراكسة لاسيما فى عهد جقمق حيث شهدت فترته تقلبات فى العلاقات مع الحبشة نتيجة لسياسة العداء التى كان ملوك الحبشة ينتهجونها مع المسلمين فى كثير من الأحيان.

وهكذا يلاحظ أن العلاقات المصرية الحبشية زمن الجراكسة. كانت مزيجا من التحدى والعداء والهدؤ مع تبادل الهدايا فقد أرسل الملك الحبشى بيد مريم (١٤٦٨-١٤٧٨) هدية إلى السلطان قايتباى فى عام ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م ومن ثم إذن قايتباى لحجاج الحبشة بدخول كنيسة القيامة. وفى عام ١٥١٦م وصلت إلى مصر بعثة حبشية وعدتها ٦٠٠ رجل وعلى رأسهم خمسة من كبار الأحباش، وقد وصف أمين أباش هذه البعثة بقوله «كان مع المعاضد نحو خمسة من أعيان الحبشة والبقية ليسوا من الأعيان، وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشه شعر، وفيهم من فى إذنه حلق ذهب وفى أيديهم أساور ذهب».

وقد استقبل الغورى هذه البعثة بالقلعة وقد سلم رئيس البعثة كتاب ملك الحبشة. وفى هذا الكتاب يلتمس من السلطان الغورى تسهيل مرور الحجاج الأحباش لزيارة كنيسة القيامة بالقدس. هذا ولما وقف السلطان الغورى على محتويات الهدية التى قدمتها البعثة والتى قومت بنحو مبلغ ٥ ألاف دينار أو أقل استقلها الغورى وفى الوقت ذاته لام من تسلمها وأوصلها إليه، ثم طلب السجل الخاص بهدايا ملوك الحبشة السابقيين إلى كل من السلطان برسباى وجقمق وقايتباى. الأمر الذى جعله يدرك مدى تفاهه الهدية التى قدمتها البعثة.

هذا وإن ابن أ ـ يعلل لنا ذلك بضعف ملوك الحبشة المعاصرين له بالنسبة لاسلافهم.

العلاقات السياسية بين مملكة غرناطة ودولة المماليك

فى مصر

فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين (ق ١٤، ١٥م) تطلع بنو الأحمر سلاطين غرناطة إلى مصر زعيمة العالم الإسلامى وبيضته المانعة التماسا لنصرتهم أمام الخطر المسيحى الجاثم على مملكتهم. وتمثله قشتالة على وجه الخصوص كذلك كانوا يستنصرون منذ قيام دولتهم سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٨م) ببنى مرين (أو بنى عبد الحق) فى المغرب الاقصى لاستنهاضهم إلى مساعدتهم كلما تباطأت مصر عن مد يدها إليهم أو انشغلت عنهم بدفع خطر المغول عن أرضها وعن أراضى بلاد الشام.

ومن أهم الرسائل التى تعبر عن طلب سلاطين غرناطة عون مصر الرسالة التى وجهها السلطان محمد الخامس الغنى بالله (٧٥٥-٧٦٠، ٧٦٣-٧٩٣هـ / ١٣٥٤م-١٣٥٩م، ١٩٦٢-١٣٩١م) فى سلطنته الأولى إلى السلطان الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٨-٧٥٢، ٧٥٥-٧٦٢هـ / ١٣٤٧-١٣٥١، ١٣٥٤-١٣٦١م) والرسالة من إنشاء لسان الدين بن الخطيب (٧١٣-٧٧٦هـ) (١٣١٣-١٣٧٤). وفيها يستنصر السلطان محمد الخامس الغنى بالله الناصر حسن سلطان مصر ويلتمس منه مساندته ضد قوى المسيحية التى تهدد بلاده وتوشك التهام مابقى من دولة الإسلام فى الأندلس. وقد عرض فيها للأوضاع السيئة والأخطار المحبطة لبلاده ثم اختتمها بقولهك «فاذا لم يكن الاستدعاء، أمكن الدعاء، والخواطر فعاله، والكل على الله عاله، والدين غريب والغريب يحن إلى أهله، والمرء كثير بأخيه على بعد مرحلة.

ولاتسجل هذه الرسالة فى واقع الأمر بداية التماس سلاطين غرناطة نصره مصر والحصول على تأييدها المادى والمعنوى. فقد سبقت عصر محمد بادره مماثلة، تبناها جده أبو الوليد اسماعيل الأول الغالب بالله (٧١٣هـ-٧٢٥هـ/ ١٣١٤-١٣٢٥م) الذى يعاصر من سلاطين مصر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى عهد سلطنته الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤٠م) فعندما انتصر هذا السلطان على جيوش مملكة قشتالة فى وقعة دون بطرو (٧١٩هـ/ ١٣١٩م) التى دارت بفحص غرناطة كتب بعض الغرناطيين بذلك الانتصار إلى الديار المصرية وهذا هو المعنى الذى قصده لسان الدين بن الخطيب من عبارته التالية الواردة فى الرسالة المذكورة «المرحب لاجل افقه الشرقية بوفاده الشمس، المجدد فى اليوم حكم ما تقرر بين السلف رحمهم اللهم بالأمثل ولم يكف سلاطين غرناطة عن الاتصال بسلاطين مصر أحفاد الناصر محمد بن قلاوون استمدادا لعونهم وتأييدهم الروحى، فعندما استرد الغنى بالله ملكه فى سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م. وكان قد خلع عنه سنة ٧٦٠ هـ أمر وزيره لسان الدين بن الخطيب بأن يكتب بذلك إلى سلطان مصر والشام وحامى الحرمين السلطان المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى بن محمد بن قلاوون فامتثل ابن الخطيب لامر سلطانه، وكان مما كتب به إلى المنصور محمد فى ختام رسالة بعد أن عرفه بعوده الغنى بالله إلى ملكه قوله: «وقد رأينا أن نطالع علومكم الشريفة بهذا الواقع تسببا للمفاتحه المعتمدة، وتمهيدا للموالاه المجدده... وبلادكم ينبوع الخير أهلة، ورواق الإسلام الذى بأول قريبة وبعيدة إلى ظله، ومطلع نور الرسالة، وافق الرحمة المنثالة... فنحن نستوهب من نطاق الإجابة لديكم دعاء يقوم لنا مقام العدد، ويحلل منه الشئ بالمال والعدد، ففى دعاء

المؤمن يظهر الغيب مافيه مما ورد، وإياه سبحانه نسأل أن يدفع وعنكم دواعى الفتن وعوائل المحن... والسلام الطيب المبارك .. ورحمة الله تعالى ... وبركاته»...

على أن المنصور محمد عند توليه السلطنة كان صبيا حدثا لايتجاوز عمره أربع عشرة سنة. وكذلك كان خليفته الإشراف شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون (٧٦٤-٧٧٨هـ/ ١٣٦٣-١٣٧٦م) صبيا لايزيد عمره عن عشر سنوات، ومن ثم لم يكن لهما من السلطان شئ. وكان الأتابك يلبغا العمرى الخاصكى يستبد بالأمر دونهما ولعل الدولة النصيرية أدركت هذه الحقيقة على أثر وصول الرد المملوكى على كتاب الغنى بالله. ويفسر ذلك الرسالة التى أوردها بانشاء لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطان غرناطة إلى هذا الأمير المملوكى المستبد بطلب منه مواصلة وتجديد المراسلة حسبما جرى بين السلف، ويدعو فيهما الله بأن «يبقى تلك الأبواب (يقصد مصر) ملجأ للاسلام والمسلمين، وظلا الله تعالى على العالمين، وإقامة لشعائرهم الحرم الأمين».

والرسالة على أيه حال تعبر بوضوح عن اهتمام سلاطين غرناطة بتدعيم الروابط السياسية بين مملكة غرناطة ومصر، ونستدل منها كذلك على أن هؤلاء السلاطين كانوا على بينه ممايجرى فى مصر من إحداث. وليس أدل على ذلك من اشارة ابن الخطيب عن الحملة شنها الغرناطيون على مدينة جيان سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م إلى أن صيحة المسلمين فى هذه الحرب كانت والثارات أهل الاسكندرية وشير هذاه العبارة إلى الهجوم الغادر الذى شنه بطرس لوزينان صاحب قبرص على مدينة الاسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ مع

حفنه من القبارصة اقتحموا كالقراصنة فقتلوا ونهبوا وسلبوا ما شاء واوفروا منها كالقراصنة وتعبر هذه الصيحة تعبيراً صادقاً عن صدى اعتداءات الصليبيين على مصر فى مملكة غرناطة وكما نعبر عن مشاعر التضامن الأخوى الأصيل التى طالما حملها الشعب الأندلسى لمصر والمصريين وهى ماشعر صادقة تحمل معانى الغضب الشديد والرغبة فى طلب الثأر من القبارصة المبتدئين. وكما تحمل معانى الاحتجاج العملى على سياسة الغدر والعدان رغم المسافات الطويلة التى تفضل بين مصر والأندلس.

وعلى الرغم من انقطاع المكاتبات بين سلاطين مملكة غرناطة وسلاطى مصر فترة طويلة امتدت نحو سبعين سنة فليس لدينا مايثبت انقطاع الصلات السياسية بين الدولتين ضباب الوثائق المتبادلة والمستندات خلال هذه الفترة لاينفى على الإطلاق قيام علاقات واتصالات، وليس من المتطقى أن تتوقف هذه العلاقات القائمة فجأة مع حرص مملكة غرناطة الشديد على المواصلة. وقد يعزى غياب الكتب المتبادلة أبان هذه الفترة إلى ضياعها بسبب الأحداث المؤسفة التى تعاقبت على مصر والأندلس وواكبت فى مصر أنهيار أسرة قلاوون وبداية قيام دولة المماليك الشراكسة.

وأيا ما كان الأمر فقد عاودت الأندلس اتصالها بمصر فى عهد كل من السلطانين محمد بن يوسف فى غرناطة والظاهر جقمق فى مصر (٨٤٢-٨٥٧/ ١٤٣٨-١٤٥٣م) ففى سنة ٨٤٤هـ (١٤٤٠م) وجه سلطان غرناطة سفارة إلى مصر كان هدفها طلب النجدة والعون من مصر عقب انتصار خوان الثانى ملك البرتغال عليه فى موقعه كاستريل).

ومع أن السلطان جقمق أبدى اعتذاره من عدم استطاعته تقديم العون

المطلوب بحجة أن مملكة غرناطة تبعد كثيراً عن الديار المصرية، وأكتفى بان وعد سفير مملكة غرناطة تبعد كثير عن الديار المصرية، واكتفى بان وعد سفير مملكة غرناطة بانه سيطلب من السلطان العثماني مراد الثاني أن يقدم لهم المساعدة. فان السفير الغرناطى إلخ على السلطان جقمق موضحا له أنها لجأوا إليه بوصف «كبير الملوك والسلاطين وخديم الحرمين الشريفين وأنه لإذا لم يستطع أن يبعث اليهم جنوداً محاربه ففي وسعه على الأقل أن يعينهم بالمال والعدة، وأمام ذلك لم يتردد السلطان جقمق فى إعلان موافقته على هذا الطلب. ومع أن بعض الباحثين يعتقد أن السلطان جقمق لم يبر بوعده لنجده المسلمين فى غرناطة إلا أننا نستنبط من خلال المكاتبات الرسمية التى تشتمل عليها أحد المصنفات الخطلة المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس أن ثمة سفارة أخرى بعث بها السلطان محمد بن الأحنف بن عثمان الذى خلف محمد بن نصر على عرش غرناطة إلى الظاهر جقمق يلتمس منه العون، ويعبر عن شكره العميق إلى ما قدمته مصر، وهذه السفارة تثبت أنمصر مدت يدها بالمساعدة بقدر ما تسمح به ظروفها. فقد ورد فى الرسالة التى حملها التاجر أبو عبد الله محمد البنيولى إلى مصر من قبل السلطان غرناطة المتقدم الذكر، على لسان سلطان غرناطة مايشير إلى منح قدمتها مصر إلى غرناطة ونتبين ذلك فى قوله «ونحن نوجب التعظيم لتكلم الأبواب الكريمة والثناء على ماعندنا من المواهب المتصلة والمنح الصحيمة. كافأ الله عنا ما لها من الحقوق التى قامت المفاخر فيها على سوق «ويضيف سلطان غرناطة موجها قوله إلى السلطان جقمق أن هذا الغير التاجر ورفاقه أكتروا أحد المراكب إلى الاسكندرية لكى يشحن بما ييسره الله تعالى من صدقات المسملين ونواقل خبراتهم التى يعتمدون بها ما عند الله من الثواب الجسيم والجزاء الذى يخلد

فى دار النعيم «ثم يلتمس من السلطان جقمق أن يصدر أمره بالمشاركة فى وسقه وتفريغه وفى كل ما يحتاج إليه حتى تتم معونه هذا الوطن المستصرخ بأبوابكم المستعد باسبابكم» ويختتم رسالته مشيرا إلى أن كراء هذا المركب فى السفر والعودة هو ثلاثة عشر ألف وخمس مائة دينار من الذهب. وتوضح لنا أشارته إلى هذا القدر الكبير من المال مدى التضحيات المالية التى كان تتكبدها مملكة غرناطة والنفقات الباهظة التى تبذلها باكتراء هذا المركب بهدف شحنه بالأسلحة والمعتاد وايا ماكان أمر هذه السفارة فان القتال بين مملكتى غرناطة وقشتالة لم يلبث أن استؤنف فى عام ٨٥٦ وانتهى الأمر بهزيمة الغرناطيين فى موقعه البورشيوينس.

وقد أفاد القشتاليون من الظروف الداخلية السيئة التى تعرضت لها ملكة غرناطة واضطراب الأحوال فيها بسبب الخلافات القائمة والنزاع المتواصل بين أفراد الأسرة الحاكمة فتمكنوا بفضل ذلك من إنزال الهزائم بالغرناطيين ففى سنة ٨٦٧هـ أحرز هرى الرابع ملك قشتالة انتصاراً حاسما على المسلمين فى موقعه ماردونو ترتب عليه انفتاح الطريق أمامه للسيطرة على جيل طارق وغيره من المواقع الاستراتيجية.

عندئذ وجه سعد المستعين بالله سلطان غرناطة إلى الظاهر خشقدم رسالة حملها إليه الشيخ ابو عبد الله محمد بن الفقيه يستغيث فيها بخشقدم ويستحثه على نصرته بوصفه «أمير المؤمنين وولى المسلمين وناصر الدين والقائم على أصوله» وفيها يشير إلى المعونة السابقة التى قدمها مصر إلى مملكة غرناطة.

ويصف رسول سلطان غرناطة للسلطان خشقدم حالة الضيق والكروب

التى حلت بالمسلمين فى هذه المملكة ويهيب به بأن يمد المسلمين ف يهذه الديار الإسلامية المتقطعة بالعون ويبذل ما بوسعه. ولاشك فى أن السلطان خشقدم تأثر بهذا تأثرا عميقا بما قرأه فى رسالة سلطان غرناطة وما سمعه فى رسوله إليه، وتحركت فى نفسه عوامل الغيره على الإسلام والتأر له من الفرنج بوجه عام لاسيما وإن فرسان الاسبتارية أغاروا آنذاك على سفن مشحونة بالتاجر لبعض المغاربة وأسروا عدد كبيراً من المسلمين وبلغت قيمة المتاجر التى نهبوها زهاء مائة ألف دينار وعلى هذا النحو لم يتردد الظاهر خشقدم فى تقديم المساعدة لمسلمى الأندلس من أسلحة وعتاد، كما فعل السلطان جقمق من قبل. ولكن يبدو أن هذه المساعدة لم تحقق الغرض منها، ذلك أن مملكة غرناطة كانت تجتاز آنذاك أحلك فترة من تاريخها فقد احتاجت الفتن وطمتتها طحنا وأصبحت موسرحا للحرب الأهلية بسبب النزاع المسلح الذى نشب فيها بين المستعين بالله سلطان غرناطة وابنه أبى الحسن على ولكن وفاه السلطان الأب وضع حدا للنزاع إنفراد أبو الحسن على بالسلطنة.

لم يتردد خشقدم فى التهديد بالانتقام من الفرنج الموجودين فى دولته لاسيما جماعات الرهبان الفرنسسكان بدير صهيون فى فلسطين وكان أقدم خشقدم على هذا الإجراء وسيلة من وسائل الضغط السياسى ذات الآثار الفعالة التى كثيرا ما كان يلجأ إليها سلاطين المماليك للضغط على مملكة قتشالة وارغون وحملها على الرضوخ لمطالبة والإذعان لمشيئته.

وجدير بالذكر أن مملكة غرناطة ظلت تصمد فى وجه القشتاليين وتتصدى لهجماتهم حتى أنه حين طلبت إيزابيل الكاثوليكية الجزية من أبى

عبد الحق سلطان غرناطة سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م رفض طلبها وتحداها بقوله (أن دار الضرب عند لم تعد تضرب عملات الذهب، وإنما الفولاذ ويشير ابن أباس إلى رسالة تلقاها السلطان الأشرف قايتباى فى شهر ذى القعدة ٨٩٢هـ/ نوفمبر ١٤٨٧م وجهها إليه سلطان غرناطة بطلب منه فيها إرسال تجريده تساعده فى الدفاع عن مملكته.

وقد حاول سفير غرناطة وهو الفقيه الأندلسى ابو على بن محمد بن الأزرق أن يستنهض عزائم السلطان قايتباى لاسترجاع الأندلس وتشير النصوص التاريخية إن صاحب غرناطة الذى بعث بالرسالة إلى قايتباى هو محمد (الثانى عشر) المعروف بالزعن عمه السلطان إلى عبد الله محمد (٨٩٢-٨٩٧هـ/ ١٤٨٧-١٤٩٢م) أخر سلاطين غرناطة قد استقل بشطر من أراضى مملكة غرناطة. وانقذ هذه الرسالة الزغل بعد أن نجح فرناند والكاثوليكى فى الاستيلاء على مالقة فى ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م ففوقعه حرصه على استردادها والحفاظ على البقية الباقية من أملاك المسلمين فى الأندلس وخوفه من النهاية المحتومة إلى الاستنجاد لسلطان مصر. وكان لابد لقايتباى أى يتحرك سريعاً لانقاذ الإسلام فى أسبانيا، ولكن بعد المسافة بين مصر والأندلس والأخصار الخارجية التى كانت تتربص بمصر والشام من قبل العثمانيين دفعه إلى اللجوء إلى الوسائل الدبلوماسية فعهد إلى الراهب الإيطالى أنطونيو ميلان رئيسب دير صهيون بمهمة دبلوماسية لدى كل من فرديناند الأول ملك نابلى، والبابا أنوسنت الثامن والملكية الكاثوليكيين فرنادو الرابع وإيزابيل ملكى قشتالة وأرغون. ولم يكتف بذلك بل هدد باضطهاد الرهبان الفرسسكان وإغلاق كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس والأديرة بفلسطين. وقد قابل مبعوثاه فرديناند الأول بنابلى ثم سافروا إلى روما ومثلا

بين يدى البـاب ثم غـادراها إلى أسـبـانيـا حيث نزلا بمعـسكر الملكيين الكاثوليكين أمام أسـوار مـدينة بسطة فى أواخـر سنة ١٤٨٩/٨٤م وأبلغـاه بتـهـديدات قـايتبـاى مـسلمـا إليـه رسالتى البـابا وفـرديناند الأول ملك نابلى المرسلتين إليـه وإلى زوجتـه.م غيـر أن الملكيين الكاثوليكين لم يكتـرثا لهـذه الواسطات المسيحية والتهديدات الإسلامية، وضربا بكل ذلك عرض الحائط لحماسهما الدينى الشديد وعزمهما الأكيد على استرداد غرناطة المعقل الأخير لدولة الإسلام فى الأندلس التى أوشكا على التهامهما. ولهذه الأسباب واصل الملكان الكاثوليكيـان خطتـهـمـا فى ضم مابقى من مملكة غرناطة والتعجيل بالسيطرة على غرناطة، وقد نجحا فى النهاية فى تحقيق هذا الهدف ولم تلبث غرناطة إن سلمت لهما فى سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٦٢م.

وجدير بالذكر أن إرسال قوات حربية من مصر إلى الأندلس كان من المتعذر تنفيذه فى هذا الوقت بالذات بسبب الحرب المملوكين العثمانية التى بدأت فى سنة ٨٨٨هـ/ ١٨٤٣م واسـتـمـرت حـتى سنة ١٤٩١/٨٩٦م وخوف المماليك من الهزيمة وما يترتب عليهما من ضياع دولتهم أضف إلى ذلك صعوبة إرسال هذه القوات بطريق البحر لحاجة المماليك إلى السفن اللازمة لنقلها من ناحية وتفوق البحرية الأفرنجية وسيطرتها آنذاك على حوض البحر المتوسط وبصفة خاصة على قسمة الغربى.

ثم إن إرسال القوات عن طريق البحر لم يكن بالأمر العملى ولعل هذه الأسبـاب هى التى قصرت مـساعدة الدورة المملوكيـة لمملكة غرناطة على تزويدها بالسلاح والمعتاد والأموال فى عهد كل من جقمق وخشقدم. ويأتى فوق هذا وذاك الضغط الدبلوماسى الذى مارسه قايتباى وخع ذلك فان هذه

الجهود جميعاً لم تفلح في مساندة مملكة غرناطة التي نضب مصبتها ووقفت وحدها في معركة المصير أمام حماس مسيحي لاسقاط الإسلام لايفترو عزيمة قوية متماسكة لاتتزعزع هذا بالإضافة إلى العوامل التي عانت منهما مملكة غرناطة وكانت كالسوس الذى ينخر في كيانها وأدى إلى إنهيار مقاومتها.

وهكذا استمرت العلاقات السياسية بين مملكة غرناطة ومصر المملوكية قائمة طوال عصر دولتي المماليك الأولى والثانية وقد ساندت مصر بقدر إمكانياتها ورغم ظروفها مسلى غرناطة ولم تتقاعس عن تزويدهم بالمال والسلاح والدعاء ولكن قضاء لامحاله نافذ ولا راد لهذا القضاء وكانت مأساة غرناطة درسا في التاريخ وعبره لمن يعتبر.

منشآت الأيوبيين فى مصر

١ ـ قلعة الجبل:

رأى صلاح الدين ضرورة بناء قلعة حصينة بالقاهرة للدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية ولاسيما الخطر الصليبى، إذ أدرك صلاح الدين وهو بالشام ما قامت به القلاع من دور فاصل فى المعارك الحربية فقد تسقط المدينة وتظل قلعتها على المقاومة حيث ييأس المحاصرون لها ويرفعون عنها الحصار. وقد قرر صلاح الدين تشييد قلعته فوق جبل المقطم، وقد وفق فى اختيار مكان القلعة إذا انها بوضعها الحالى المرتفع حققت الإشراف على القاهرة ومصر إشرافا تاماً بحيث كانت حاميتها تستطيع أن تقوم بعمليتين حربيتين فى وقت واحد: هد. إحكام الجبهة الداخلية وقطع دابر من يخرج منها عن طاعة السلطان، و ـاومة ما عساه يقع من محاولات خارجية للاستيلاء على القاهرة.

بدأ صلاح الدين فى تشييد قلعته سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م وجلب لها أحجار البناء من بعض أهرامات الجيزة، وعهد إلى وزيره بهاء الدين قراقوش بالإشراف على أعمال البناء ، فسخر قراقوش فى بنائها ألوفاً من أسرى الفرنج. وفى الضلع الغربى للقلعة يوجد الباب المدرج وفوقه كتابه تاريخية كتبت بعد البدء فى إنشاء القلعة بست سنوات، ولا تزال موجودة حتى اليوم، وهذا نصها: «بسم الله الرحمن، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة، المجاورة لمحروسة القاهرة، التى جمعت نفعا وتحسيناً مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، أبو المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين، على يد أمين

مملكته، ومعين دولته، قراقوش بن عبد الله الملكى الناصرى فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة». ويرى الدكتور عبد الرحمن فهمى أن أهمية هذا النص الذى يحدد تاريخ عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م يثبت أن القلعة أو على الأقل الجزء الكبير منها لم يتم حتى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، إذ المعروف تاريخياً أن صلاح الدين غادر مصر إلى الشام لجهاد الصليبيين سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ولم يعد بعد هذا التاريخ إلى مصر مرة أخرى والغالب أن القلعة كانت فى سنة ٥٧٨هـ عند سفر صلاح الدين من القاهرة قد أوشكت على التمام ولكن صلاح الدين لم يتمكن من أن يتخذها موقع سكناه، فترك لأخيه العادل أبى بكر بإتمامها، وتمكن من إتمام بعض أجزاء القلعة فعلا وسجل تاريخ ذلك منه ٥٧٩هـ/١١٨٣م.

ولم يبق من منشآت صلاح الدين بالقلعة سوى بعض أجزاء السور والأبواب، ذلك لأنه أدخلت عليها كثير من التغييرات والإضافات فى العصور التالية، فقد شيد الملك الكامل محمد قصور القلعة وأبراجها الرئيسية سنة ٦٠٤هـ وأقام بها.

ومن المعالم المعمارية التى ترجع إلى عصر صلاح الدين فى قلعة الجبل «بئر يوسف» التى يقع فى الساحة الجنوبية من القلعة وعمق هذه البئر ٨٩ متراً تقريباً وتنسب الأساطير الشعبية هذه البئر إلى سيدنا يوسف عليه السلام وليس هناك أساس علمى لهذه التسمية. وقد أشرف على حفر هذه البئر فى الصخر بهاء الدين قراقوش لتكون مصدراً للماء فى القلعة وقت الحصار. وتتألف من طابقين، عمق الأول نحو خمسين متراً والآخر نحو أربعين متراً. ولكل طابق منهما ساقية ترفع الماء منها بواسطة الدواب. ويقال أن هذه البئر كانت متصلة بالنيل بواسطة سرداب تنفذ منه مياه النيل إلى القلعة.

٢ ـ قبة الإمام الشافعى:

أنشأ صلاح الدين المدرسة الصلاحية سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م وأنشأ بجوارها ضريحاً للإمام الشافعى، وفى سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م أنشأ التابوت الخشبى الذى يعلو تربة الشافعى، وهو مصنوع من خشب الساج الهندى ومقسم إلى حشوات هندسية منقوشة نقشاً غاية فى الإتقان ومكتوب عليه آيات قرآنية، وترجمة حياة الشافعى، واسم الصانع الذى صنعه، وذلك بالخط الكوفى والنسخى.

وبجوار قبر الشافعى دفنت الأميرة «شمس» زوج صلاح الدين والملك العزيز عثمان ابنه، ووالده الملك الكامل. لذا شيد ولدها الكامل فى جمادى الأولى سنة ٦٠٨هـ/أكتوبر سنة ١٢١١م قبة ضمت قبر الشافعى وبعض أفراد الأسرة الأيوبية. وتمتاز هذه القبة التى ترتفع سبعة وعشرين متراً فوق أرضية الضريح بما فيها من نقوش وزخارف وكانت القبة من طبقتين، طبقة داخلية خشبية، وطبقة خارجية من الرصاص. ويوجد فوق القبة من الخارج فى مكان الهلال مركب صغير من النحاس، يقال أنها تسع من الحب قدر نصف أردب لإطعام الطيور. ثم أنشأ الكامل محمد تابوتاً من الخشب فوق تربة والده، لا يقل دقة عن تابوت الشافعى، ولا تزال هذه القبة الجميلة قائمة إلى اليوم، تعلو قبر الإمام الشافعى المجاور لمسجده بشارع الإمام الشافعى بالقرافة.

٣ ـ ضريح الصالح نجم الدين أيوب:

شيدت شجر الدر هذا الضريح لزوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م بشارع ما بين القصرين بجوار المدرسة الصالحية التى كان الصالح قد أنشأها سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م ويشغل الضريح مربعاً طول كل

ضلع من أضلاعه الداخلية أحد عشر متراً، أقيمت على جدرانه قبة ترتفع فوق أرضية الضريح ٢٢ متراً، ولهذا الضريح محراب كبير مجوف، وقد كسيت مسطحات المحراب بلوحات من الرخام المختلف الألوان والزخرفة.

٤ ـ قبة شجر الدر:

يرى الدكتور أحمد فكرى أن تاريخ بناء هذه القبة غير معروف ولكن يمتد داخلها إزار من نقش كتابى ذكر فيه اسم شجر الدر مصحوباً بلقب «عصمة الدنيا والدين» و«أم الملك المنصور خليل» مما يؤكد أن هذا النص التاريخى نقش فى المدة التى مرت بين موت الملك المعظم تورانشاه فى ١٩ المحرم من سنة ٦٤٨هـ/الثالث من مايو سنة ١٢٥٠م، وبين ارتقاء الملك المعز أيبك عرش السلطنة فى ٢٩ ربيع الثانى سنة ٦٤٨هـ/الحادى والثلاثين من يوليو سنة ١٢٥٠م. مما يؤكد أن بناء القبة قد بدأ وكمل قبل نقش هذا الإزار وبالتالى قبل موت الملك تورانشاه، أى قبل نهاية العصر الأيوبى.

منشآت المماليك فى مصر

أولا ـ فى عصر الظاهر بيبرس

١ ـ المدرسة الظاهرية:

اتخذ الظاهر بيبرس من قلعة الجبل مقراً لحكمه وسار على سنن سياسة من سبقوه من سلاطين مصر فى تجميل القاهرة، فأسس بها مدرسة سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م بجوار تربة سيدة الصالح نجم الدين أيوب، بشارع بين القصرين، وقد تهدمت بسبب فتح شارع بيت القاضى. وقد زودها بالكتب فى سائر العلوم والمعارف، ووقف عليها أوقافاً وأمر بألا يستخدم فى عمارتها عامل بغير أجرة وألا ينقص مرتب من يقوم بتشييدها ولما فرغ من بنائها سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م دعا العلماء والفقهاء والقراء للاجتماع بها، فجلس أتباع المذهب الشافعى بالإيوان القبلى، والحنفية الإيوان البحرى وأهل الحديث بالإيوان الشرقى والقراء بالإيوان الغربى. وعين لكل فريق من هؤلاء مدرساً. وعندما اكتمل جمعهم تناظروا فى شتى المسائل ثم مدت لهم الأسمطة وقام بعض الشعراء فأنشدوا شعراً أشادوا فيه بذكر هذه المدرسة ومؤسسها الملك الظاهر. ولم يكتف بيبرس بإنشاء هذه المدرسة، بل بنى بجوارها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، وقرر لمن فيه الخبز فى كل يوم والكسوة فى فصلى الشتاء والصيف.

٢ ـ جامع الظاهر:

شرع الظاهر بيبرس فى بناء الجامع الظاهرى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، وكان الفراغ منه سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨-١٢٦٩م ولما شرع فى بنائه أرسل

الأتابك فارس الدين أقطاى والصاحب فخر الدين بن حنا ومعهما بعض المهندسين للبحث عن مكان يليق لأن يقام عليه مسجد بجهة الحسينية، فوقع اختيارهم على مناخ الجمال السلطانية (أى المكان المخصص كأصطبلات للجمال السلطانية)، لم يلق هذا الاختيار قبولا لدى الملك الظاهر وقال: «لا والله لا جعلت الجامع مكان الجمال، وأولى ما جعلته ميداني الذى ألعب فيه بالكرة وهو نزهتي». ثم ركب إلى ميدان قراقوش وقر رأيه على أن يبنى الجامع على جزء منه وأن يوقف بقيته عليه، ثم شرع فى استحضار الرخام والأخشاب وأدوات البناء من سائر الولايات.

ولم تقف عناية بيبرس ببناء هذا الجامع عند هذا الحد بل إنه عندما استولى على يافا وهدم قلعتها، شحن مركباً من رخامها وأخشابها إلى القاهرة وأمر بأن يبنى من هذا الخشب مقصورة الجامع الظاهرى. ولما انتهت عمارته سار إليه سنة ٦٦٧هـ، وعين له خطيباً حنفى المذهب، وخلع الخلع على من تولى الأشراف على بنائه.

ويبلغ طول الجامع الظاهرى ١٠٨ متراً، وعرضه ١٠٥ متراً. ويتكون من صحن يحيط به أربعة أواوين: القبلي ويتكون من ستة أروقة. وكل من الإيوانين الشرقى والغربى ويتكون من ثلاثة أروقة. أما الإيوان البحرى فيتكون من رواقين. وجميع عقود الجامع محمولة على أعمدة من رخام، ما عدا عقوده المشرفة على الصحن وعقود الرواق الثالث فمحمولة على أكتاف. وواجهات الجامع الأربع مبنية بالحجر. أما من الداخل فالبناء جميعه بالآجر والقبة الموجودة أعلى المحراب مربعة، طول ضلعها عشرون متراً بنيت على مثال قبة الإمام الشافعى. وهى أكبر من قبة أقيمت فوق المحراب وتمتاز عن غيرها من القباب بأنها محمولة على حجر وليست على دعائم أو أعمدة. وتمتاز

عمارة المسجد الظاهر بميزات لم يسبقه إليها جامع آخر من ذلك الأبراج الأربعة القائمة فوق نواصي الجامع. ثم الدعائم القائمة خارج واجهتيه الشرقية والغربية، والأبواب الثلاثة البارزة، واستعمال مداميك الحجر الأبيض والأحمر على التوالي. كما كان هذا الجامع حافلا من الداخل بالزخارف الجصية والرخام الملون بالوزرات. والبقايا المخلفة من الشبابيك الداخلية والكتابات الكوفية المحيطة بها وبالقبة تدل على ما كان عليه من فخامة وبهاء.

وقد هدّم الفرنسيون، في أثناء احتلالهم مصر، المنارة التى كانت تعلو الباب البحرى، كما هدموا مآذن ومساجد وبنايات أخرى بالقاهرة، وسكنه بعض جنودهم فتخرب كثير من أجزائه. وحوله محمد علي إلى مصنع للصابون. ثم انتهك الإنجليز حرمته فى الحرب العامية الأولى، فأحالوه إلى مذبح ثم استعادته لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩١٨م فرممت بعض أجزائه.

٣ ـ قنطرة السباع:

شيد الظاهر بيبرس قنطرة السباع، ونصبت عليها سباعاً من الحجارة لأن رنكة (شعاره) كان على شكل سبع. ومن هنا جاء تسميتها بهذا الاسم. وكانت موجودة على الخليج المصرى وكانت تعرف أيضاً باسم قنطرة السيدة زينب. ولقد اختفت هذه القناطر بعد ردم الجزء الأوسط من الخليج، تحت ميدان السيدة زينب. وقد كانت هذه القناطر تتكون من قنطرتين: إحداهما توصل بين شارعى الكومى والسد، والثانية بين شارعى الكومى ومراسينا.

كما بنى الظاهر بيبرس قناطر أبى المنجا شمال القاهرة، ولا تزال بقية من عقود قناطر أبى المنجا باقية إلى اليوم كما بنى برجاً بقلعة الجبل، وأصلح ما تهدم من كل من منارتى رشيد والإسكندرية، كما جدد أسوار الإسكندرية.

ثانياً في عصر أسرة قلاوون

١ ـ بيمارستان ومدرسة وقبة قلاوون:

مرض الملك المنصور قلاوون ذات مرة في إحدى غزاوته بالشام، فعولج بأدوية استحضرت من بيمارستان نور الدين بدمشق. فنذر أن ينشىء مارستاناً في مصر كمارستان نور الدين، لعلاج المرضى من جميع الأديان والأجناس. فلما آل إليه عرش مصر وفيّ بنذره، وأنشأ هذا المارستان، وزاد عليه مدرسة وقبة يدفن فيها، وحرص على أن يقيم هذه المنشأة تجاه قبر سيده الملك الصالح نجم الدين أيوب، ومدرسة سلفه الظاهر بيبرس الملاصقة لقبر الصالح. وتنفيذاً لخطته، استولى على قصر الأميرة مؤنسة القطبية الأيوبية، وكان يقع في المكان الذى تخيره لإنشاء البيمارستان عليه، وعوضها عنه بقصر الزمرد، مع مبلغ كبير من المال. وعهد إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعي أن يشرف على بنائه فحشد خلقاً كثيراً من الأسرى والصناع والمماليك، وأنجز بناء هذه المجموعة الضخمة من المباني فيما لا يزيد عن عامين.

يقع هذا البيمارستان في شارع بين القصرين، ولم يبق منه الآن غير جزئين من القاعتين الشرقية والغربية، وجانب كبير من القاعة القبلية. ويشغل مساحة كبيرة منه في الوقت الحالي مستشفى قلاوون للرمد. ويذكر المؤرخون أنه كان مكوناً من جملة أجنحة، يختص كل جناح منها بعلاج مرض من الأمراض، وأنه كانت تشرف عليه هيئة طبية منظمة، كما كانت توجد به غرفة للمطالعة، ومعامل كيميائية، وصيدلية وحمامات ومطبخ بل كانت توجد به جوقة أو فرقة موسيقية تخفف من آلام المرضى بما تعزفه لهم من ألحان. كما كان يوجد خمسون من القراء يرتلون القرآن الكريم. وكان هناك

أمين للمكتبة يساعده أتباعه فى مناولة الكتب الطبية والمدنية وغيرها لمن يرغبون فى المطالعة وفوق هذا كان هناك مكتب لتعليم القراءة والكتابة لعدد من أطفال المسلمين اليتامى.

وينقسم البناء إلى قسمين: قبلى وهو واجهة المدرسة وبحرى وهو واجهة التربة التى تعلوها القبة. وتوجد المئذنة فى نهاية القسم البحرى، وهى مكونة من ثلاثة أدوار: الأسفل والأوسط منها مربعان، والثالث مستدير، وقد جدده الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣-١٣٠٤م عقب زلزال هدم هذا الجزء وبين هذين القسمين يوجد الباب الرئيسى المحلى بالرخام، وضلفتاه مكسوتان بالنحاس، المقسم تقسيماً هندسياً بديعاً، ويؤدى إلى دهليز طويل. وللقبة بابان مفتوحان على الدهليز، يدخل من أولهما إليها مباشرة، ومن الثانى إلى البهو الذى أمامها.

وتكون الواجهة فى مجموعها منظراً من أروع مناظر العمارة الإسلامية بالقاهرة، فحناياها المحمولة على عمد رخامية تحتضن شبابيك ذات أشكال هندسية بديعة، ويحلى الواجهة جميعاً طراز مشحون بآيات قرآنية، وغيرها من الكتابات المثبتة لتاريخ البناء.

ويعلو تربة السلطان قلاوون قبة مخرمة على أربعة أكتاب وهى مربعة الشكل، ذات أشكال مكسوة بالفسيفساء البديعة، ويتوسط هذه الأكتاف أربعة أزواج من الأعمدة الجرانيتية، تيجانها مذهبة، وتحمل ثمانية عقود، والجدران مكسوة بفسيفساء الرخام الدقيقة، وكذلك المحراب تزينه ثلاث حطات من الفسيفساء البديعة، والشبابيك ملونة بألوان براقة جميلة، ويتوسط القبة التربة، وقد دفن بها المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد، وعليها تابوت من الخشب

البديع. وحول المدخل الغربى للقبة زخارف جصية هندسية مورقة، مصنوعة باليد تسترعى كثيراً من الإعجاب.

وأمام القبة وقاعتها توجد المدرسة بمحرابها البديع وبقايا زخارفها الجصية المتقنة.

٢ ـ منشآت الناصر محمد بن قلاوون :

أ ـ مسجد الناصر محمد بالقلعة:

شيد الناصر محمد مسجداً بالقلعة إلى جانب القصر والإيوان، وهو فى الحقيقة لم يشيده تشييداً ولكنه هدم مسجداً صغيراً وبنى مسجداً كبيراً أدخل فيه بعض الأبنية الأخرى المجاورة لكى يجعله واسع الأطراف ويتناسب فى اتساعه وعظمته مع عظمة الدولة على عهده، ومن هنا جاء آية فى الإبداع. وقد خالف فى تخطيطه نظام الأواوين المتعامدة، الذى كان سائداً فى عصر المماليك.، وأقيم على النظام القديم من أربعة أواوين تحيط بالصحن المكشوف وأكبر تلك الأواوين إيوان القبلة، ويوجد أمام محراب هذا المسجد قبة كبيرة حملت على أعمدة ضخمة من الجرانيت الأحمر.

ويحيط بالجامع من أعلاه نوافذ كانت مغطاة من الداخل والخارج بشبابيك من الجص. وكانت الجدران مغطاة بوزره من الرخام إلى ارتفاع خمسة أمتار ونصف، كما كانت أرضه مفروشة بالرخام أيضاً. وله مئذنتان وبابان، أحدهما غربى تجاوره المئذنة الأولى، وهى اسطوانية الشكل، والباب الآخر بالواجهة البحرية وفى نهايتها المئذنة الثانية، وهى مربعة القاعدة. ويغطى القاشانى قبة المئذنة الأولى، كما يغطى الدورة الثالثة للمئذنة الثانية.

وقـد تم بناء الجـامع سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، ثم أعـيـد بنائه سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م وعندما تم بناء المسجد جلس الناصر محمد فيه واستدعى جميع مؤذنى القاهرة ومصر، وجميع القراء والخطباء وعرضوا بين يديه، واستمع إلى أذانهم، وخطابتهم، وقراءتهم فاختار منهم عشرين مؤذنا رتبهم فيه، وقرر فيه درس فقه، وقارئًا فى المصحف وجعل عليه أوقافًا تكفيه وتفيض عن حاجته.

ب ـ مدرسة الناصر محمد بشارع بين القصرين:

شيد الناصر محمد مدرسة ملاصقة لقبة السلطان قلاوون وبدأ فى إنشائها السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى فوضع أساسها، وارتفع ببنائها إلى الطراز المكتوب بواجهتها وذلك فى سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م، ثم خلع من الملك قب اتمامها، فلما عاد السلطان الناصر محمد إلى ملك مصر للمرة الثانية، اشترى هذه المدرسة وبنى بها قبة فكملت فى سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وعين بها المدرسين للمذاهب الأربعة، والحق بها مكتبة كبيرة ثم نقل إلى القبة رفات والدته. كما دفن بها ابنه أنوك المتوفى فى ١٧ ربيع الأول سنة ٧٤١هـ/١٣١٤م، ولم يبق منها سوى الإيوان الشرقى، وبه محراب جصى نادر المثال، والإيوان الغربى وبه شباك من الجص غاية فى الدقة.

ولهذه المدرسة واجهة جميلة، حافلة بالزخارف والكتابات الكثيرة. وتوجد المنارة فوق الباب، وهى موشاة بالزخارف الجصية الدقيقة، ويوجد بداخل القبة طراز من الخشب المنقوش يحيط بجدرانها، وبين القبة والمسجد طرقة بها سقف من الخشب مزين بالزخارف والألوان المذهبة.

٣ ـ منشآت السلطان حسن بن الناصر بن قلاوون:

أ ـ مسجد أو مدرسة السلطان حسن:

يقع هذا المسجد بميدان صلاح الدين، تجاه القلعة، في الجهة الغربية البحرية منها، انشأه السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، وقد بدأ في إنشائه سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م واستمر العمل به لحين وفاته في جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ/١٣٦١م.

وتبلغ مساحة هذا المسجد ٧٩٠٦م، وطوله ١٥٠م وعرضه ٦٨م، وارتفاعه عند بابه ٣٧,٧٠م، وواجهته البحرية، وهي الواجهة الأصلية، مشرفة على شارع القلعة وواجهتاه الجنوبية والشرقية مشرفتان على ميدان صلاح الدين.

وتخطيط هذا المسجد متفق مع الطراز المملوكي، ذي أربعة الأواوين المتعامدة التي يتوسطها الصحن فتكون معه ما يشبه الصليب، فهو مكون من صحن مكشوف مساحته ٣٢ × ٢٤,٦٠ متراً مربعاً، تتوسطه ميضأة، تعلوها قبة، محمولة على ثمانية أعمدة من الرخام، ويقطع الصحن محوران متعامدان، في نهاية كل منهما إيوان وفي كل زاوية من زوايا الأواوين الأربعة، بل يوصل إلى إحدى المدارس الأربع المخصصة لدراسة المذاهب الإسلامية الأربعة وهي الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي، وأكبر هذه المدارس هي مدرسة الحنفية إذ تبلغ مساحتها ٨٩٨ متراً مربعاً.

وأكبر الأواوين الإيوان الشرقي، وجدرانه مكسوة بالرخام والأحجار الفاخرة الملونة يحيط به إطار جصي مكتوب به آيات من سورة الفتح، بالخط

الكوفى المزهر، وسقفه معقود عقداً ستينياً، ومبنى بالآجر، ما عدا مبدأه من جهة الصحن، فإنه بالحجر وهو أكبر عقد مبنى على إيوان بمصر، ويقال أنه أكبر من إيوان كسرى الذى هو بالمدائن فى العراق. وفى هذا الإيوان دكة من الرخام، وفى وسط واجهته الشرقية المحراب المجوف، وتزينه قطع من النقوش الذهبية والرخام المطعم وعلى يمينه محراب من الرخام الأبيض، وبابه من الخشب المصفح بالنحاس فى زخارف من أشكال متعددة الأضلاع، مرتبة فى أوضاع نجمية، وعلى جانبى القبلة بابان يوصلان إلى تربة السلطان وتعلوها قبة عظيمة، وجميع جدرانها مكسوة بالرخام الفاخر الملون بارتفاع ثمانية أمتار، وفق ذلك شريط من خشب عرضه ثلاثة أمتار، محلى بكتابة بالخط النسخ مؤرخه بسنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢-١٣٦٣م، والمقرنصات التى فى زوايا القبة الأربع تعتبر من أجمل وأغرب ما صنع من نوعها. ومعلوم أن السلطان لم يدفن فيها، لأنه قتل ولم يعثر لجثته على أثر.

والمدخل مكون من ثلاثة أواوين، ويوجد على يسارها إلى الجهة الشرقية طريق مستطيل، يصعد إليه بسلم ذى سبع درجات، ثم ينثنى فيه الداخل إلى الجهة الشرقية القبلية، فيصل إلى صحن المسجد، وبالواجهة القبلية الشرقية توجد المئذنتان العظيمتان ويبلغ ارتفاع الكبرى منها ٨١,٦٠م.

ويعتبر هذا المسجد أضخم مساجد مصر عمارة، وأعلاها بنياناً، وأكثرها فخامة وأحسنها شكلاً وأجمعها لمحاسن العمارة وأدلها على عظيم الهمة.

الملاحـــــــق

سجل بقلم القاضى الفاضل صادر عن الخليفة العاضد بتولية أسد الدين شيركوه الوزارة بعد قتل شاور

عن (القلقشندى : صبح الأعشى، جـ١٠، ص ٨٠-٩٠)
و(الحنبلى: مخطوطة شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب: ص ٨أ-١٠أ)

وكتب القاضى الفاضل عن أسد الدين شيركوه بالوزارة عن العاضد الفاطمى، والوزارة يومئذ قائمة مقام السلطنة، وهذه نسخته :

«من عبد الله ووليه، عبد الله أبى محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين : إلى السيد، الأجل، الملك، المنصور، سلطان الجيوش، ولى الأمة، فخر الدولة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين، أبى الحارث شيركوه العاضدى، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته وأعلى كلمته.

سلام عليك: فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلى على سيدنا محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين ﷺ، وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فالحمد لله القاهر فوق عباده، الظاهر على من جاهر بعناده، القادر الذى يعجز الخلق عن دفع ما أودع ضمائر الغيوب من مراده، القوى على تقريب ما عزبت الهمم باستبعاده، الملى بحسن الجزاء لمن جاهد فى الله حق جهاده، مؤتى الملك من يشاء بما أسلفه من ذخائر رشاده، ونازعه ممن يشاء بما اقترفه من كبائر فساده، منجد أمير المؤمنين بمن أمضى فى نصرته العزائم، واستقبله الأعداء بوجوه الندم وظهور الهزائم، وفعلت له المهابة ما لا

تصنع الهمم، وخلعت آثاره على الدنيا ما تخلعه الأنوار على الظلم، وعدمت نظراؤه بما وجد من محاسنه التى فاق بها ملوك العرب والعجم، وانتقم الله به ممن ظلم نفسه وإن ظن الناس أنه ظلم، وذاد عن موارد أمير المؤمنين من هو (منه) أولى بها ويأبى الله سبحانه وتعالى إلا أمضاء ما حتم، ورام إخفاء فضائله وهل يشتهر طيب المسك إلا إذا اكتتم، مؤيد أمير المؤمنين بإمام أقر الله به عينهم، وقضى على يده من نصرة الدين دينهم: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

والحمد لله الذى خصَّ جدنا محمداً بشرف الاصطفاء والاجتباء، وأنهضه من الرسالة بأثقل الأعباء، وذخر له من شرف المقام المحمود أشرف الأنصباء، وأقام به القسطاس، وطهر به من الأدناس، وأيده بالصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، وألبس شريعته من مكارم الأفعال والأقوال أحسن لباس، وجعل النور سارياً منه فى عقبه لا ينقصه كثرة الاقتباس ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾.

والحمد لله الذى اختار أمير المؤمنين لأن يقوم فى أمته مقامه، وهدى بمراشد نوره إلى طرق دار المقامة، وأوضح به منار الحق وأعلامه، وجعله شهيد عصره، وحجة أمره، وباب رزقه، وسبيل حقه، وشفيع أوليائه، والمستجار من الخطوب بلوائه، والمضمونة لذويه العقبى، والمسئول له الأجر فى القربى، والمفترض الطاعة على كل مكلف، والغاية التى لا يقصر عنها بولائه إلا من تأخر فى مضمار النجاة وتخلف، والمشفوع الذكر بالصلاة والتسليم، والهادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، لا يقبل عمل إلا بخفارة ولائه، ولا يضل من استضاء بأنجم هدايته اللامعة، ولا دين إلا به ولا دينا إلا معه، ليتضح النهج القاصد، ولتقوم الحجة على الجاحد، وليكون لشيعته إلى الجنة نعم الشافع

والرائد، وليأتي الله به بنيان الأعداء من القواعد، وليبين لهم الذى اختلفوا فيه وليعملوا إنما هو إله واحد.

يحمده أمير المؤمنين على ما حباه من التأييد الذى ظهر فبهر، وانتشر فعم نفعه البشر، والإظهار الذى اشترك فيه جنود السماء والأرض، والإظفار الذى عقد الله منه عقداً لا تدخل عليه أحكام النقض، والانتصار الذى أبان الله به معنى قوله : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾.

ويسأله أن يصلى على سيدنا محمد الأمين، المبعوث رسولا فى الأميين، الهادى إلى دار الخلود، المستقل بيانه استقلال عواثر الجدود، والمعدود أفضل نعمة على أهل الوجود، والصافية بشريعته مشارع النعمة، والواضحة به الحنيفية البيضاء لئلا يكون أمر الخلق عليهم غمة، وعلى أبينا أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ناصر شريعته وقسيمه فى النسب والسبب، ويد الحق التى حكم لها فى كل طلب بالغلب، وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحكم، ومصابيح الظلم، ومفاتيح النعم، والمخفقين من باهاهم وفاخر، والباذلين جهدهم فى جهاد من اتخذ مع الله إلهاً آخر، وسلم وردد، ووالى وجدد.

وإن أمير المؤمنين لما فرضه الله تعالى إليه من إيالة الخليقة، ومنحه من كرم السجية وكرم الخليقة، وبسطه من يده على أهل الخلاف، وأنجزه من موعده الذى ليس له إخلال ولا إخلاف، وأوضحه من براهين إمامته للبصائر، وحفظ به على الإسلام من طليعة المبادئ وساقه المصاير، وأورثه من المقام الذى لا ينبغى إلا له فى عصره، واستخدم فيه السيوف والصروف من تأدية فرائض نصره، وأظهر له من المعجزات التى لا يخلو منها زمن، وظاهر له من

الكرامات، التى زادت على أمنية كل متن، وأتمنه عليه من أسرار النبوة التى رآه الله تعالى لها أشرف مودع وعليها أكرم مؤتمن، وأجرى عليه دولته من تذليل الصعاب سيل الطلاب، وتقليل أحزاب الشرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جده ـ ﷺ ـ أهل الأحزاب، يواصل شكر هذه النعم التوام، ويعرف بعوارفها الفرادى والتؤام، ويقدم بين يدى كل عمل رغبة إليه فى إيضاح المراشد، ونية لا تضل عنها الهداية ولاسيما وهو الناشد، ويستخيره عالماً أنه يقدم إليه أسباب الخير، ويناجيه فيطلعه الإلهام على ما يجلى السير ويجلى الغير، ويأخذ بيد الله حقه إذا اغتصبت حقوقه، ويستنجد بالله إذا استبيح خلافه واستجيز عقوقه، ويفزع إلى الله تعالى إذا ع الضائر، ويثق بوعد الله تعالى إذا استهلكت الشبه البصائر، فما اعترض ليل كربة إلا انصدع له عن فجر وضاح، ولا انتقض عقد غادر إلا عاجله الله سبحانه بأمر فضاح، ولا انقطعت سبل نصرة إلا وصلها الله تعالى بمن يرسله ولا انصدعت عصا ألفه إلا تدارك الله تعالى بمن يجرده تجريد الصفاح.

وإذا عدّد أمير المؤمنين هذه النعم الجسيمة، والمنح الكريمة، واللطائف العظيمة، والعوارف العميمة، والآيات المعلومة، والكفايات المحتومة، والعادات المنظومة، كنت أيها السيد الأجل ـ أدام الله قدرتك، وأعلى كلمتك ـ أعظم نعم الله تعالى أثراً، وأعلاها خطراً، وأقضاها للأمة وطراً، وأحقها بأن تسمى نعمة، وأجدرها بأن تعد رحمة، وأسماها أن تكشف غمة، وأنضاها في سبيل الله سبحانه عزمه، وأمضاها على الأعداء حداً، وأيداها فى الجهاد جداً، وأعداها على الأعدآء يداً، وأحسنها فعلا لليوم وأرجاها غداً، وأفرجها للازمة وقد كادت الأمة تصير سدى، وأحق الأولياء بأن يدعى للأولياء سيداً، وأبقاهم فعلة لا ينصرم فعلها الذى بدا أبداً.

فليهنئك أنك حزب الله الغالب وشهاب الدين الثاقب، وسيف الله القاضب، وظل أمير المؤمنين الممدود، ومورد نعمته المورود، والمقدم في نفسه وما نؤخره إلا لأجلٍ معدود، نصرته حين تناصر أهل الضلال، وهاجرت إليه هاجراً برد الزلال وبرد الظلال، وخضت بحار الأهوال، وفي يدك أمواج البر... ال، وها في جيدك اليوم عقد جواهر منه ونظم لآل، بل قد بلثت السماء وزينت منك بنجوم نهار لا نجوم ليل، وكشفت الغماء وهي مطبقة، ورفعت نواظر أهل الأيمان، وهي مطرقة، وعقصت أعنة الطغيان وهي مطلقة، وأعدت بحنكتك على الدولة العلوية بهجة شبابها المونقة، وأنقذت الإسلام وهو على شفى جرف هار، ونفذت حين لا تنفذ السهام عن الأوتار، وسمعت دعوته على بعد الدار، وأبصرت حق الله ببصيرتك وكم من أناس لا يرونه بأبصار، وأجليت طاغية الكفر وسواك اجتذبه، وصدقت الله سبحانه حين داهنه من لا بصيرة له له وكذبه، وأقدمت على الصليب وجمراته متوقدة، وقاتلت أولياء الشيطان وغمراته متمردة.

وما يومك في نصرة الدولة بواحد، ولا أمسك مجحود، وأن رغم أنف الجاحد، بل أوجبت الحق بهجرة بعد هجرة، وأجبت دعوة الدين قائماً بها في غمرة بعد غمرة، وافترعت صهوة هذا المحل الذى رقاك إليه أمير المؤمنين باستحقاقك، وأمات الله العاجزين بما في صدورهم من حسرات لحقاك، وكنت البعيد القريب نصحه، المحجوب النافذ بحجته المذعورة أعداء أمير المؤمنين وأمير المؤمنين قد ارتضاك، ولا أن منعك المعاند حقك وقد قضى لك واقتضاك، وما كان في محاجزتك عن حظك من خدمة أمير المؤمننين الذى أنت به منه أولى، ومدافعتك عن حقك في قرب مقامه الذى لا يستطيع طولا، إلا مغالبة الله فيك، والله غالبٌ على أمره، ومبادعتك وقد قربك الله في سر أمير المؤمنين، وإن بعدت من جهره.

استشرفتك الصدور، وتطلعت إليك عيون الجمهور، واستوجبت عقيلة النعم بما قدمت من المهور ونصرت الأيمان بأهله، وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين كله، وناهضت الكفرة بالباع الأشد، والرأى الأسد، ونادتهم سيوفك ـ ولا قرار على زأر من الأسد + وأدال الله بك من قدم على ما قدم، وندم فما أغنى عنه الندم، حين لج فى جهالته، وتمادى فى ضلالاته، واستمر على استطالته، وتوالت منه عثرات ما أتبعها باستقالته، فكم اجتاح للدولة رجالا، وضيق من أرزاقهم مجالا، وسلب من خزائنها ذخائر وأسلحة وأموالاً، ونقلها من أيدى أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى، واتسعت هفواته من التعديد وما العهد منها ببعيد.

وقد نسخ الله تعالى بك حوادثها فوجب أن تنسخ أحاديثها، وأتى الأئمة منك بمن هو وليها، والأمة بمن هو مغيثها، ودعاك أمام عصرك بقلبه ولسانه وخطه ـ على بعد الدار ـ وتحقق أنك تتصرف معه حيث تصرف وتدور معه حيث دار، واختارك على ثقة من أن الله تعالى يحمده فيك عواقب الاختيار، ورأى لك أقدامك ورقاب اشرك صاغرة، وقدومك وأفواه المخاوف فاغرة، وكرتك فى طاعتك وأبى الله تعالى أن تكون خاسرة، وسطاً بك حين تمالى بك المشركون، وتمثل لرسلهم بقوله سبحانه: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وأنفت عزته هجنة الهدنة، وقال لأوليائه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾. وازدرى بخنازيرهم انتظاراً لوصولك بأسود الإسلام، وصبر على علم أنك تلبى نداءه بألسنة الأعلام قبل ألسنة الأقلام، فكنت حيث رجا وأفضل، ووجدت بحيث رعى وأعجل، وقدمت فكتب اتلله لك العلو، وكبت بك العدو، وجمع على التوفيق لك طرفى الرواح والغدوة، ولم يلبس الكافر لسهامك جنة إلا الفرار وكان ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

فلله درك حين قاتلك بخبرك قبل عسكرك، ونصرت بأثيرك قبل عشيرك، وأكرم بك من قادم خطواته مبرورة، وسطواته للأعداء مبيرة، وكل يوم من أيامه بعد سيره، وأنك لمبعوث إلى بلاد أمير المؤمنين بعث السحاب المسخر، ومقدم في النية وإن كنت في الزمان المؤخر، وطالع بفئة الإسلام غير بعيد أن يفيء الله عليها بلاد الكفار، ورجال جهاد عددناهم عندنا من المصطفى الأخيار، وأبناء جلاد يشترون الجنة بعزائم كالنار، وغرر نصر سكون العدو بعدها غرور ونومه غرار.

ولما جرى من جرى ذكره على عادته في ايحاشك والإيحاش منك بكواذب الظنون، ورام رجعتك عن الحضرة وقد قرت بك الدار وقرت بك العيون، وكان كما قال الله تعالى في كتابه المكنون : ﴿ لَقَدْ ابتَغَوْا الفِتْنَةَ مِنْ قَبلِ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمورَ حتَّى جاءَ الحقُّ وظهرَ أمر اللهِ وَهُمْ كارِهُون﴾، هالك غضبت نفوس الإسلام ففتكت به أيديها، وكشفت له عن غطاء العواقب التي كانت منه ميادبها، وأخذه من أخذه أليم شديد، وعدل فيه من قال ﴿وما ربُّكَ بظَلاَّمٍ للْعَبِيدِ﴾، ﴿إنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وهو شهيد﴾.

ولما نشرت لواء الإسلام وطواه، وعضدت الحق وأضعف قواه، وجنيت عقبى ما نويت وجني عقبى ما نواه، وأبيت إلا امضاء العزم في الشرك وما أمضاه، ﴿أفرأيتَ مَنْ اتخذ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ﴾، ودفعت الخطب الأشق، وطلعت أنوار النصر مشرقة بك وهل تطلع الأنوار إلا من الشرق؟ وقال لسان الحق ﴿فأيُّ الفريقين أحقُّ﴾، قضى الله تعال بأمير المؤمنين عدة قدمها ثم قضاها، وولاه كما ولى جده ـ ﷺ ـ قبلة يرضاها، وانتصر له بك انتصاره لأهل البيت بسلمانة وعمارة، وانطلق أمير المؤمنين باصطفائك اليوم وبالأمس كنت عقد اضماره.

وقلدك أمير المؤمنين أمر وزرائه، وتدبير مملكته وحياطة ما وراء سرير خلافته، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة إمامته، وكفالة قضاة المسلمين، وهداية دعاة المؤمنين وتدبير ما عدقه الله بأمير المؤمنين من أمور أوليائه أجمعين، وجنوده وعساكره المؤيدين المقيمين منهم والقادمين، وكافة رعايا الحضرة بعيدها ودانيها، وسائر أعمال الدول باديها وخافيها، وما يفتحه الله تعالى على ديك من البلاد، وما تستعيده من حقوقه التى اغتصبها الأضداد، وألقى إليك المقاليد بهذا التقليد، وقرّب عليك كل غرض بعيد، وناط بك العقد والحل، والولاية والعزل، والمنع والبذل، والرفع والخفض، والبسط والقبض، والإبرام والنقض، والتنبيه والغض، والإنعام والانتقام، وما توجب السياسة امضاءه من الأحكام، تقليداً لا يزال به عقد فخرك نظيماً، وفضل الله عليك وفيك عظيماً ﴿ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى باللهِ عَلِيماً﴾.

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين من هذه الرتبة التى تتأخر دونها الأقدام، والغاية التى لا غاية بعدها إلا ما يمليك الله به من الدوام، فلقد تناولتها بيد فى الطاعة غير قصيرة، ومساع فى خدمة أمير المؤمنين أيامها على الكافرين غير يسيره، وبذلت لها ما مهد سبلها، وصلتها بما وصل بك حبلها، وجمعت من أدواتها ما جمع لك شملها، وقال لك لسان الحق ﴿وكانوا أحقَّ بِها وأهْلَها﴾.

وتقوى الله سبحانه : فهى وإن كانت لك عادة، وسبيل لا حب إلى السعادة، فإنها أولى الوصايا بأن تتيمن باستفتاحها، وأحق القضايا بأن تبتدئ الأمور بصلاحها، فاجعل تقوى الله أمامك، وعامل بها ربّك وإمامك، واستنجح بها عواقبك ومباديك، وقاتل بها أضدادك وأعاديك، قال الله سبحانه فى كتابه المكنون :﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نفسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بِمَا تَعْمَلُون﴾.

والعساكر المنصورة : فهم الذين غذوا بولاء أمير المؤمنين ونعمه، وربوا في حجور فضله وكرمه، واجتاحهم من لم يحسن لهم النظر، واستباحهم بأيدى من أضر لما أصر، وطالما شهدوا المواقف ففرجوها، واصطلوا المخاوف وتولجوها، وقارعوا الكفار مسارعين للأعنة، مقدمين مع الأسنة، مجرين إلى غايتين : إما إلى بالنصر وإما إلى الجنة، وديروا الولايات فسددوا، وتقلدوا فيما تقلدوا.

واعتمد أحمرهم وأسودهم، وأقربهم وأبعدهم، وفارسهم وراجعلهم، ورامحهم ونابلهم بتوفير الإقطاع وإدرار النفقات، وتصفية موارد العيش المونقات.

وأحسن لهم السياسة التي تجعل أيديهم على الطاعة منفقة، وعزائمهم في مناضلة أعداء الله مستبقة، وأجرهم على العادات في تقليد الولايات، واستكفهم لما هم أهله من مهمات التصرفات، وميز أكابرهم تمييز الناظر بالحقائق، واستنهضهم في الجهاد فهذا المضمار وأنت السابق، وقم في الله تعالى أنت ومن معك فقد رفعت الموانع والعوائق، ليقذف الله بالحق الذي نصرته على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. والشرع الشريف: فأنت كافل قضاته، وهادى دعاته، وهو منار الله تعالى الأرفع، ويده التي تمنع الظلم وتدفع، فقم في حفظ نظامه، وتنفيذ أحكامه وإقامة حدوده، وإمضاء عقوده، وتشييد أساس العدوة وبنائها، وتمييز آخذى عهودها وأبنائها، قيا من يعول في الأمانة على أهل الديانة، ويتمسك بحقوق الله تعالى الحقيقية بالرعاية والصيانة.

والأموال: فهي سلاح العظائم، ومواد العزائم، وعتاد المكارم، وعماد

المحارب والمسالم، وأمير المؤمنين يؤمل أن تعود بنظرك عهود النضارة، وأن يكون عدلك في البلاد وكيل العمارة.

والرعايا : فقد علمت ما ناله من إجحاف الجبايات، وإسراف الجنايات، وتوالى عليهم من ضروب النكايات، فاعمر أوطانهم التي أخربها الجور والأذى، وأنف عن مواردهم الكدر والقذاى، وأحسن حفظ وديعة الله تعالى منهم، وخفف الوطأة ما استطعت عنهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمناً، وكفّ من يعترضهم في عرض هذا الأدنى.

والجهاد: فهو سلطان الله تعالى على أهل العناد، وسطوة الله تعالى التي يمضيها في شر العباد على يد خير العباد، ولك من الغناء فيه مصراً وشاماً، وثبات الجأش كراً وإقداماً، والمصاف التي ضربت فكنت ضارب كماتها، والمواقف التي اشتدت فكنت فارج هبواتها، والتدريب التي ألق جدك، والتجريب الذي أورى زندك، ما يغني عن تجديد الوصايا البسيطة، وتأكيد القضايا المحيطة، ومازلت تأخذ من الكفار باليمين، وتعظم فتوحك في بلادك الشمال فكيف تكون في بلاد اليمن، فاطلب أعداء الله براً وبحراً واجلب عليهم سهلا ووعراً وقسم بينهم الفتكات قتلا وأسراً، وغارة وحصراً، قال الله تعالى في كتابه المكنون : ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فيكُم غِلْظَةً واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِين﴾.

وتوفيق الله تعالى يفتح لك أبواب التدبير، وخبرتك تدلك على مراشد الأمر، ﴿ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، فأنت تبتدع من المحاسن ما لا تحيط به الوصايا، وتخترع من الميامن ما يتعرف بركاته الأولياء والرعايا.

والله سبحانه وتعالى يحقق لأمير المؤمنين فيك أفضل المخابل، ويفتح على

يديك مستغلق البلاد والمعاقل، ويصيب بسهامك من الأعداء النحور والمقاتل، ويأخذ للإسلام بك ما له عند الشرك من الثارات والطوائل، ولا يضيع لك عملك في خدمة أمير المؤمنين إنّه لا يضيع عملَ عاملٍ، ويجرى الأرزاق والآجال بين سيبك الفاضل وحكم الفاضل.

فاعلم هذا من أمير المؤمنين ورسمه، واعمل بموجبه وحكمه، إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

توقيع بخط الخليفة العاضد لدين الله الفاطمى
على طرة التقليد السابق بتولية أسد الدين شيركوه الوزارة
عن : (القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٩، ص ٤٠٦-٤٠٧).

هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقليد أمانة رآك الله تعالى يوأمير المؤمنين أهلا لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى ينبّوة النبوة، واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلا.

﴿ولا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بعدِ توكيدها وقد جعلتم اللهَ عليكُم كَفِيلا﴾.

سجل بقلم القاضى الفاضل صادر عن الخليفة العاضد بتولية صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة بعد موت عمه أسد الدين شيركوه

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى، ج١ ، ص ٩١-٩٨)

و(أبو سلمة : الروضتين، جـ١ ، ص ٩٦١)

من عبد الله ووليه، عبد الله أبى محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل (على نحو ما تقدم فى تقليد عمه أسد الدين شيركوه) .

أما بعد، فالحمد لله مصرف الأقدار، ومشرف الأقدار، ومحصى الأعمال والأعمار، ومبتلى الأخيار والأبرار، وعالم سر الليل وجهر النهار، وجاعل دولة أمير المؤمنين فلكاً تتعاقب فيه أحوال الأقمار: بين انقضاء سرار واستقبال أبدار، وروضاً إذا هوت فيه الدوحات أينعت الفروع سابقة النور، باسقة الثمار، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها، والجواهر المستخرجة من أمضى نصولها، والقائم بنصرة دولته فلا تزال حتى يرث اللهُ الأرض ومَنْ عليها قائمة على أصولها.

والحمد لله الذى اختار لأمير المؤمنين ودلّه على مكان الاختيار، وأغناه باقتضاب الإلهام عن رؤية الاختيار، وعضد به الدين الذى ارتضاه وعضده بمن ارتضاه، وأنجز له من وعد السعد ما قضاه قبل أن اقتضاه، ورفع محله عن الخلق فكلهم من مضاف إليه غير مضاه، وجعل مملكته عريناً لاعتزازها بالأسد وشبله، ونعمته ميراثاً أولى بها ذوى الأرجام من بنى الولاء وأهله، وأظهر فى هده القضية ما أظهره فى كل القضايا من فضل أمير الومين وعدّ له، فأولياؤه كالآيات التى تتسق درارى أفضها المنير، وتنتسق درر عقدها

النظيم النضير: ﴿ما ننسخْ مِنْ آيةٍ أو نُنْسِهَا نأتِ بخيرٍ منْهَا أو مِثْلَها ألَمْ تعلمْ أنّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٍ﴾.

والحمد لله الذى أتم بأمير المؤمنين نعمة الإرشاد، وجعله أولى من للخلق ساد، وللحق شاد، وآثره بالمقام الذى لا ينبغى إلا له فى عصره، وأظهر له من معجزات نصره ما لا يستقل العدد بحصره، وجمع لمن والاه بين رفع قدره ووضع أصره، وجعل الإمامة محفوظة فى عقبه والمعقبات تحفظه بأمره، وأودعه الحكم التى رآه لها أحوط من أودعه، واطلع من أنوار وجهه الفجر الذى جهل من ظن غير نوره مطلعه، وآتاه ما لم يؤت أحداً، وأمات به غياً وأحيا رشداً، وأقامه للديه عاضداً فأصبح به معتضداً، وحفظ به مقام جده وأن رغم المستكبرون، وأنعم به على أمته أماناً لولاه ما كانوا ينظرون ولا يبصرون، و﴿ما كان الله ليُعَذِّبهم وأنتَ فِيهم ومَا كَانَ اللهُ ليُعَذِّبهم وهم يستغفرون﴾.

يحمده أمير المؤمنين على ما آتاه من توفيق يذلل له الصعب الجامح، ويدنى منه البعيد النازح، ويخلف على الدين من صلاح الخلف الصالح، ويلزم آراءه جدد السعود، ويريه آيات الإرشاد فإنه نازح، قدح القادح.

ويسأل أن يصلى على جده محمد الذى أنجى أهل الأيمان ببعثه، وطهر بهديه من رجس الكفر وخبثه، وأجاز باتباعه من عنت الشيطان وعبثه، وأوضح جادة التوحيد لكل مشرك الاعتقاد مثلثه.

وعلى أبينا أمير المؤمنين علي بن أبى طالب الذى جادلت يده بلسان ذى الفقار، وقسم ولاؤه وعداوته بين الأتقياء والأشقياء الجنة والنار، وعلى الأئمة من ذريتهما الذين أذل الله بعزتهم أهل الإلحاد وأصفى بما سفكوه من دمائهم موارد الرشاد، وجرت أيديهم وألسنتهم بأقوات القلوب وأرزاق

العباد، وسلم ومجد، ووالى وجدد، وأن الله سبحانه ما أخلى قط دولة أمير المؤمنين التى هى مهبط الهدى، ومحط الندى، ومورد الحياة للولى والردى للعدا، من لطف يتلاقى الحادثة ويشعبها ويرأبها، ونعمة تبلغ بها النفوس أربها، وموهبة تشد موضع الكلم، وتسد موضع الثلم، وتجلى غمائم الغمم، وتحل مغانم النعم، وتستوفى شرائط المناجح، وتستدنى فوارط المصالح، ولم يكن ينسى الحادثة فى السيد الأجل المصلك المنصور ـ رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه ـ التى كادت لها أواخى الملك تتزعزع، ومبانى التدبير تتضعضع، إلا ما نظر فيه أمير المؤمنين بنور الله من اصطفائك أيها السيد الأجل الملك الناصر ـ أدام الله قدرتك ـ لأ تقوم بخدمته، بعده، وتسد فى تقدمة جيوشه مسده، وتقفوا فى ولائه أثره، ولا تفقد منه إلا أثره، فوازت الفادحة فيه النعمة فيك، حتى تستوفى حظه من أمير المؤمنين بأجر لا يضيع الله فيه عمله، فاستوجب مقعد صدق بما اعتقده من تأدية الأمانة له وحمله، واستحق أن ينضر الله وجهه بما أخلقه الله من جسمه فى مواقف الجهاد وبدله، ومضى فى ذمام رضا أمير المؤمنين، وهو الذمام الذى لا يقطع الله منه ما أمره أن يصله، واتبع من دعائم بتحف أول ما تلقاه بالروح والريحان، وذخرت له من شفاعته ما عليه معول أهل الأيمان فى الأمان، فرعى الله له قطعه البيداء إلى أمير المؤمنين وتجشمه الأسفار، ووطأة المواطئ التى تغيظ الكفار، وطلوعه على أبواب أمير المؤمنين طلوع أنوار النهار، وهجرته التى جمعت له أجرين : أجر المهاجرين وأجر الأنصار، وشكر له ذلك المسعى الذى بلغ من الشرك الثار، وبلغ الإسلام الإيثار، وما لقى ربّه حتى تعرض للشهادة بين مختلف الصفاح، ومشتجر الرماح، ومفترق الأجسام من الأرواح، وكانت مشاهدته لأمير المؤمنين أجراً فوق الشهادة، ومنّة لله تعالى عليه بها ما للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، وحتى رآك أيها السيد الأجل الملك

الناصر ـ أدام الله قدرتك ـ قد أقررت ناظره، وأرغمت مناظره، وشددت سلطانه، وسددت مكانه، ورمى بك فأصاب، وسقى بك فصاب، وجمعت ما فيه من أبهة الشميب إلى ما فيك من مضاء الشباب، ولقنت ما أفادته التجارب جملة، وأعانتك المحاسن التى هى فيك جلة، وقلب عليك إسناد الفتكات فتقلبت أهل الأيمان فى الأمان، فرعى الله له قطعه البيداء إلى أمير المؤمنين وتجشمه الأسفار، ووطأة المواطئ التى تغيظ الكفار، وطلوعه على أبواب أمير المؤنين طلوع أنوار النهار، وهجرته التى جمعت له أجرين : أجر المهاجرين وأجر الأنصار، وشكر له ذلك المسعى الذى بلغ من الشرك الثار، وبلغ الإسلام الإيثار، وما لقى ربه حتى تعرض للشهادة بين مختلف الصفاح، ومشتجر الرماح، ومفترق الأجسام من الأرواح، وكانت مشاهدته لأمير المؤمنين أجراً فوق الشهادة، ومنه لله تعالى عليه له بها ما للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، وحتى رآك أيه السيد الأجل الملك الناصر ـ أدام الله قدرتك ـ قد أقررت ناظره، وأرغمت مناظره، وشددت سلطانه، وسددت مكانه، ورمى بك فأصاب، وسقى بك فصاب، وجمعت ما فيه من أبهة المشيب إلى ما فيك من مضاء الشباب، ولقنت ما أفادته التجارب جملة، وأعأنتك المحاسن التى هى فيك جلة، وقلب عليك إسناد الفتكات فتقلبت، وأوضح لك منهاج البركات فتقلبت، وسددك سهماً، وجردك شهماً، وانتضاك فارتضاك غرباً، وآثرك على آثر ولده إمامة فى التدبير وحرباً، وكنت فى السلم لسانه الآخذ بمجامع القلوب، وفى الحرب سنانه النافذ فى مضايق الخطوب، وساقته إذا طلب، وطليعته إذا طلب، وقلب جيشه إذا ثبت، وجناحه إذا وثب، ولا عذر لشبل نشأ فى حجر أسد، ولا لهلال استملى النور من شمس واستمد.

هذا، ولو لم يكن لك هذا الإسناد فى هذا الحديث، وهذا المسند

المجتمع من قديم الفخر وحديث، لا غتنك غريزة عزيزة، وسجية سجية، وشيمة وسيمة، وخلائق فيها ما تحب الخلائق، ونحائز لم يجز مثلها حائز، ومحاسن ماؤها غير آسن، ومآثر غير عاثر، ومفاخر غفل عنها الأول، ليستأثر بها الأخر، وبراعة لسان، ينسجم قطارها، وشجاعة جنان، تضطرم نارها، وخلال جلال عليك شواهد أنوارها تتوضح، ومساعي مساعد لديك كمائم نورها تتفتح، فكيف وقد جمعت لك في المجد بين نفس وأب وعم، ووجب أن سألك من اصطفاك أمير المؤمنين ماذا حصل ثم على الخلق عمّ، فيومك واسطة في المجد بين غدك وأمسك، وكل نواد من أندية الفخار لك أن تقول فيه وعلى غيرك أن يمسك، فبشراك أن أنعم أمير المؤمنين موصولة منكم بوالد وولد، وأن شمس ملكه بكم كالشمس أقوى ما كانت في بيت الأسد.

ولما رأى الله تقلب وجه أمير المؤمنين في سمائه ولاه من اختيارك قبله، وقامت حجته عند الله باستكفائك وزيراً له ووزراً للملة، فناجته مراشد الإلهام، وأضاءت له مقاصد لا تعقلها كل الإفهام، وعزم له على أن قلدك تدبير ملكته الذي أعرقت في إرثه وأغرقت في كسبه، ومهد لك أبعد غاية في الفخر بما يسر لك من قربه.

ولقد سبق أمير المؤمنين إلى اختيارك قبل قول لسانه بضمير قلبه، وذكر فيك قول ربِّه: ﴿والبلدُ الطيِّبُ يخرُجُ نباتُه بإذْنِ ربِّه﴾، وقلدك لأنك سيف من سيوف الله تعالى يحق به التقلد وله التقليد، واصطفاك على علم بأنك واحد منتظم في معنى العديد، وأحيا في سلطان جيوشه سُنّة جده الإمام المستنصر بالله في أمير جيوشه الأولى، وأقامك بعده كما أقام بعده ولده وأنه ليرجو أن تكون أفضل من الأفضل، وخرج أمره إليك بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك بتقليدك وزارته التي أحلك ربوتها، وأحل لك

صهوتها، وحلاك نعمتها، ولك نعمتها، فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبتها التى تناهت فى الإنافة، إلا أن لا رتبة فوقها إلا ما جعله الله تعالى للخالفة، وتبوأ منها صدراً لا تتطلع إليه عيون الصدور، واعتقل منها فى درجة على مثلها تدور البدور:

﴿واصْبِر علَى مَا أصَابَكَ إنَّ ذَلِكَ مِنْ عزْمِ الأُمُورِ﴾

وقل: ﴿الحَمْدُ لله الَّذى أذْهَبَ عنَّا الْحَزَنَ إنَّ ربَّنَا لَغَفورٌ شَكُورٌ﴾

وباشر مستبشراً، واستوطن متدبراً، وأبسط يدك فقد فوّ إليك الأمر أمير المؤنين بسطاً وقبضاً، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعاً وخفضاً، وأثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكمك تثبيأ ودحضاً، واعقد حبى العزمات للمصالح .فقد أطلق بأمرك عقداً ونقضاً، وأنقذ فيما أهلك له فقد أدى بك نافله من السياسة وفرضاً، وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصريف.

وثقف أود الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف، واسحب ذيول الفخار حيث لا تصل التيجان، واملأ لحظاً من نور الله تعالى حيث تتقى الأبصار لجين الجفان إن هذا لهو الفضل المبين، فارتبطه بالتقوى التى هى عروة النجاج . ر. . .يره الحياة والممات، وصفوة ما تلقى آدم من ربه من الكلمات، وخير ما قدمته النفوس لغدها فى أمسها، وجادلت (به) يوم تجادل كل نفس عن نفسها، قال الله سبحانه ومن أصدق من الله قيلا: ﴿والآخِرَةُ خيرٌ لِمَنْ اتَّقَى ولا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾.

واستتم بالعدل نعم الله تعالى عليك، وأحسن كما أحسن الله إليك، وامر بالمعروف فإنك من أهله، وانه عن المنكر كما كنت تنزهت عن فعله، وأولياء أمير المؤمنين، وأنصاره الميامين، ومن يحف بمقام ملكه من الأمراء

المطوقين، والأعيان المعصبين، والأماثل والأجناد أجمعين، فهم أولياؤه حقاً، ومماليكه رقاً، والذين تؤوا الدار والإيمان سبقاً، وأنصاره غرباً كما أن عسكرك أنصاره شرقاً، فهم وهم يد في الطاعة على من ناواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، وتحاكم فيهم وأت عند أمير المؤمنين أعلاهم

هذا وقد كان السيد الأجل الملك المنصور - رضى الله عنه - استمطر لهم (من) إنعام أمير المؤمنين السامحة بعلقهم، وواس فى هذه المنقبة التى استحق بها حسن الذكر بين طوائفهم وفرقهم، فصنهم من جائحات الاعتراض، وابذل لهم صالحات الأغراض، وارفع دونهم الحجاب، ويسر لهم الأسباب، واستوف منهم عن دالحضور إليك غايات الخطاب، وصرفهم فى بلاد أمير الؤمنين ولاة وحماة، كما تصرفهم فى أوقات الحرب لماة وكماة، وعرفهم بركة سلطانك، واقتد قلوبهم بزمام إحسانك.

وأما القضاة والدعاة : فهم بين كفالتك وهديك، والتصريف على أمرك ونهيك، فاستعمل منهم من أحسن عملا، فأما بالعنايات فلا.

والجهاد: فأنت راضع دره، وناشئة حجره، وظهور الخيل مواطنك، وظلال الجبل مساكنك، وفى ظلمات مشاكله تجلى محاسنك، وفى أعقاب نوازله تتلى ميامنك، فشمر له عن ساق من القنا، وخض فيه بحراً من الظبا، واحلل فيه عقدة كلمات الله سبحانه وثيقات الحبى، وأسل الوهاد بدماء العدا، وارفع برءوسهم الربا، حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك، ومشهوداً به يوم مقامك بين يديه من لسان إمامك.

والأموال فهى ربدة حلب اللطاف لا العنف، وجمة يمتريها الرفق لا العسف، وما برحت أجد ذخائر الدول للصفوف، وأحد أسلحتها التى تمضى

وقد تنبو السيوف، فقدم للبلاد الاستعمار، تقدم لك الاستثمار، وقطره من عدل تزخر بها من مال بحار.

والرعايا: فهم ودائع الله لأمير المؤمنين وودائعه لديك، فاقبض عنهم الأيدى وابسط بالعدل فيهم يديك، وكن بهم رءوفاً، وعليهم عطوفاً، واجعل الضعيف منهم في الحق قويا، والقوى في الباطل ضعيفاً، ووكل برعايتهم ناظر اجتهادك، واجعل ألسنتهم بالدعاء من سلاحك، وقلوبهم بالمحبة من أجنادك، ولو جاز أن يستغنى عن الوصية قائم بأمر، أو جالس فى صدر، لاستغنيت عنها بفطنتك الزكية، وفطرتك الذكرية، ولكنها من أمير المؤمنين ذكرى لك وأنت من المؤمنين، وعرابة بركة فتلق رايتها باليمين.

والله تعالى يؤيدك أيها السيد الأجل ـ أدام الله قدرتك ـ بالنصر العزيز، ويقضى لدولة أمير المؤمنين على يديك بالفتح الوجيز، ولأهلها فى نظرك بالأمر الحريز، ويمتع دست الملك بحلى مجدك الإبريز، ويقر عيون الأعيان بما يظهر لك فى ميدان السعادة من السبق والتبريز، ويميليك من نحلة أنعم أمير المؤمنين بما ملك أيام ملك التحويز، ويلحق بك فى المجد أولك، ويحمد فيك العواقب ولك.

فاعلم ذلك من آمر أمير المؤمنين ورسمه، واعمل بموجبه وحكمه، إن شاء الله تعالى.

توقيع بخط الخليفة العاضد لدين الله الفاطمى على طرة التقليد السابق بتولية صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة عن : (القلقشندى: صبح الأعشى ج٩، ص ٤٠٧).

«هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله تعالى عليك، فأوف بعهدك ويمين، وخذ كتاب أمير المؤمنين، ولمن مضى بجدنا رسول الله ﷺ، أحسن أسوة، ولمن بقى بقربنا سلوة ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ ولا فَسَاداً، والعاقبةُ لِلْمُتَّقِين﴾.

. وصف تفصيلي للفتح الأيوبي لليمن كما سجله بقلمه مؤرخ يمني عن :(بدر الدين محمد بن حاتم : السمط الغالي الثمن، في أخبار الملوك من الغز باليمن،

مخطوطة بدار الكتب المصرية، رقم ٢٤١١، ص ٢ب ـ ٦ب)

اعلم أن جملة من ملك اليمن من الغز إلى وقتنا هذا عشرة ·

الملك المعظم توران بن أيوب،

والملك العزيز ـ أخوه ـ سيف الإسلام طغتكين بن أيوب،

والملك المعز ـ ولده ـ إسماعيل،

وسيف الدين الأتابك سنقر، بحكم الأتابكية لولده سيده الملك الناصر أيوب ابن طغتكين،

ثم الملك الناصر أيوب ـ بعده ـ،

ثم الملك المعظم سليمان بن تقي الدين،

ثم الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل

فهؤلاء سبعة: ستة منهم من بني أيوب، والسابع مملوكهم.

ثما جاء الدولة السعيدة الرسولية ـ خلَّدَ الله ملكها (و) أيامها ـ ود النيرات ـ

فملك ـ بعد الملك المسعود ـ ملوانا الملك المنصور ، الدين أبو الفتح عمر بن علي بن رسول ـ قدّس الله روحه ـ،

ثم ولده مولانا ومالكنا المقام الأعظم السلطان الملك المظفر شمس الدنيا والدين أبو المنصور يوسف،

ثم ولى الأمر ولده مولانا المقام الأعظم السلطان الملك الأشرف أبا الفتح عمر ممهد الدنيا والدين، إيثاراً له بذلك إذ رآه له أهلا، ولم يضن به عليه أصلا، فهما ملكا هذا الأوان، وبهما استقامة الزمان.

فلا برحا فى نعمة وسعادة ∴ تبيد العدى طرا، وتقهر من عدا

والآن حين نبتدئ فى شرح السير لهؤلاء الملوك جميعاً:

اعلم أن أول من ملك اليمن من الغز بنو أيوب، ملوك الديار المصرية بالشام كلها، بديار البكر كافة والعواصم والسواحل، وكان الجميع تحت حكمه غير منازع فيها ولا مدافع عليها، وكانوا جماعة، وملكهم يومئذ القائم فهم أولا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى، أصغر أولاد أيوب سناً، وأكبرهم معنى.

وكان له من الأخوة جماعة. منهم: الملك العادل سيف الدين أبو بكر ـ وهو الكبير فيهم جميعاً ـ والملك المعظم شمس الدولة توران، والملك العزيز سيف الإسلام وتقى الدين، وغيرهم ممن لم يشتهر شهرة هؤلاء، ففرق لكل منهم بلداً، خلا توران فإنه ندبه لليمن، وجهّزه بالعسكر الجم والمال الكثير، وذلك على حين فترة فى اليمن من ملك مستقل فيها ـ وعرها وسهلها، وعلوها وسفلها ـ ومالك لدانيها وقاصيها، وقائد لطائعها وعاصيها، بل كانت مقسومة بين العرب.

فكل موضع فيها (به) ملك مستقيم بذاته، والأمر فيها كما قال الشاعر:

وتفرقوا فرقاً، فكل قبيلة ∴ فيها أمير المؤمنين ومنبر

فلما بلغه ذلك بادر بتجهيز أخيه الملك المعظم - على ما ذكرنا - فوصل اليمن فى سنة تسع وستين وخمسمائة، فأول من لقيه من أهل اليمن الأمير قاسم بن غانم بن يحيى السليمانى، من المخلاف السليمانى، جاءه إلى حرض، من موضعه وكان يسمى محل أبى تراب، وشكا عليه من عبد النبىّ بن مهدى، وهو يومئذ صاحب التهائم والجبال، من تعز إلى فحر، إلى سوى ذلك، ما خلا عدن والدملوة وصنعاء ، فإنها كات بأيدى أهلها الذين نورد ذكرهم - إن شاء الله تعالى -.

وكان عبد النبىّ قد غار إلى حرض ونهبها، ونهب بلادها، ونهب هذا المحل الذى للشريف، وقتل أخاه، وكان يقال له : «وهاس بن غانم» فسأل الأمير قاسم بن الملك المعظم أن يكون أول دخوله اليمن إنجاداً له على بنى مهدى، فأجابه إلى ذلك، ونهضا بالعساكر من حرض فى سلخ رمضان فى هذه السنة المذكورة، فوصلا زبيد يوم السبت السابع من شوال عند طلوع الشمس، فنهبوا جميع (ما) فيها - الأموال والخيول - وسبوا الحريم، وقبضوا على عبد النبىّ وأخوته، وعاد الأمير قاسم بن غانم إلى بلاده يوم الجمعة الثالث من الشهر.

وأقام الملك المعظم بزبيد إلى أن دخل شهر ذى القعدة، ونهض لتعز فأخذه ولم ينازعه أحد، وقاتل أهل صبر ودخر فلم ينل منهم، ثم نهض للجند فدخلها وملكها، وكل هذه كانت من ممالك عبد النبىّ.

وسار إلى عدن فأخذها يوم الجمعة العشرين من ذى القعدة، ونهب من بها، وفيها يومئذ من الأمراء أولاد الداعى المكرم عمران بن محمد بن سبأ،

والشيخ ياسر بن بلال ـ مولاهم ـ ، فقبض عليهم جميعاً، وعاد منها إلى بمخلاف جعفر، فبايع فى التعكر، وأخذه يوم الثلاثاء والعشرين من ذى الحجة آخر سنة تسع وستين وخمسمائة.

ثم نهض إلى جبلة، وقد صارت البلاد جميعها له ما خلا الدملوه والبلاد العليا، فطلع نقيل صيد يوم الاثنين الثامن والعشرين من ذى الحجة، وحط عليه ذروان يوم الثلاثاء وفيه يومئذ السلطان عبد الله بن يحيى الجنبى، فصالحهم وبذل الطاعة، ونهض إلى المصنعة، وفيها يومئذ الشيخ محمد بن زيد البعدى الجنبى، فأخذها منه، ثم نهض إلى ذمار فاعترضه جنب من موضع يسمى رخمة فى شرقى ذمار يوم الخميس التاسع من المحرم، أول سنة سبعين وخمسمائة، فقتل من الغز خمسة وستون رجلا، فأخذ خيلهم وسلاحهم، ثم أقام فى ذمار، ونهض منها فاعترضه جنب وغيرهم، وجرى بينهم وبينهم قتال كانت الدائرة (فيه) على العرب، فقتل منهم سبعمائة رجل، ولحقتهم الغز حتى أولجوهم حصن هران، وأخذوا منهم قلائع كثيرة من الخيل.

ويقال إن الملك المعظم ذمر الغز فى ذلك اليوم وبكتهم وحملهم على التورط فى الهلاك، وقال لهم : أين منكم ديار مصر؟!.

وفى ذلك يقول البشركى شاعر ذمار:

وقال لقومه:

ثم سار من ذمار بعد استيلائه عليها طالباً صنعاء، وسلطانها يومئذ السلطان علي بن حاتم جد الأمير بدر الدين محمد بن حاتم، فوصل إليها

يوم الجمعة منتصف النهار، وهو اليوم السابع من المحرم سنة سبعين وخمسمائة، وضرب محطته بالجنوب في صنعاء،وقد تحيز السلطان علي بن حاتم وأخوه بشر بمن معهما إلى حصن براش، وقد كانوا حين جاء المحطة صادفوا ثمانية فرسان من همدان، فشدوا عليهم فقتلوا منهم ثلاثة ونجا خمسة فطلعوا الحصن، ثم إن المحطة أقامت في الجنوب إلى يوم الاثنين ولم يصلهم أحد.

واختلفت الرواية من هنا، فقيل: «دخلوا صنعاء ولم يلبثوا بها ثم ساروا» وقيل : «بل ساروا من المحطة ولم يدخلوا صنعاء» ، والله أعلم أى ذلك كان إلا أن الإجماع على أن الملك المعظم لم يكن له إقامة في الجهات الصنعانية ولم يصله أحد من أهلها، فنزل طريقاً بها، وأخلا على نقيل السود (كذا)، وهو بين بلاد بني شهاب وبلاد سنحان، مطل على حقل سنحان وسهام، فلحقهم قوم من بني شهاب، وقوم سنحان وموهم، وأخذوا من أخذ عسكرهم.

ولما علم السلطان علي بن حاتم بارتحال الغز نزل من براش وعاد إلى صنعاء، فأول ما بدأ به حين عاد أنه خرب الدرب الذى للمدينة، وقد كان ببدأ فيه قبل وصول الغز، ثم حال بينه وبين تمامه وصولهم، فلما ساروا حاذر عودتهم فتمم الخراب.

وأما ما كان (من) الملك المعظم بعد ارتحاله عن صنعاء ، فإنه اعترض العسكر في النزول أهل برع، فأخذوا من أخرهم جمال كثيرة محملة أموال جمة من الذهب والفضة والسلاح والآلة، وكثيراً ما استصحبوا من البلاد المصرية وعدن وزبيد يوم الاستيلاء عليها.

ثم جاء زبيد، فأقام بها إلى شهر جمادى الأولى فى هذاه السنة، ثم نهض منها طالباً للجند، ووصل إليها والى حصن صبر الذى كان دائناً لعبد النبىّ واستذم وسلم الحصن.

ثم أخذ حصن بادية وشرباق، وحط على عزان دخر، وفيه يومئذ علي بن حجاج من أهل تهامة متوالية، وكان صهراً لعبد النبىّ، فخاطب الغز وطلب الصلح، فوعدوه أنهم يأخذون منه ما كان فى الحصن من المال بعد النبىّ ويتركون سبيله، فاستحلفوه على ما عنده من المال لعبد النبىّ، فأقر بعشرة آلاف دينار ذهب، فقبضوها منه، وسلم لهم الحصن وتسلموه.

ثم تقدموا إلى المعافر فحاربوا حصن يمين، وفيه الأمير منصور بن محمد بن سبأ، فأخذ الحصن قهراً، وذلك بتخاذ الدانون والرتبة (كذا) هربوا من الحصن ثم تسلموا منيف، وكان لأبى الغيث بن سامر، ثم تسلموا حصن المسدان من النائب، الذى كان به ولم يعرضوا الحصن السواء، وصاحبه يومئذ ابن السبأى، بل أبقوه على حاله، ثم حطوا على الدملوة، وفيها وله الداعى المكرم عمران بن محمد بن سبأ، وواليهما بها جوهر العمرانى، ورموا بالمنجنيقات فلم تبلغ إلا الحر، فلم يكن لهم بها طمع، فصالحوا جوهراً على قطعة هينة من المعشار الذى تحت الدملوة، وعادوا وتقدموا إلى ذى جبلة، فأقاموا بها إلى رابع شعبان من هذه السنة.

وبلغ الملك المعظم فى خلال هذه الأمور وقوع خلاف فى تهامة، فأمر بقتل عبد النبىّ وأخويه: أحمد ويحيى، فقتلوا فى زبيد يوم الثلاثاء السابع من رجب من هذه السنه.

ثم إن الملك المعظم أقام فى البلاد حتى دخلت سنة إحدى وسبعين

وخمسمائة وطلب العودة إلى الديار المصرية، فنهض من اليمن فى شهر رجب من السنة بعد أن قتل ياسر بن بلال ـ مولى الدعاة بنى زريع ـ الذى قدمنا ذكره، وقبضه فى عدن مع مواليه.

واستناب فى البلاد نوابا، فجعل فى عدن وأعمالها عثمان السنجارى، أو الزنجارى، وفى تعز والند وأعمالها ياقوت التعزى، وفى حصن التعكر وذى جبلة ومخلاف جعفر مظفر الدين قايماز، وفى مدينة زبيد وأعمالها، وجميع تهامة سيف الدولة المبارك بن منقذ، وكان من حمدان، وكان رجلا فصيحًا شاعرًا فمن جملة شعره.

وإذا أراد الله شــرًا بامــرئ ∴ وأراد أن يحيــيه غيـر سعيـد
أغراه بالترحال عن مصر بلا ∴ سـبـب، وسكنه بأرض زبيــد

قطعة من خطاب بقلم القاضى الفاضل، صادرة عن صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى وزير بغداد، يعدد فيها فتوحه وجهوده في خدمة الخلافة العباسية، وآخرها قطع الخطبة للخليفة العاضد، وإعلانها للمستضيء بنور الله العباسى، ويطلب إرسال التشريفات.

عن : (أبو شامة : كتاب الروضتين، ج١، ص ١٩٥)

«كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بن الأمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالت الفتوح عرباً ويمناً وشاماً، وصارت البلاد بل الدنيا، والشهر بل الدهر، حرماً حراماً، فأضحى الدين واحداً بعد ما كان أدياناً، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها إلا صماً وعمياناً، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة، ذلك بأهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعاً، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعاً، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظبا حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مخنق، وقطع دابرهم، ووعظ آيبهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلا، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا، وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير إليهم بنائم.

ولا خفاء عن المجلس الصاحبي أن من شد عقد خلافة وحلى عقد خلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف، فإنه مفتقر إلى أن يشكر ما نصح، ويقلد ما فتح، ويبلغ ما اقترح، ويقدم حقه ولا يطرح، ويقرب مكانه وإن نزح وتأتيه التشريفات الشريفة، وتتواصل إليه

إمدادات التقويات الجليلة اللطيفة، وتلبى دعوته بما أقام من دعوة، وتوصل غزوته بما وصل من غزوة، وترفع دونه الحجب المعترضة، وترسل إليه السحب المروضة، فكل ذلك تعود عوائده، وتبدو فوائده، بالدولة التى كشف وجهه لنصرها، وجرد سيفه لرفع منارها، والقيام بأمرها، وقد أتى البيوت من أبوابها، وطلب النجمة من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وأنهض لإيصال ملطفاته، وتنجيز تشريفاته، خطيب الخطباء، بمصر، وهو الى اختاره لصعوده درجة المنبر، وقام بالأمر قيام من بر، واستفتح بلباس السواد الأعظم الذى جمع الله عليه السواد الأعظم، آملا أن يعود إليه بما يطوى الرجاء فضل عقبه، ويخلد الشرف فى عقبه».

نسخة بشارة بانتهاء الدولة الفاطمية فى مصر، والخطبة للخليفة العباسى، حملها عن نور الدين، شهاب الدين أبو المعالى المطهر بن أبى عصرون لتقرأ فى كل مدينة يمر بها فى طريقه إلى بغداد

عن : (أبو شامة : كتاب الروضتين، ج١، ص ١١٧-١١٨)

«أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية، والإسكندرية ومصر والقاهرة، وسائر الأطراف الدانية والقاصية، والبادية والحضارة، وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد، وهذا شرف لزماننا هذا وأهله، نفتخر به على الأزمنة التى مضت من قبله، وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا فى إقامة الدعوة الهادية بها ماضية، والأقدار فى الأزل بقضاء آرائنا وبتنجيز مواعدنا قاضية، حتى ظفرنا بها بعغد يزس الملوك منها، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها، وطالما مرت عليها الحقب الخوالى وأبت دونها الأيام والليالى، وبقيت مائتين وثمانية سنة ممنوعة بدعوة المبطلين، مملوة بحزب الشياطين، سابغة ظلالها للضلال، مقفرة المحل إلا من المحل، مفتقرة إلى نصرة من الله يملكها ونظرة ستدركها، رافعة يدها فى أشكائها، متظلمة إليه ليكفل بأعدائها على أعدائها، حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، ولعلتها بالعلاج، وسبب قصد الفرنج لها وتوجههم إليها، طمعاً فى الاستيلاء عليها، واجتمع داءان: الكفر والبدعة، وكلاهما شديدا الروعة، فامكنا الله تلك البلاد، ومكن لنا فى الأرض، واقدرنا على ما كنا نؤمله فى إزالة الإلحاد والرفض من إقامة الفرض، وتقدمنا إلى من استباه أن يستفتح باب السعادة، ويستنجح باب ما لنا من الإرادة، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك».

مصادر ومراجع الدراسة

أولاً: المصادر العربية:

١- ابن الأثير الجزرى (أبو الحسن على بن بن الكرم)

الكامل فى التاريخ

التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية بالموصل.

٢- ابن خلجان (شمس الدين ابو العباس أحمد)

وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان.

٣- ابن شداد (بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع)

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية.

٤- ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله)

زبدة الحلب من تاريخ الحلب

٥- ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة بن أسد الدين)

ذيل تاريخ دمشق

٦- ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف)

أخبار مصر

٧- ابن واصل (جمال الدين ابو عبد الله محمد بن سليم)

مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب

٨- أبو شامه (عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم)

الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية

٩- ابو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين ابو الفدا اسماعيل)

المختصر فى تاريخ البشر

١٠- ابو المحاسن (جمال الدين ابو المحاسن يوسف تغرى بردى)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
١١- البلاذرى (أبو الحسن احمد بن يحيى بن جابر)
فتوح البلدان
١٢- اسامه بن منقذ
الاعتبار
١٣- الأصفهانى (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد)
الفتح القسى فى الفتح القدسى
١٣- ابن الأثير الجزرى (أبو الحسن على بن بن الكرم)
الكامل فى التاريخ
التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية بالموصل.
١٤- المقريزى (تقى الدين ابو العباسى أحمد)
السلوك لمعرفة دول الملوم
إغاثة الأمة بكشف الغمة
١٥- ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت شهاب الدين)
معجم البلدان

ثانياً: المراجع العربية

١- احمد مختار العبادى
قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام
تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام

٢- السيد عبد العزيز سالم

تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى

طربلس الشام فى التاريخ الاسلامى

٣- أرشيبالدلويس

القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط

٤- حسن حبشى

الحرب الصليبية الأولى

نور الدين والصليبيون

٥- حسن ابراهيم حسن

تاريخ الإسلام

٦- السيد الباز العرينى

الشرق الأدنى فى العصور الوسطى

أ- الابوبيون

ب- المماليك

٧- رانسمان

تاريخ الحروب الصليبية

٨- سعيد عبد الفتاح عاشور

الحركة الصليبية صفحة مشرقه فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى

العصر المماليكى فى مصر والشام

مصر والشام فى عصر الايوبيين والمماليك

الظاهر بيبرس

فهرست الموضوعات

القسم الأول

تاريخ مصر فى العصر الأيوبى

ص - ١٤٨

القسم الثانى

تاريخ مصر فى العصر المملوكى

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية